صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Propriétaire - Rédacteur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي ادريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
ص. ب ٤١٢٣ بيروت – تلفون ٢٣٢٨٣٢
AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - LIBAN
الادارة : شارع سوريا – بناية درويش
B.P. 4123 - Tel. 232832

العدد السابع
تموز (يوليو)
السنة السابعة عشرة

No. 7
Juillet 1969
17 ème année

سطور من رسالة
الى الشباب العربي

بقلم الدكتور عصمت سيف الدولة

« ليحذر الشباب العربي من الاقليمية في كل الظروف ، فهي غير أمينة على اسرار النضال الجماهيري. وهي هي التي ستتصدى غدا او بعد غد لهؤلاء الشباب لتحول بينهم وبين الاستمرار في النضال المنظّم . وليولد التنظيم القومي الثوري من تفاعل كتائب الانصار وتعاونها والتحامها خلال المعركة ، فكذلك يملك الشباب العربي أسباب النصر النهائي حتى وهم في الوضع المهزوم » .

هذا ما قلناه منذ عامين ، على اثر هزيمة (يونيه) حزيران ١٩٦٧ .

فهل تغيّر شيء في الوطن العربي خلال عامين لنضيف الى ما قلنا قولا جديدا ؟

نعم . المقاومة . ولكن ألا يتصدون اليوم لهؤلاء الشباب ليحولوا بينهم وبين اكتمال المقدرة على استمرار النضال المنظّم ، عن طريق التفتيت والعرقلة والانحراف ؟ هو كذلك .

فما العمل ؟

ايها الشباب العربي ، لا تهربوا من مسؤولياتكم وراء التساؤل الكبير . ان القادرين على النصر مسؤولون عن الهزيمة ، فأنتم المسؤولون . وان تخذلوا امتكم بدلا من ان تنصروها فلن يجديكم شيئا ان تتهموا العاجزين عن النصر او المخربين . انكم لستم اول امة خاضت معارك التحرير . ان وحدة العدو ، ووحدة الساحة ، ووحدة المرحلة تفرض عليكم ان تكونوا جبهة واحدة مع كل الذين يقاتلون . والذين يقاتلون فعلا فئتان مفرزتان عقيدة وغاية فلا تختلطان . أنتم القوى القومية التي تخوض في الارض المحتلة معركة التحرر العربي في سبيل الوحدة . والقوى الاقليمية التي تخوض المعركة من أجل ازالة آثار العدوان او من أجل تحرير فلسطين ثم لا يزيدون . اولئك حلفاء المرحلة ، رضيتم ام أبيتم ، وان أبيتم فانكم لا تعزلون سوى قوتكم ولن تجديكم عزلتكم فتيلا . والحلف غير الوحدة ، فلا يجديكم في المعركة شيئا ان تطلبوا وحدة المقاومة مضمونا وتنظيما . تلك وحدة تنطوي على أسباب الفرقة ، فلن تلبث حتى تمزق الصفوف كرة اخرى . انما هي الجبهة العربية الموحدة بين القوى القومية والقوى الفلسطينية المقاومة . كذلك فعل كل الذين احرزوا من قبلكم النصر في معارك التحرير .

فلماذا لا تقوم الجبهة ؟

انكم المسؤولون .

ان القوى الفلسطينية منظمة في « فتح » تخوض المعركة من منطلقاتها ، بأدواتها ، الى غايتها ، لا شبهة في

انها توفي بمسؤوليتها في الاطار الفكري والحركي الذي اختارته حدا للقتال . فان كان ثمة من يقاتلون بعيدا عن « فتح » ولكن تحت شعار « مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين » فانهم يعبثون . وفي « فتح » مكان لكل المقاتلين من أجل ازالة آثار العدوان عن اوطانهم من فلسطين او من غير فلسطين . « فتح » اذن هي الطرف القائم بدون شك ، المعين بدون لبس ، ليكون طرفا في الجبهة العربية لتحرير فلسطين .

اما الطرف الآخر فأنتم ، وانتم مبعثرون . أنتم الذين يمزقونكم كل يوم او انتم المزقون . مع أنكم الاكثرون . أنتم ابطال القتال في ساحة المعركة ، وانتم الجماهير العربية في الوطن العربي فانتم الملايين . فما الذي تنتظرون ؟ ان تبيح الاقليمية وطنكم لاعدائكم مرة اخرى او ان تساوم عليه او تستسلم ، ثم تبكوا كما بكيتم من قبل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ المشؤوم ؟

ايها الشباب العربي ، انصروا امتكم العربية ، فانها بعد عامين من الهزيمة اكثر من ذي قبل حاجة الى ان تنصروها ، وان تنصروها لا تنصروا الا انفسكم ومستقبل وطنكم العظيم .

فما العمل ؟

١ — ليلتحم كل القوميين المقاتلين في المقاومة في منظمة عربية واحدة ، وليقيموا مع « حركة التحرير الوطني الفلسطيني » (فتح) جبهة عربية موحدة لتحرير فلسطين .

٢ — ولتشكل في كل مكان من الوطن العربي كتائب الانصار لتكون القواعد الجماهيرية للمنظمة العربية تحمي ظهرها وتؤمن ، في البداية ودائما وحتى النهاية ، سمتها القومية ، ولتكون المنظمة العربية القبضة الضاربة لتلك الجماهير .

٣ — ولتكن مهمة الانصار من الجماهير في الوطن العربي ، حماية الجبهة العربية الموحدة من تخريب الاعداء والمتآمرين والمتخاذلين والمنهزمين ، والتحريض على القتال ، والاستمرار فيه ، وتعبئة كل القوى لمنع التراجع او المساومة او الاستسلام . وفي كل قضية مطروحة في اي مكان عربي ، سيجد الانصار صلة وثيقة بينها وبين النصر في المعركة ، وعلى اساس تلك الصلة يحددون مواقفهم من كل القضايا ومن كل القوى ، منتصرين دائما لأمتهم .

٤ — ولتكن مهمة الانصار من القادرين في الوطن العربي والعرب المقيمين في اي مكان من الارض ان يشكلوا مكاتب امداد المقاتلين بالمال والعتاد الى اقصى درجة يستطيعونها ليكون المقاتلون في غنى الى أقصى درجة مستطاعة عن دعم الاقليمية وما لها ليكونوا بذلك ابعد ما يكونون عن اسارها .

٥ — ولتكن مهمة الانصار ، من المثقفين والكتاب والادباء والفنانين ، اعفاء جهد المقاتلين في المعركة من عبء الدعوة الفكرية والاعلامية وليشكلوا من أنفسهم مكاتب الدراسة والدعوة والدعاية وليحضروا لليوم الموعود .

٦ — وليكن اليوم الموعود اثر مرحلة المعركة القائمة لازالة آثار العدوان ، او في يوم معلوم ، عهدا وميثاقا على كتائب الانصار الذين صقلتهم المعركة ، واختبروا فيها صلابتهم ، ان يعقدوا مؤتمرهم العربي الذي يتحولون به الى تنظيم قومي يتولى مسؤولية الثورة العربية الشاملة ضد الاحتلال والتجزئة والاستغلال ، فينبثق التنظيم الثوري من قواعده التي حضَّرتها المعركة وأهلتها لدورها القيادي العظيم .

٧ — وليكن شعار المرحلة : التنظيم من أجل التحرير ، والتحرير من أجل الوحدة .

هكذا يمكن ان يولد التنظيم الثوري القومي من خلال معركة تحرير فلسطين . ★

عصمت سيف الدولة

★ **من كتاب « ما العمل ؟ رسالتان الى الشباب العربي » الذي يصدر هذا الشهر عن « دار الآداب » .**

الفضيلة بين البدو والحضر

هل نحن أرفع اخلاقا من الغربيين ؟

بقلم الدكتور محمد النويهي

في مقدمة ابن خلدون فصل عنوانه « في ان أهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر » . يقرر فيه المفكر الكبير ان اهل البادية أبعد من المتحضرين عن مذاهب السوء ومذمومات الخلق ، وان هؤلاء أكثر شرا واعظم فاحشة ، فهو يرى ان أهل البدو لقربهم من « الفطرة » أقرب الى الطيبة والصلاح ، وأن اهل الحضر « لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء ، في مجالسهم وبين كبرائهم واهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا . »

هذا الراي القديم لا يزال كبير الذيوع ، يعتنقه العامة ، ويردده احيانا بعض كبار المفكرين . فنجد الدكتور طه حسين في « حديث الاربعاء » ، وفقيدنا الاستاذ العقاد في « شاعر الغزل » ، ونجد غيرهما من كبار كتابنا يقررون أن البداوة تتميز بالعفة ، وان حبها طاهر شريف ، وان الحضارة اشد تحللا خلقيا .

فما نصيب هذا الرأي الرائج من الصحة ، وما مقدار انطباقه على واقع الاحوال الذي تستقريه من الدراسة الدقيقة لاجيال البدو والحضر ؟

معظم الناس حين يتحدثون عن « الفضيلة » يعنون في الاغلب نوعا واحدا منها ، هو الفضيلة الجنسية . كذلك حين يتحدثون عن « الرذيلة » يعنون غالبا الرذيلة الجنسية . فلنبدأ بالتامل في نصيب الحضارة والبداوة من هذه الفضيلة وهذه الرذيلة ، وان لم يكن هذا هو المقياس الخلقي الوحيد كما سنشرح بعد .

اصحيح أن البداوة اكبر عفة جنسية ؟ الحقائق التي تطلعنا عليها دراسة الانثروبولوجيا تشهد بعكس هذا تماما ، وترغمنا على التسليم بأن العفة الجنسية في المجتمع البدوي قليلة واحيانا تكاد لا تكون معروفة . وتقنعنا بان العلاقات الجنسية بين الذكور والاناث في هذه المرحلة من الاجتماع اكثر سهولة واباحية ، وانها لا يتبعها ما نظنه من الفضيحة والعار وسقوط الشرف للرجل او المراة .

في المجتمع البدوي يكاد كل رجل وامراة يكونان قد اكثرا من الاتصال الجنسي قبل الزواج ، ويقل ان تكون العروس ما زالت محتفظة ببكارتها . وفي الكثير من الجماعات البدوية يعيش الفتيان والفتيات قبل الزواج في بهو واحد عظيم مشترك ولا يبدأ الانفصال ولا يبدأ توحيد العلاقة الا بعد الزواج . وحتى بعد الزواج يكثر ما نسميه بالخيانات الزوجية ولا تستثير من الزوج ما نعتقده من الانكار والغضب أو الرغبة في الانتقام وتطهير العرض بالقتل ، قتل الرجل المعتدي أو قتل الزوجة الخائنة . بل اقصى ما يتطلبه الزوج ان يدفع له المعتدي غرامة من المال أو الحيوان ، فكأن الامر لا يزيد على اعتداء عادي على حقوق الملك .

هذه هي القاعدة العامة التي تسود الجماعات البدوية على اختلاف اجناسها وتنوع احوالها وتشتت اصقاعها في جنبات الارض . والامثلة كثيرة جدا ، من الجماعات الجزرية في جزر المحيط الهادي الى القبائل الزنجية في افريقيا الى قبائل الاسكيمو في أقصى الشمال . ففي الجماعات القبلية في جزر المحيط الهادي يعيش الفتيان والفتيات في ذلك البهو المشترك الذي وصفناه وتكون العلاقات بينهم مطلقة تمام الاطلاق . وفي بعض قبائل افريقيا اذا تزوجت الفتاة ولها طفل من قبل الزواج وجب ان يدفع خطيبها مهرا اغلى ، كما تشتري البقرة ذات الولد . وفي بعض القبائل الافريقية في اعالي النيل يتجاوزون عن الزنا خصوصا اذا لم يكن الزوجان قد انجبا اطفالا ، ويترك الزوج احيانا الباب الخلفي للكوخ مفتوحا كدعوة صامتة للرجال الاخرين عسى ان ترزق زوجته طفلا « من بين الاشجار » كما يقولون ، فالمهم في مقاييسهم الاجتماعية أن يكون للزوج ولد ، وهو لا يهمه بنفس القدر ان يكون في الحقيقة ولد غيره ما دام ينسب اليه .

وفي بعض القبائل الافريقية والاسيوية يكون من كرم الضيافة ان يعطي المضيف زوجته أو ابنته الى ضيفه لتقضي معه الليلة . وفي بعض الجماعات توجد مواسم يباح فيها للمراة ان تتصل بأي رجل تهواه . وفي بعض الاعياد يجب ان تتصل الزوجة بزوجها ، فان كان غائبا وجب اتصالها بأي رجل آخر حتى لا يمضي عليهما العيد دون اتصال . وهناك كثير من الاديان يكون الاتصال الجنسي ركنا هاما من طقوسها الدينية ، ولا ينحصر بين الزوجين . وهناك اديان تتخذ ما يسمى العاهرات المقدسات ، تضعهن في معابد الالهة ويكون فرضا على زائريها ان يتصلوا بهن كطقس من طقوس العبادة . واهل التبت في بعض اعيادهم يتبادلون الازواج والزوجات . أما لدى قبائل الاسكيمو فالعلاقات مطلقة قبل الزواج وبعد الزواج . يعود الزوج منهم في المساء من صيده ، فيتجه الى كيسه الخاص الذي ينام فيه مع زوجته لكنه يجد رجلا آخر قد سبقه الى احضانها ، فينصرف في هدوء الى اي كيس اخر يجد فيه زوجة لم يصل زوجها بعد .

هذه هي الحقائق التي نحصلها من الدراسة الصحيحة ، والامثلة كما قلت كثيرة جدا ، لو شئنا ان نكثر منها لملأنا صفحات بعد صفحات بسهولة تامة . ومن بقي في صدره شك فليس عليه الا ان يتوجه الى مكتبة جامعية فيمد يديه الى بعض الكتب الموضوعة في الرفوف المخصصة للدراسات الانثروبولوجية لجماعات بعينها ، فيقرأ ما كتبه العلماء بعد دراسة طويلة دقيقة لشتى الجماعات البشرية في مختلف القارات والجزر . وهذه الحقائق وان خالفت الظن الشائع هي ما كنا ننتظره — أو كان ينبغي علينا ان نتوقعه — من التفكير المنطقي الهادىء في المسألة . فالانسان في طوره البدوي اقرب الى اصله الحيواني ، والحيوان لا يعرف العفة الجنسية بل يعرف التحلل والشيوع ، فالانسان في هذه المرحلة من الاجتماع اقرب الى العلاقات الطبيعية بين الذكر والانثى التي لا حرج فيها ولا داعي للحياء او الاحتشام . لكنني كما يرى القارىء لم ابدأ نقاشي بهذا النوع من الجدل النظري A Priori بل اعطيت القارىء عددا من الامثلة الاستقرائية المعينة ، وارشدته كيف يستطيع ان يعثر على مئات الامثلة الاخرى ، ومنها ربما يقتنع بصحة ما نقلت عن العلماء المتخصصين ، فاذا اقتنع بالبرهان الاستقرائي فربما يوافقني على الحكم العام الذي استخلصته .

هنا سيحتج القارىء العربي قائلا : لكن ما لنا ولتلك الجماعات النائية تقتنص منها الامثلة للتدليل على صحة رأيك بأن البداوة يتفشى

فيها التحلل الجنسي ؟ انظر في باديتنا العربية في العراق او الشام أو السودان او المغرب او غيرها من الاقطار العربية التي تحفظ في بعض نواحيها بالمرحلة البدوية من الاجتماع ، أو انظر في ريفنا القروي في مصر او غيرها من اقطارنا ، وتأمل تمسك الناس الشديد بالعرض الى حد الانتقام بالقتل من البنت الخاطئة والرجل المعتدي . فهل تريد أن تدعي ان مجتمعنا البدوي او القروي ينطبق عليه ايضا ذلك الحكم العام الذي أدليت به ؟

والجواب ان تمسك باديتنا وقرانا بالفضيلة الجنسية ليس من بداوتها بل هو من أسلامها ، فالاسلام ، هذا الدين السماوي الرفيع ، هو الذي علم العرب التعفف الجنسي ، ولكنه دين محضر ، اعني أنه جاء يعادي البداوة ويحارب مقاييسها وقيمها الخلقية والاجتماعية ويحاول نقل الناس منها الى مرتبة عليا من الحياة الانسانية . ومن قبله كان العرب في جاهليتهم ، أي في طور بداوتهم الصحيح الخالص البداوة على قدر عظيم من التحلل الجنسي والسهولة في العلاقات ، كما تدلنا دراسة اشعارهم وأخبارهم - اذا قرأناها قراءة صحيحة . لم يكونوا في جاهليتهم يغضبون للعرض المهتوك الى حد الانتقام بالقتل كما نظن الان خطأ ، بل كانوا يقبلون ما يسمى « العقر » بضم العين وسكون القاف. والعقر هو ما يغرم الرجل في عذرة المرأة اذا افتضها . وقد كان من أشد ما اخذه الشعوبيون على العرب انهم في جاهليتهم - أي قبل اسلامهم الذي تساوى فيه العربي وغير العربي - كان نساؤهم كثيرا ما يوطأن في الغزوات وغيرها دون ان يثير هذا منهم غضبا كبيرا . أما الذي تسبب في شيوع تلك الفكرة عن عفة الحب البدوي فنشوء مدرسة الحب العذري في الشعر العربي وهي مدرسة لم تبدأ في الظهور الا في منتصف القرن الهجري الاول ، ويرجع نشوؤها الى تعاليم الاسلام الاخلاقية وقيمه الروحية الجديدة والى أسباب اخرى اجتماعية ومادية متصلة بمجيء الاسلام .

فاذا نحن اردنا ان نتبين نصيب البداوة من العفة الجنسية وان نكون عنه صورة صحيحة فلن يتحقق لنا هذا اذا نظرنا في بادية مسلمة أو في بادية مسيحية في لبنان مثلا . بل يجب علينا ان نتأمل في بادية خالصة البداوة لم يؤثر فيها الاسلام او المسيحية ، فننظر مثلا في البادية الوثنية في جنوب السودان لا في البادية المسلمة في شماله ولا في النواحي التي تطرق اليها تأثير المبشرين المسيحيين في جنوبه، وننظر في البادية الوثنية في اقطار أفريقيا واسيا والجزر المحيطية وغيرها من اقطار الارض . وهنا اذكر من سني اقامتي في السودان خطابا طريفا نشرته احدى صحف الخرطوم من احد قرائها الجنوبيين المسلمين في واو (عاصمة المديرية الاستوائية في جنوب السودان) ، يقول فيه ان محاكم الجنوب تعاقب الزاني عادة بغرامة معينة تدفع الى زوج الزانية ، وهو يطلب الى الحكومة ايقاف هذا النوع الفاضح من المحاكمات وابداله بقوانين صالحة تدعو الى الكرامة وتردع المجرمين » .

حتى بعد مجيء الاسلام ، هل صحيح ان البداوة كلها فضيلة وتعفف جنسي ؟ هنا نواجه هذه المسألة الشديدة الحساسية ، لكن لا محيد لنا عن مواجهتها . ذلك ان عاملين كبيرين يحولان بين معظمنا وبين الاقرار بالاحوال الحقيقية في مجتمعنا ، احدهما الجهل ، وثانيهما النفاق . فكثيرون لا يعرفون المدى الحقيقي لانتشار اللقاء المحرم بين الجنسين في باديتنا وريفنا . والذين يعرفون لا يجرؤون على التصريح بما يعرفون . وانا اذكر عظم دهشتي وانكاري منذ ثلاثين سنة حين اخبرني احد الاصدقاء من خارج قريتي المصرية بحقيقة الحال في تلك القرية ، وكنت كغيري من ابناء القرى اعتقد انها غاية في البراءة والطهر . كما اذكر الضجة الكبيرة التي اثارها في الخرطوم طالب نشر في مجلة الجامعة بحثا عن قرى النوبة ، ادعى فيه ان هجرة الرجال منها لطلب الرزق توقع كثيرا من نساء القرى في حبائل الغواية . وانقل هنا سطورا تناولت فيها الموضوع الراهن في « الكلية ، مجلة كلية الخرطوم الجامعية » ، عدد مارس سنة ١٩٥٣ :

« ما الاحوال التي توجد في الكثير من نواحي السودان البدوية ؟ ما علاقات الرجال بالنساء في غرب السودان مثلا ؟ هذا سؤال لا استطيع انا الاجابة عليه لاني لم أزر تلك الاقاليم ، فانا اتركه الى بحثكم ومناقشتكم ، وكل ما اقوله هو انني ان صدقت طلبتي الذين زاروا هذه النواحي في رحلاتهم الجغرافية السنة بعد السنة ، قطعت بشيوع العلاقات المحرمة بين الفتيان والفتيات ، الى حد نشأ عنه انتشار الزهري وغيره من الامراض السرية الى درجة مخيفة قدرها بعض الطلبة بأنها تبلغ تسعين في المائة . فان صح هذا الذي بلغني تجلى لنا صراع الاسلام والبداوة وكيف ان هذه ما زالت تحتفظ بالكثير من خصائصها البدوية برغم اسلامها . لا جرم ان وصف القرآن الكريم الاعراب بأنهم اشد كفرا ونفاقا ، وبأنهم اجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله . »

يرى القارىء مدى التحفظ والاحتياط الذي اتخذته في تلك السطور ، لا للسبب الذي ذكرته فيها وحده ، وهو عدم علمي الشخصي بأحوال تلك النواحي ، بل لكوني ضيفا نزيلا على السودان لا يقبل منه ما قد يقبل من ابناء البلد . وكل ما اضيفه هنا هو ان ذلك الادعاء عن انتشار الامراض السرية الذي نقلته عن طلبتي اثبت صحته فيها بعد لجنة طبية ارسلتها مؤسسة الصحة العالمية التابعة للامم المتحدة لدراسة المسألة واقتراح وسائل العلاج في كردفان ودارفور . فلاترك الى سائر القراء العرب ان يتعرفوا حقيقة الاحوال في متعدد بواديهم وقراهم ، ولاترك الان البداوة لكي أتأمل الحضارة ونصيبها من الفضيلة الجنسية او عدمها .

هل صحيح ان حياة المدينة يشع فيها التحلل الجنسي الى ذلك الحد الذي يعتقده الكثيرون ؟ حقا ان بالمدينة مفاسد ، ومفاسد كثيرة، لكن عملنا الدقيق هو ان نتبين النسبة ، نسبة انتشار هذا التحلل بين سكان المدن . نسلم بأن بالمدينة بؤرا للشهوات ودورا للآثام كثيرة ، لكننا نخطىء جدا حين نعتقد ان كل من بالمدينة ملوث بلوثتها . بل الحقيقة التي سيدهش منها الكثيرون هي ان « معظم » أهل المدينة - وهم الناس العاديون أسر الموظفين والتجار والعمال - يعيشون معيشة هي « في أغلبها » فاضلة . وان ابنة الافندي الذي يسكن المدينة تضرها الفضيحة وتضر اباها واسرتها بأكثر مما تضار ابنة البدوي في البادية الصحيحة البداوة .

يلاحظ القارىء انني لا احاول ان انكر ما في المدن من اثم كبير ، فالمدن فيها المواخير والكباريهات والمراقص الخليعة ومختلف بيوت الريبة والفساد ، لكننا نخطىء خطأ كبيرا اذا ظننا ان كل بيوت المدينة او معظمها من هذا النوع ، بل معظمها بيوت فاضلة شريفة لآباء وأزواج شديدي التمسك بشرف بناتهم وزوجاتهم ، وهم انفسهم في « معظم » حياتهم مخلصون للعلاقات الزوجية .

ثم اننا يجب علينا حين نتحدث عن كثرة الاثم في المدن ان ندرك حقيقة حسابية بسيطة ، ان سكان المدن اكثر عددا ، اذن لا يروعنا ان دور الفحشاء في المدن او عدد البغايا المحترفات كثير ، بل ننظر الى النسبة ، متذكرين ما قلناه من ان الزنا في البادية ليس مقتصرا على المحترفات بل يشيع في عامة نساء البادية .

هناك مسائل اخرى هامة يجب ان نناقشها حين نفكر في نصيب المدينة من الرذيلة . يجب ان نسأل مثلا : هل هذه المفاسد من خصائص الحضارة كحضارة ؟ أهي آثام لا تنبت في الانسانية الا في مرحلة الحضارة ؟ وهذا سؤال جوهري في الموضوع ، اذ لا يحق لنا ان نسمي نوعا ما من الشر شرا حضريا الا اذا اثبتنا أنه لم تجلبه على الانسانية الا الحضارة ، كما يحق لنا مثلا ان نقول ان كثرة عدد القتلى في حوادث المرور هي من شرور الحياة المدنية .

سؤال آخر كبير الاهمية : هل هذه المفاسد من طبيعة الحضارة الحقيقية بحيث لا تقوم للحضارة قائمة ولا يستمر لها كيان الا اذا وجدت هذه الرذائل . أو لعلها في حقيقتها من ملامات انحلال الحضارة. فمن الظلم ان نقول انها من خصائصها الجوهرية والاقرب الى الصحة

ان نقول انها منافية للحضارة ، بدليل أنها تؤدي الى انحلالها وتهدمها .

وهذا هو الرد الذي نرد به على معظم الامثلة التي قد تضرب لنا على مفاسد الحضارة ، في مختلف عصور التاريخ . فنقول : ان هذه الامثلة اذا تأملناها جيدا وجدناها قد ترعرعت لا في عنفوان هذه الحضارة بل في الفترة التي جاوزت فيها سمتها وبدأت في الانحدار ، فكانت من اعظم العوامل التي ادت الى انهيار هذه الحضارات المتعاقبة ، من حضارات ما بين النهرين ، الى الحضارة الفرعونية ، الى الحضارة الاغريقية ، الى الحضارة الرومانية ، الى الحضارة العربية الاسلامية نفسها . فهي كما ترى عدوة الحضارة وهي تؤدي الى اختناقها وموتها .

وهذا ايضا ما نرد به على ما سيذكر لنا من آثام الحضارة الغربية المعاصرة . فهذه الآثام انما شاعت في اوساط معينة قد بلغت فيها هذه الحضارة مرحلة انحلالها وبدء انهيارها ، الامر الذي لا ينكره المفكرون المنصفون من رجال الغرب انفسهم ، بصرف النظر عن تدينهم او افقارهم من كل عقيدة دينية . لكن حتى في هذا المجال نحن - معشر العرب والشرقيين عامة - نخطىء كثيرا حين نعتقد ان معظم نساء الغرب ساقطات منحلات يخن ازواجهن ويمكن منهن كل راغب في اجسادهن . هذه هي الفكرة التي يذهب بها الى الغرب اكثر طلبتنا الذين يسافرون الى بلدانه في بعثاتهم الدراسية مثلا ، ولعل منهم من يفرك يديه بابتهاج وامل منتظرا ان تسرع الى احضانه كل انثى تقابله ! وما أكبر ما تكون دهشته وما اشد سخطه حين يجد ان الامر على عكس ما كان يتخيل ، وان الوصول الى المحترفات انفسهن كان اسهل له في بلده الشرقي .

لست اريد بهذا ان انكر ان الفتى والفتاة في الغرب كثيرا ما يتراضيان على اقامة الوصلة بينهما بدون عقد زواج ، ولا انا اريد بكلامي الذي سيلي ان ادعي ان هذه الظاهرة شيء حسن في ذاته وان قيمنا التي تستوجب وجود العقد الرسمي ليست خيرا منها . لكننا نجانب الانصاف اذا لم ندرك اختلاف القيم هنا ، واذا حملنا هذا على ان نظن ان الفتى والفتاة في الغرب يدخلان في علاقتهما غير الرسمية بسهولة واستهتار . فالحقيقة هي انهما لا ينتهيان الى هذا التراضي - في اغلب الاحوال - الا بعد تفكير وترو وموازنة هي ابعد شيء عما نظن من الاستهتار والتحلل . وهذه ايضا حقيقة يعرفها كل شاب شرقي سافر الى الغرب وعاش فيه زمنا فادرك صعوبة اقامة تلك العلاقة وطول المدة التي يجب ان يقضيها في مواددة الفتاة الغربية قبل ان ترضى به . وسيجد في اكثر الاحوال انه كان اسهل عليه جدا ان يجد او تجد له اسرته في بلده الشرقي فتاة ترضى وترضى معها اسرتها ان يعقد بها زواجا رسميا ، فما دام يستطيع ان يدفع المهر المطلوب فهو يستطيع ان يتم هذا الزواج في ايام قليلة ان شاء . وما دمنا نجيز لانفسنا ان نرمي تلك العلاقة الغربية غير الرسمية بالخطأ والخطيئة - وبعض مفكري الغرب يوافقوننا على هذا الاتهام - فان واجب الانصاف يقتضينا مرة اخرى ان ننصت الى ما يقوله الغربيون في عقود زواجنا الرسمية التي لا يزال الكثير منها للاسف الشديد يعقد دون اعتبار لرغبة الفتاة . هم يعتقدون ان هذا لا يختلف شيئا عن الزنا ، ويعتقدون اعتقادا حارا ان تلك العلاقة الغربية التي وصفنا بين الفتى والفتاة في بلدانهم اكبر صونا لعزة الفتاة وكرامتها .

هذه اذن مسالة دقيقة شائكة توضح اختلاف القيم ، ومهما يكن من خطأ نظرتهم وصحة نظرتنا في هذه المسالة ، او العكس ، فان الحقائق والمناقشات التي سبقت جديرة بأن تقنعنا بان الحضارة - الحضارة التي لم تصر بعد الى مرحلة الانحلال وبداية الانهيار - نصيبها من التعفف الجنسي اكبر من نصيب اهل البادية . لكني ادرك ان بعض الناس ربما لا يقتنعون برغم كل تلك الاستشهادات ، وسبب ذلك ان الفكرة لا تزال غريبة عليهم مخالفة خلافا اساسيا لما ثبت في اذهانهم من زمن طويل ، فهم يحتاجون الى مزيد من التامل والمراجعة والقراءة والاطلاع قبل ان يجتثوا عقيدتهم الراسخة عن عفة البداوة وإثم الحضارة . الا اني اعتقد انني محق اذا قررت ان ما سبق من الامثلة والمناقشات ، ان لم يكن بعد كافيا لاثبات ان اهل المدن هم فعلا اكثر فضيلة من اهل البادية ، فهو يشير على اقل تقدير الى انهم ربما لا يقلون عنهم عفة جنسية . وهذا حسبي الآن في التدليل على صحة قضيتي التي احاول اقامتها في هذه المقالة .

فلننتقل الان الى الفضائل الاخرى ، بعد هذا الوقوف الطويل على الفضيلة الجنسية ، والذي اضطرني الى هذا الوقوف هو ما اشرت اليه من ان معظم الناس حين يتحدثون عن الفضيلة والرذيلة انما يعنون ذلك النوع الواحد . لكننا يجب علينا ان ندرك ان الفضيلة الجنسية ، على عظمها وكبر اهميتها - وليس كاتب هذه السطور ممن يقللون من شانها او يعتقدون ان الحاجة اليها قد زالت ، ولقد ادليت برايي ان انهيار الحضارات المتعاقبة كان يرجع في نصيب عظيم الى شيوع التحلل الجنسي فيها - هذه الفضيلة ليست هي كل الفضائل ، فهناك فضائل اخرى لها هي ايضا كبرها واهميتها في تحديد نصيب المجتمع من الترقي الانساني والارتفاع على درك الحيوان الاعجم .

ما راي القارىء في الفضائل العظيمة الاخرى ، وفي نصيب البادية والحاضرة منها ؟ مثل الصدق ، والوفاء بالوعد ، والغيرية اي عدم الانانية ، والاعتراف بحقوق الغير ، وعدم الاعتداء ، والرحمة والعفو ، ومراعاة شعور الآخرين ، واللطف في المعاملة ورقة الحاشية ، والامانة ، والاخلاص في الصداقة ، والاعتراف بالجميل ، واحترام القانون ، والشجاعة الادبية ، والجرأة على نقد المجتمع وممارسته آراءه الخاطئة ، وغيرها من الفضائل التي لا شك في قيمتها وفائدتها .

كل هذه وامثالها فضائل لا شك ان حظ الرجل المتحضر منها بوجه عام اكبر من حظ الرجل المتبدي . فالحضارة بما انها اكثر علما وثقافة وتهذيبا هي اكبر تربية للنفس الانسانية وتشذيبا لنقائص الطبيعة البشرية وكبحا للخصال الحيوانية المتبقية فينا من اصلنا الوحشي .

والمتحضرون هم ايضا بوجه عام اكثر عفة لفظية . وما يقوله ابن خلدون من ان اهل الحضر اكبر اقذاعا بالاقوال المفحشة واقل تحشما في الكلام هو ضد الحقيقة الواقعة على خط مستقيم . وانما اوقع ذلك المفكر الكبير في ذلك الخطأ الكبير اقتصاره على النظر في احوال المدن في عصره ، وهو عصر كانت الحضارة الاسلامية قد بلغت هوة انحلالها الخلقي وتفككها الاجتماعي قبله ببضعة قرون ، اذ كان هذا الجانب فيها قد بدأ يستشري في اوساط المجتمع ويخرج عن بعض الاوساط الضيقة المحدودة منذ القرن الهجري الرابع ، كما يتجلى لنا في صفحات كتاب اليتيمة للثعالبي وكتب اخرى متعددة . اما الحضارة التي لم تنحل بعد فالامر فيها مختلف جدا ، اذ كلما زاد نصيب الناس من الروح المتحضرة زاد تهذب الفاظهم وتجنبهم للعبارات النابية والشتائم القذرة ، وتحرجهم من ذكر العورات والاشارة الى اجزاء معينة في الجسم او عمليات معينة من ضرورات النشاط الحيوي . اما اهل البادية واهل القرى ايضا فاقل تحرجا في ذكر الاسماء الصريحة لهذه الاعضاء والعمليات ، بل هم يذكرونها دون ما حياء وبلهجة عادية لا يجدون فيها ما يستنكر . اجد هذا كلما زرت قريتي المصرية في عطلة الصيف واقمت فيها اياما او اسابيع ، ابدأ بالتأذي الشديد من سماع تلك الالفاظ الصريحة التي لا يتحرج منها رجال من اكبر اهل القرية فضلا ، ثم انتهي بأن تألفها اذني وتتعود عليها فلا تعود تضايقني كلما سمعتها نفس المضايقة .

الحقيقة هي ان التحضر هو الذي يعلم الناس الحشمة ، حين يدرك الذهن البشري انه اذا اراد ان يعلو على درك الحيوان فان هناك اجزاء في الجسم وعمليات من النشاط البيولوجي يجمل سترها وعدم ذكرها بالتصريح . اما في البداوة فلا حرج من ذكرها ، بل في احط درجات البداوة واقربها الى الدرك الحيواني لا حرج من الكشف عنها ولا ضرورة لسترها .

الحشمة اذن هي في ذاتها مفهوم حضري يزيد نصيب الانسان من استجلائه وتحقيقه كلما زادت درجته من التحضر . فلنأت الآن الى

ناحية أخرى هامة جداً يجب ألا ننساها حين نتحدث عن الفضيلة والرذيلة بين البداوة والحضارة . الا وهي الناحية الاقتصادية . لا نحتاج لان نكون ماركسيين نرجع كل شيء الى المادة لكي ندرك ان قدرا عظيما من الآثام مرجعه الفقر بكل بساطة . نعم ، نصيب ضخم من الرذائل الخلقية يعود الى العوز الاقتصادي ولا يصححه مجرد الوعظ الاخلاقي بقدر ما يصححه اليسر المادي . فاذا عاد القارىء الآن الى امثلة الفضائل التي عددناها وانفق بضع دقائق في التفكير فيها تبين له مدى اعتمادها في شيوعها في مجتمع ما على نصيب ذلك المجتمع من الرفاهية الاقتصادية . وظاهر ان الحضارة برخائها الاقتصادي الذي يزيد زيادة ضخمة على الكفاف والضرورة الشائعين في البداوة - والبداوة بتعريف ابن خلدون نفسه هي مرحلة الاقتصار على الضروري، ولا يزال هذا التعريف هو التعريف الاساسي الذي نحدد على ضوئه درجة مجتمع ما من التقدم او البدائية - الحضارة بهذا الرخاء تهدم اساس الكثير من الرذائل او تضيق من مجال انتشارها بما تقلل من حاجة النفس الانسانية الى ارتكابها . الفرد في الامة العربية المتقدمة لا يتهرب من الكمساري (محصل التذاكر) في الترام او الاوتوبيس كما يفعل الكثيرون منا لسبب بسيط : هو انه اكثر رخاء ماليا واقل حاجة الى القرش المسروق .

***

اذا كانت قضيتنا صحيحة وكانت الحضارة اكبر تنمية ونشرا للفضائل المختلفة من البداوة ، فما سبب انتشار تلك الفكرة الخاطئة ؟ ان بحثنا لا يتم الا اذا حاولنا ان نستكشف الاسباب التي تروج هذا الخطأ الشائع وتجعل الناس يتشبثون به حتى لنجد بعض كبار المفكرين يقعون فيه . وفي محاولتنا هذه ستزداد لنا القضية جلاء ، وربما يزداد القراء اقتناعا بصحتها .

توجد في نظري ثلاثة اسباب عظيمة : اولها الحنين الى الماضي . الناس دائما ينزعون الى تذكر ماضيهم لا كما كان في حقيقته بل مكسوا بصبغة عاطفية زاهية تتذكر المحاسن والمتع وتجسمها وتنسى المساوىء والآلام او تخفف منها . يحدث هذا للفرد حين يتذكر طفولته واول شبابه ، ويحدث نظيره للامم حين تتذكر عصورها السالفة . اسمع اباك يتحسر على ماضيه ويقارنه بحالتك وحالة اقرانك من الفساد والشر والعقوق والعصيان وزوال الحياء والحشمة . لكن يا حبذا لو كنت سمعت اباه ، اي جدك ، يعقد نفس المقارنة بين جيله وجيل ابيك ويستعمل نفس الالفاظ . او انتظر انت وترقب ماذا ستقول حين يشب اولادك وتدركك مرحلة الهرم والشيخوخة !

اسمع طلبتي في كل يوم تقريبا يذمون حالتهم الراهنة من التلمذة ويشكون من عناء المذاكرة وفظاعة الامتحانات واحصاء الحضور والغياب وتعسف المدرسين وظلم الدرجات ورداءة الاكل في مطاعم الجامعة ... ثم ينتهون من دراستهم ويحصلون على درجتهم ويوظفون بالحكومة او الشركات . وتمضي السنة او السنتان ، ويزورونني . فاسالهم عن حالهم ، فاذا حديثهم كله سخط على حياتهم الجديدة في معترك العمل ، وتحسر على عهد التلمذة السعيد اللذيذ ، وما كان فيه من المتع والزمالات وراحة البال والفكاهات . واذا هم قد نسوا تماما آلام التلمذة ومتاعبها فلا يتذكرون عهدها الا بصورة وردية بهيجة ، مشرقة حافلة بالسعادة .

هذه هي التجارب المألوفة التي تحدث ويحدث امثالها لكل فرد منا . فاذا تجاوزناها الى علم النفس الحديث امدنا هذا العلم بتحليلها ومحاولة تعليلها ، وشرح لنا الوسائل والذرائع التي تلجأ اليها النفس البشرية في كبت التجارب السيئة حتى ينساها الذهن الواعي . كذلك الامة او الجماعة البشرية حين تتذكر ماضيها ، تنسى همومه وارزاءه وتلونه بلون خير فاضل سعيد ، فيخيل اليها انها كانت اسعد حالا وافضل خلقا ، كما تعتقد انها كانت اوفر بركة وارغد حياة واتم صحة واطول اعماراً واقوى اجساما واقل امراضا ، والحقيقة في هذا كله على الضد تماما كما سنشرح بعد قليل .

هذه النزعة العاطفية الرومانسية المائعة من اعظم اسباب انتشار تلك الفكرة ، فيظن الناس ان البداوة ، بما انها اقدم في تاريخ الامة ، هي لذلك افضل خلقا . هذا هو السبب الاول الذي يتلخص في الظاهرة التي وضع لها بعض العلماء تسمية « خرافة العصر الذهبي » . وهي الخرافة التي تعتقد أن الانسانية كانت في الماضي في خير احوالها وان تاريخها المتعاقب ليس الا سجل الانحدار والسقوط . اما السبب الثاني ففكرة فلسفية خاطئة قال بها بعض الفلاسفة ، وهي الاعتقاد بان الانسان خير بطبعه ، وان المجتمع هو الذي افسده ، وان خلاص الانسان يكون بتطليق المجتمع والارتداد الى حالته الطبيعية في احضان الطبيعة البريئة .

وهذه فكرة قديمة ، لعل اصلها هو تلك النزعة الرومانسية المائعة نحو تقديس الماضي ، لكن حاول بعض الفلاسفة ان يثبتوها بادلة جدلية نظرية صرف . ومن اكبر من روج هذه الفكرة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو ، وان لم يكن اول ولا آخر من اعتنقوها وروجوا لها . وقد رأينا ان مفكرنا الكبير ابن خلدون قد وقع في مثل الخطأ حين اعتقد في فصله المشار اليه ان الانسان في حالته الطبيعية او حالة « الفطرة » يكون اقرب الى الخير وابعد عن الشر ، وان يكن ابن خلدون قد خالف رأيه هذا في مواضع اخرى من مقدمته . وهي فكرة يثبت خطأها دراسة العلم ومشاهدة واقع الاحوال . فليس الانسان خيرا بطبعه للاسف الشديد ، بل هو في طبيعته الغفل لا خير ولا شرير ، اي ما يسمى آمورال amoral . والذي يكسبه الوعي الاخلاقي ويفهمه المقاييس الخلقية انما هو التربية والتعليم والدين والقدوة الحسنة وغيرها من عوامل التهذيب الخلقي في المجتمع الانساني .

اما في طبيعته الغفل فالانسان لا يميز بين خير وشر ، وفضيلة ورذيلة، بل يندفع الى ما تمليه عليه رغائبه الحيوية وغرائزه الحيوانية. ولعله في هذه الحالة اقرب الى فعل الشر - اي ما تسميه المقاييس الاخلاقية شرا - منه الى فعل الخير . الشر اسهل عليه واسرع مبادرة اليه من الخير ، كما قرر ابن خلدون نفسه في فصول اخرى تناقض ما يدعيه في الفصل الذي نحن بصدده . يتجلى لك هذا اذا تأملت تأملا هادئا في الطفل باذلا جهدك في التجرد من النظرة الرومانسية الشائعة نحو الطفولة والاطفال . اذ ذاك ستكتشف ان الطفل ليس ذلك الملاك البريء الذي تصوره تلك النظرة ، بل هو حيوان اناني قاس شديد القسوة ، همه تحقيق رغائبه ، لا يحفل بشعور الآخرين ولا يدرك ان لهم حقوقا ، ويظن ان الوجود لم يخلق الا له ، ويغضب اقوى الغضب اذا منع من فعل ما يشاء واخذ ما يطمع في الاستيلاء عليه . على ان رذائله لا تقتصر على هذا الجانب السلبي الذي ينشأ من مجرد الجهل بمصالح الآخرين ورغباتهم ، بل ان فيه جانبا ايجابيا من حب الشر ، فهو يجد في القسوة لذة وفي الاعتداء لذة ، يتلذذ بتعذيب العصافير وصغار الحيوان ، وضرب ضعاف الاطفال ممن يقوى عليهم . ثم يحتاج الى عناء طويل ومجاهدة مرة من أبويه ثم مدرسته ثم مجتمعه لكي يتعلم كبح غرائزه حين تتعارض مع مصلحة الآخرين ، ولكي يعرف قيمة الرحمة والعطف على الضعيف وانها ارفع له من تلبية اغراء القسوة الحيواني ، ولكي يدرك على اي حال وجوب الامتثال للاوامر والنواهي الخلقية والاجتماعية الكثيرة التي يقيده بها المجتمع . وكلما ازداد مجتمعه درجة في التطور زادت التكاليف التي ياخذه بها ويستلزمها لكي يقبله ويحتفظ به عضوا فيه .

بل انظر في نصيب هذا الطفل الانساني من النظافة الجسمية لتدرك انه ليس نظيفا محبا للنظافة بطبعه ، انما هو قذر محب للقذارة بطبعه (وهو في هذا دون بعض الحيوان نفسه ، مثل جنس القط بفصائله المختلفة) . هو يكره جداً ان يلزم بغسل وجهه ويديه ولا يفهم داعيا لهذا الالزام السخيف الذي ياخذه به الكبار ، وهو راض أتم الرضى بقذارته ، بل لعله اكثر سعادة كلما زاد نصيبه من القذارة . ولا نبالغ اذا قلنا ان قذارته البدنية هذه تقارنها قذارة خلقية يحتاج الى تربية وتاديب طويلين قبل ان يتعلم كرهها والنفور منها ويفضل

النظافة الخلقية عليها .

فالانسان البدوي في وعيه الخلقي البدائي اقرب الى هذا الطفل الذي وصفناه ، كما انه اقرب اليه في قلة نظافته البدنية . ذلك ان المجتمع البدوي قائم في اغلبه على الاغتصاب وتعدي القوي على الضعيف وتسابق الاسر والقبائل الى تحصيل رغائبهم بدون مبالاة بأثر هذا على باقي القبائل او الاسر . بل الطبيعة نفسها ، الطبيعة التي يقدسها اولئك الرومانسيون ويعتقدون بفضلها وطهارتها ويرون خلاص الانسان بالعودة اليها ، هذه الطبيعة كما تدلنا الدراسات العلمية قائمة كلها على البطش والتعدي والقسوة والتهام القوي للضعيف ، والانسان هو الذي يجلب اليها الفكرة الاخلاقية ويحاول ان يحقق في جزء منها وهو الجزء الذي يعيش هو فيه قدرا من التعفف ورعاية شعور الآخرين واحترام مصالحهم وعدم الاندفاع وراء الغرائز والتقيد بقيود الاخلاق .

***

هذان سببان لانتشار فكرة الفضيلة البدوية والرذيلة الحضرية . وكلاهما كما رأينا ناشيء عن فكرة مخطئة ، لكنها على اي حال فكرة مخلصة ، اعني ان الذين يعتنقونها يقعون في خطأهم عن عدم علم لا عن اغراض متعمد . ولكن حين ناتي الى السبب الثالث فاننا للاسف الشديد نجد من ورائه غرضا انانيا مقصودا ، هو ترويج بعض المغرضين، وهم دعاة المذهب الاستعماري .

اود اولا ان اؤكد لقرائي انني لست ممن يتهمون الاستعمار بكل مصائبنا وآلامنا ، ويرون بعبعه المخيف في كل ما يلم بنا ، وارجو الا اكون ممن يجدونها وسيلة سهلة في كسب قضاياهم او تمويهها ان يقحموا فيها الحديث عن الاستعمار وجرائم الاستعمار . لكن الموضوع الذي اتناوله الآن من الموضوعات التي يحق لنا فيها ان ننسب الى هذا الاستعمار جزءا كبيرا من المسؤولية ، وهو بعد موضوع راقبته عن كثب مراقبة شخصية تسع سنوات طويلات قضيتها في قطر عربي كان خاضعا للحكم الاستعماري مفتوحا لدعاياته .

هؤلاء الدعاة يهمهم استبقاء النظام القبلي الى اطول امد ممكن ، لانه يمكنهم من الاستمرار في حكم البلدان المتاخرة او غير مستكملة النمو والانتفاع بخيراتها . لذلك ينصبون من انفسهم دائما مدافعين عن النظام القبلي ويتحدثون بحسناته وفوائده ، ويزعمون انه اصلح لتلك الاجناس المحكومة من التطور الحضاري . وما اكثر حديثهم عن جلال النظام القبلي وفضائل القبلية وتقاليدها الكريمة ، الى آخر ما يقولون خداعا لاهله واغراء لهم بالابقاء عليه .

ربما يقول القاريء : لكن الا يمكن ان يكون هؤلاء ايضا يقعون في خطأهم عن حسن نية ؟ وهذا ولا شك ينطبق على بعضهم ، لكنه للاسف لا ينطبق على جميعهم ، ولا ينطبق بنوع خاص على دهاقينهم الذين يسوسون تلك البلدان ويصرفون امورها اما بمباشرة سافرة او من وراء دماهم التي يحركونها من مشايخ القبائل . هؤلاء يعرفون حقيقة الامر فيما هم بسبيله ، لذلك تجد سخطهم كبيرا وعقابهم شديدا على الشباب المتحرر من ابناء القبيلة ، فهم يذمونهم أمر الذم ويتهمونهم بانهم مخربون هدامون يهدمون كيان المجتمع العريق ولا يسببون لاهلهم الا الفوضى والشقاء والتعاسة ولا يقودونهم الا الى الفساد والانحلال . وحجتهم ان الناس سعداء في حياتهم القبلية وان محاولة تحضيرهم تقضي على سعادتهم هذه ، ثم يضيفون بتصنع ماهر للطيبة : اليست السعادة اهم شيء في الحياة ؟ ثم يرتدون مسوح الواعظ الاخلاقي فيتجهون الى اهلنا محذرين اياهم من المدنية الفاسدة الشريرة ويصيحون خير لكم ان تحتفظوا ببداوتكم الجميلة وتقاليدكم القبلية الكريمة من ان تجروا وراء هذا الغثاء التافه والسراب الخلاب !

ومن المحزن المؤسف ان بعض رجالنا في اقطارنا العربية والشرقية ينخدعون بتلك الدعاية المسمومة ـ دعك الآن ممن في مصلحتهم ان يروجوها من الاقطاعيين الوطنيين ـ فيرددون امثال هذه الترهات غير دارين بانهم يجعلون من انفسهم ابواقا للرجعية وعراقيل امام تقدم الامة وتطورها . اولئك الدعاة الاستعماريون الذين يحذروننا من حضارة بلادهم ويحببون الينا تاخر بلادنا يذكروننا بالغني الذي ذهب في اقصوصة معروفة الى جاره الفقير ناصحا له بأن يظل فقيرا ومحذرا اياه من متاعب الغنى وهمومه ومؤكدا له : اسعد لك الف مرة ان تظل فقيرا خالي البال ، ثم يمضي في تبيان شرف الفقر وذم آثام الغنى ومفاسده . فهل نحتاج الى ان نقول ان خير رد يرد به ذلك الفقير لو كان حصيفا هي ان يقول للغني : اعطني غناك مع كل شقائه ونقائصه وخذ فقري بكل سعادته ومحاسنه !

اما زعمهم ان الحياة البدوية اكثر فضيلة واطهر اخلاقا فقد ناقشناه بالتفصيل الذي يتيحه حجم هذه المقالة . فلننظر الان في ادعائهم بأن غير المتحضر اقوى بدنا واوفر صحة جسمانية . افهذا زعم صحيح ؟ هل المدينة حقا اكثر امراضا من البادية ؟ هذا وهم له اسباب متعددة ، منها ان الطب لتقدمه في الحاضرة قد استكشف وحلل عددا اكبر من الامراض ووضع لها اسماء ، فتوهم كثيرون انها جاءت مع الحضارة وان ماضي الانسانية كان خلوا منها . والحقيقة ان الناس في القديم كانوا يقولون مثلا: مات بحمى، والآن نعرف عشرات الانواع من الحمى التي استكشفها الطب الحديث واهتدى الى دواء الكثير منها وما زال يحاول علاج باقيها ، وهو في الوقت نفسه لا يزال يستكشف كنه امراض ظلت الى الآن خفية .

لا اريد ان انكر ان الحضارة بنظامها المدني والصناعي الخاص ، بازدحامها ودخانها وضجيجها وسرعتها ، قد تسمح بمجال اوسع لبعض الامراض ، وهو ما يدركه اطباؤها وعلماؤها ويدرسون وسائل علاجه والوقاية منه . لكن الحقيقة التي تثبتها الدراسات الاحصائية هي ان الحضارة بوجه عام اكثر صحة وان المتحضرين بلا شك اقوى ابدانا واطول اعمارا . ليست هناك فكرة اكذب ولا اخبث ولا اضر من فكرة المتوحش السليم الجسم the healthy savage . اين هو هذا ؟ ادرس ما شئت من الجماعات البدوية او اذهب الى بعض الاقاليم الافريقية والاسيوية وانظر الامراض المستوطنة الفتاكة تحصد الارواح وتنهك الاجسام وتمتص القوى . والقاريء المهتم بمتابعة الاحصائيات التي تنشر من حين الى حين عن متوسط الاعمار في مختلف البلدان يعرف حقيقتين : ان متوسط العمر المرتقب في البلدان المتحضرة اعلى بكثير منه في البلدان المتخلفة او غير المستكملة التقدم. (كان في الجيل الماضي في انجلترا حوالي الثامنة والخمسين وفي مصر اقل من الثالثة والثلاثين وفي الهند اقل من الثالثة والعشرين ، هذا بادخال وفيات الاطفال بطبيعة الحال) . وان متوسط العمر المرتقب في البلدان المتقدمة في ارتفاع مطرد قدرته بعض الاحصائيات الحديثة بزيادة عشر سنوات في متوسط اعمار الجيل الراهن .

او اقرأ صحف التاريخ القديم والوسيط وتدبر كثرة الاوبئة الفتاكة التي كانت تنتشر انتشارا ذريعا وتحصد الملايين من البشر في تعاقب دوري . ولست اظن قارئي ممن يؤمنون بالخرافة القديمة ان الناس في الماضي كانوا عمالقة يصلون بايديهم الى قرص الشمس فيشوون فيه ما يصطادون من سمك البحر . لكن هل يدرك القاريء ان القدماء كانوا فعلا اصغر اجساما من الرجل الحديث ؟ هذا ما استنتجه العلماء من دراسة الحفريات والآثار والرسوم والتماثيل القديمة ، بل في القرون الوسطى على قربها النسبي في الزمان كان الفارس اصغر بنية من الانجليزي العادي المعاصر ، بدليل ان الدروع المحفوظة في المتاحف وقصور النبلاء لا تتسع لهذا الاخير . ومن دراسة العظام التي خلفها الانسان الباليوليثي استدل العلماء على انه ندر ان زاد عمره على الستين . والكشف الطبي الذي اجرى على مومياء قدماء المصريين اثبت ان اصحابها مات بعضهم بامراض القلب التي يظنها بعضنا من خصائص الحضارة الحديثة . والاغريق القدماء عرفوا امراض القلب وان لم يعرفوا اسبابها ، اذ لم تكشف اسرارها الا بعد ان استكشف وليم هارفي حقيقة الدورة الدموية في سنة ١٦٢٨ . وكشوف الاشعة

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

زيارة .. في الليل

قصة بقلم سليمان فياض

تفصدت حبات العرق ، وجذبت رائحة الجسد الملحية ، وضوء المصباح النفطي المعلق ، اعدادا من البعوض . وخزت احداها ثقبا رقيق الجلد تحت اذن « محمد بن مصطفى » . ضربها باطراف اصابعه على غفلة ، وهي مستغرقة في الارتواء من دمه ، فانسحقت . ونترها عن اصابعه بابهامه ، دون ان ينظر اليها . وظل مكان الوخزة دائرة مسممة، تنبض بالالم .

قال الحاج حمزة :

ـ شرفتنا .

ـ عفوا ياحاج .

ـ فيك الخير مثل ابيك . الله يرحمه . كان يودنا دائما .

ـ الناس لبعضها ياحاج .

ـ يرحمك الله ويحسن اليك ياحاج مصطفى . كان زين الرجال . دائما كان مع الحق ، وما في قلبه على لسانه

قال محمد : ـ كان جيلكم جيل رجال .

ابتسم الحاج حمزة راضيا ، قال :

ـ هيه . كان زمنا . كنا شبابا جاهلا على اي حال . لكن ، لم يكن يعجبنا الحال المائل .

علق محمد :

ـ البلدة كلها تعرف ذلك . ما تزال تذكر ايام الانتخابات.

ضحك الحاج حمزة قائلا :

ـ ياه . فين ياعمر .. من عشرين سنة فاتت . كان عندي خمسون سنة . لكن ، كنت ما ازال عفيا . ياسلام . كانت اياما . ولم يعد سوى حسن الختام .

في ليلة ما ، جلس شباب العائلة حول الحاج مصطفى . كانت ايام انتخابات هي الاخرى . قال أبوه :

« خرجت من اللجنة . كنت قد وضعت صوتي ضد « الاتاربة » العمدة ورجاله ، كان معهم . والبلدة كلها كانت مع العمدة . العمدة اخذ خمسمائة أهيف . وكل واحد اخذ قطعة صغيرة بعشرة قروش . وانا خارج اللجنة ، قال لي الحاج حمزة : ما الذي على ظهرك يا مصطفى؟ كانت علامة بالطباشير على القطعة الكشمير الكحلية . ورجال الاتاربة كانوا قريبين . نظرت على ظهر الحاج حمزة . وجدته معلما غلى الدم في رأسي . ملت مع ستة على الجنينه . نتش كل واحد منا، في يده، فرع شجرة طيب . واقتلعت ، وانا اجري، شجرة جوافة . واستدرنا على رجال الاتاربة . وطحنا فيهم . جروا امامنا . هجموا علينا : الخفر، والعسكر . لكن . كنا قد نوينا : قاتلين ، أو مقتولين .وكانت حكاية ياولاد . صلب قلب البلدة ، ووضعت صوتها ضد الاتاربة . وعندما ذهبنا الى النقطة . جاء العمدة بنفسه وصالحنا ، وفي قلبه ما فيه » .

العمدة كان يكره اباه . كان مستور الحال ، لكنه كان مسموع الكلمة . مجلسه كان دائما مجلسا عرفيا للناس ، وعلى عهده ، ظل « دوار » العمدة خاليا الا من اعوانه . لم تضع بندقية من بيت،او عرق خشب من حظيرة ، الا وجاء به من سارقه ، دون ان يعرف احد: من يكون السارق ؟ كان يعيش للناس ، وترك له ، بعد موته ، تركة ثقيلة ذكرى طيبة بين اهل البلدة .

قال الحاج حمزة :

ـ ذهب هذا الزمن ، وجاء زمن . كل انسان فيه يقول : نفسي . كثر الناس . وصارت الارض قطعا قطعا ، وكأنها غير موجودة . والعجيب، ان الكل « طالع في العالي » . ينظر الى اعلى ، أعلى. يريد ، ويريد يريد ان يعيش في العالي ، وعين ابن آدم لا يملأها سوى التراب

تذكر محمد ، ابن الليل « مدكور » . قال مستفسرا

ـ مدكور . شرفك ؟

انتفض الحاج حمزة ، وجم لحظة فاغر الفم ، وقال بفتور :

ـ فأل الله ولا فألك .

ـ لانه لم يترك احدا ،لديه ملك ، الا وزاره ، واخذ المعلوم .

قالها محمد مبررا . ودخل « بدور افندي » . سلم على محمد. وجلس بجوار ابيه ، وضع ساقا على ساق ، تحت ثوبه الكشميري الرمادي . يضع على راسه عمامة ،لف شالها السكروته بعناية ، على العكس من عمامة ابيه الحاج حمزة . كان نظيفا ، مستدير الوجه، حاد الملامح ، تذوب حمرة دمائه الحاضرة في سمرة جلده . تفاحة آدم بارزة في عنقه الطويل ، تصعد وتنزل كلما تكلم .

قال محمد مؤكدا للحاج حمزة :

ـ على اي حال ياحاج ، لو ... لو حدث وجاء ، انا تحت أمرك.

قال بدور مستفسرا :

ـ من ؟

لم يجب محمد . وتنهد الحاج حمزة ثم قال :

ـ مدكور !

نهض بدور قائلا :

ـ لا اعتقد . لا بد ان يكون عنده نظر .

تساءل محمد في سره :

« نظر ؟ ... متى كان ابن الليل عنده نظر ؟ »

الحاج حمزة يملك عشرة افدنة . يستأجر من يزرعها له ، تحت اشرافه ، هو وبدور . لم ينجب احدا وعاش سوى بدور . لكن « بدور » انجب واحدا وعشرين ولدا وبنتا ، ومن امرأة واحدة . مات منهم ثلاثةفقط. الباقون احياء يأكلون طوب الارض ، والمرتب الذي يأخذه بدور افندي أول كل شهر من المدرسة .

قال الحاج حمزة قبل ان يبتعد ولده :

ـ جئت بالاحذية للعيال ؟

ضحك بدور بمرارة خفيفة ، وقال :

ـ جوال وحياتك ياأبي . من كل المقاسات . انتقيتها نصف عمر، من عربة في المركز . رميتها في الفسحة . هاأنت تسمع خناقهم.

قال الحاج حمزة :

ـ ابقاهم الله لك يابني . وتربوا في عزك . هيه. غدا يكبرون .

ابتسم بدور :

ـ يكبرون ؟ هه . لا احد ينفع احدا في هذا الزمن . هذا جيل لا يعلم به سوى الله .

ابنه الاكبر نال دبلوم الصنائع . توظف في مدينة بعيدة ، وتزوج منها ، رفض ان يمد يد المساعدة لاخوته .

ومن الخارج ، تدفق زياط الاولاد في فسحة البيت ، مع رطوبة الليل الخانقة .

قال الحاج حمزة لبدور الذي ينصرف :

الى أين ؟

ـ اجمع العيـال ، واذاكر لهم قليلا. افوتكم بعافية .

خـرج بدور مودعا بنظرة حب عطوفة من ابيه . علـى حصيرة ، فـي صالة البيت الكبير ، يفتح بدور فصلا لاولاده ، كل ليلـة .

قال محمـد :

ـ كان الله في عونـه .

قال الحاج حمـزة :

ـ الحمدلله . عوضني الله فيه خيرا .

صمت لحظـة ، ثم قـال فجاة :

مدكور لا بـد ان يكون عنـده نظـر .

ساد الصمت بين الاثنين . محمـد ينظر الى ثوبه النيلي السمنـي اللون . والحاج حمزة يحدق في الارائك البلدية ، المغطـاة مـن كل ناحيـة بالوسائـد ، وقماش الدمور .

جاء الشاي . حملته زوجة بدور اليهمـا . فتيـة كانت ، وفارعة، ومجهدة . تتدلـى تحتعينيها جيوب سوداء . وضعـت الشاي علـى منضدة بينهما . حيت الضيف بابتسامة عريضة ، وانصرفت علـى مهل . مشيتها ، ملامحها ، تشيان بجاذبيـة لـم تذبل كثيرا ، وشخصية صبـورة ومتجلـدة .

اخذ الرجلان يرتشفان الشاي بصوت مسموع ، تعقب كل رشفـة زفرة ساخنـة مستريحـة . يلتقي صوت رشفهمـا حينا ، ويفترق حينا اخـر . فرغـا من الشاي . ووضعـا الكوبين علـى الصينية فـوق المنضدة. اخرج الحاج حمزة علبة سجائره اللف ، ولف واحدة ،والصق ورقها بطرف لسانه ، وقدمها لمحمـد . حرك محمد يده شاكـرا واخذها. واخذ الحاج يلف لنفسه اخرى . نهض محمد ، ومد فمه بالسيجارة،على طرف زجاجة المصباح المعلق ، وجذب نفسا ، فاشتعلت اعواد التبـغ الرفيعـة الجافـة ،بحرارة المصبـاح ، وناره المتصاعدة ، في لهب غيـر منظور . وعاد يجلس منشرحـا فـي مكانه ، فـرغ الحاج حمزة من لصق ورق سيجارته ، ودس العلبة في جيب عباءته ، وعادت يده بقطعـة قماش ملفوفة . اخرج منها زناد القدح: زلطتين حادتي الطرف محروقتين. وفتيلة من القطن . وقدح الزناد بدربه ، فاشتعلت فتيلة القطن مـن شرارة نافـرة . ثم اطفأ الفتيلـة في نعل حذائه . وراح كل منهمـا ينظر الـى الاخـر .

كانت المحاصيل ما تزال تنضج في الحقول علـى اعوادهـا فـي نور الشمس ، وظلمـة الليـل ، علـى مهل . وكان وقت الانتظـار ،على الجميع ،بطيئا ، وطويـلا . فـي مـثل هذه الايام لا ينقطع للناس حديث عن كلشيء فى حياتهم ، كان ، ويكون ، وما سوف يكون . لكن ((محمد)) والحاج حمـزة لم يكونا ثرثارين . كانا من طـراز خاص بين رجال القرية طـراز هادىء ، ورزين . يحدث نفسه كثيرا ، لكنه لا يتكلم الا بمقدار حيـن يسال ، او يجيب . يعرف مـثل هـذا الطـراز الناس بتاريخهم. يعرف ما يمكن ان يقوله احدهم ان سال ، وان اجاب . ولا شيء بعـد يخفى في حياة اي احـد ، حتى ما ياكله في بيته في العشاء .

تامل الحاج حمزة في غضون يده التي شاخت . ورنا لوجه محمد. محروق السمرة ، ضامر الوجه ، غائر الخدين والعينيـن الواسعتيـن السوداوين ، الفارقتين في ظل محجرين عميقين ، تحت جبهته العريضة البارزة . لكـن انسجته مـا تزال شابة لـم تتهرا بعـد . خجل الحاج حمزة من نفسه ، حيـن وعى انه يحسد ابن الثلاثين على شبابه . قال لنفسـه :

((تريـد ان تاخذ زمانك وزمان غيرك)) .

وقال لمحمد ، متهربا من مشاعـره :

ـ النور جاء الـى البلدة . وانابيب المياه مشت فى شوارعها . لكن ، كم بيتا دخله النور او الماء ؟

ـ ليس مع الناس نقود للمعيشة . لو كانت هذه الحكاية ، فيمـا مضى ياحاج ، كانت قد حدثت . لكن الناس كثروا ، والارض هي هي. وقليل من يجد عمـلا في البندر . ثم .. من سيعلمه .

تفكر الحاج حمزة ، ثم احتج قائـلا :

ـ لكـن . كيف يجدون نقودا للقهوة والجوزة والبوظة ؟ .. علـى زماننا كانت الناس تجلس علـى المصاطب امام البيوت . وبالكثيـر... فنجـال قهـوة .

صمت محمد ، ولم يقل شيئا . فكر ان البلدة تتغير . وشعـر ان قلبه مـع مـا يحدث . لكـن ، بيـن ما يحدث اشياء كثيرة لا ترضيه: طلق عيسوي زوجته بعد شهرين ، واعلن انها لم تكن بكرا . لكنها لـم تذبح ،ووجدت من يتزوجها . اكثر من لقيط وجدوه علـى باب المسجد، ولم يعـد من السهل معرفـة من تكون امه ، ومن يكـون ابوه . كشفت البنات رؤوسهن وسوقهن ، ورحن يتبادلن الغزل خفيـة ، في الحقـل وعبر النوافذ ، وفوق السطـوح .

قال محمـد مدافعا عـن جيله والاجيال التي بعده :

ـ لكـن ، ياحاج ، العمدة لـم يعـد يقدر كثيرا ، علـى ظلم احـد، مثل زمان . الف شكوى وشكوى تقدم فيه كل سنة . البلـدة امتلات بتلامذة المدارس. يشفون مثل عش النمل ، فـي الصباح ، وفي الظهيرة. ليست هناك عائلـة الا ومنهـا عدة موظفين ، في بلدتنا ، وخارج بلدتنا.

بدت الجرعة ثقيلـة العيـار للحاج حمزة ، ولمحمد نفسه . لذلـك عاد كلاهمـا الـى صمته ، منصتا الـى اصوات مختلطة : نعيق الضفادع وطنين البعوض ، واصوات المارة ، والاحفاد الذين يذاكرون ويتصايحون ويضحكـون ويبكـون . اخذ محمـد يستجمع رغبته واعصابه تدريجيـا لينهض . وبدأ يتململ في مكانه . وتثاءب الحاج حمزة . ولـم ينهض محمد بعد . كـانما يزال يدافع ثقل الفراغ ، والليل ، وهذه الارتخاءة المريحـة فيضـوء مصباح مشعل . وكان مزاجه معتدلا ، بعـد كـوب الشاي ، وانفاس السيجارة التي لا يذكـر متـى داسها بقدمه .

***

عـاد الحاج حمزة يتثاءب . ولم يكـن ذلك لطيفـا ، الـى حد ما، مـع ضيفه . قال مبعدا الفتور والصمت :

ـ ماذا فعلت بالقط البري ؟

انتبه محمـد من شروده . ابتسم بلا معنى . ثـم ادرك السؤال، وتوهج نشاطا . قـال : ـ آه . القط البري ؟ ساقتله غـدا .

استجمع الحاج حمزة كل مـا يعرفه عن القط البري . وقـال بحماس لـم تنطفىء جذوته بعـد :

ـ فـي البداية . اقتل الذكر . وبعده الانثى . الذكـر شرس. وسواء قتلت هذا او ذاك ، فـلا تترك الاخـر حيـا بعده . سيبحث عنك في اي مكان ، ويهاجمـك .

ـ قالوا ذلك لي ، لكن،اطمئـن ياحاج . البندقية ميزر ،وعياري لا يخيـب .

ـ ولو خاب ، وهاجمك ؟

ـ لا اعتقد . لكن ، ساعتها ، ساخنقه .

واكـد محمـد مـا يقوله بيديه ، كانه يخنقه فعـلا .

قـال الحاج حمزة :

ـ تخنقه ؟ لا يعطى هذه الفرصة لاحد . أتعرف كيف يهجم ؟ ـ لا تؤاخذني في الكلام ـ انه يبول علـى ذيله . ويمرغه في التراب، ثم يقفـز علـى جانب الوجه ، ويضرب بذيله العينين ضربة شديدة، كلها تـراب ، تعمي العينين . وبعد ذلك يهجم علـى ((زمارة)) العنق ويأكلها.

ارتاع محمـد مما يسمع . بدا ذلك فـي وجهه . احس ان ذلك يحدث معه فعلا ، ووجد نفسه يلهث . وتعجب : هذا القـط المتوحش يفعل كل ذلك !؟ لا بـد اذن ان يقتله ، هو وانثاه وذريته . رآه مرة مع جيرانه في الحقل ، لكنه فـر هاربـا امامهم الى الغـاب .

ـ فكرت ان احرق الغاب . لكنه سياخذ عائلته ، ويذهب الى مكان اخر ، ثم يأتي مرة ثانيـة . ثم ان الغاب ، علـى شاطىء المصرف الكبير اخضر ، والنار لا تسير فيه بيسر .

ـ هذا صحيح يابني . لكن، لا بـد ان تذهب وحدك . عندما يشم رائحتك الانسيـة ،وينظـر ، ويجدك وحيدا ، سنيخرج اليك من الغاب، ويقفـز حواليـك .

ـ هل رأيتـه ياحاج ؟
ـ لا . ابدا . لكن من قبلنا قالـوا ذلـك .
عاد الاثنان للصمت . قطع القط البري على محمـد الطريق الى ارضـه . لـم يعـد باستطاعته ان يذهب وحده ، فكـر انه لا يجـد الشجاعة لمواجهته وحيـداً وقتله . ولو كـان ابوه حيـا لما تراجع. شيء مـا فـي داخله ، يعجزه عن المواجهة . الجبن ، ام التشبث بالحياة والخوف عليهـا من الموت ؟ لا تخيب لـه طلقة بندقيـة ، لكن : ماذا لو ارتعدت يده ؟ حركـة القط يقينا اسرع منه ، وحياته دائما في خطر لذلك ، لا يتراجع عـن مواجهـة فريسته . مسألة تحير حقا . لكـن لا بـد مما ليس منه بد . القط يقطع عليه الطريق الى ارضه ، ولن يجد جيرانه دائمـا معه . ويأتي وقت يبيت فيه مـع البهيمة التي تدير الساقيـة ، والارض التي تروى . اخوه « محمود » الصغير يذهب معه دائمـا ، بجسارة يحسده عليها . لا يخاف مثله من القط . لا يديـر وجهه مثله حيـن تذبح امهما دجاجـة ليلة الجمعة . يخاف على اخيه حيـن يذهب معه ، لصغره . لذلك يظل يقظـا دائمـا ، لا يغفـو، ساهراً عليه . فليترك هذه المسألـة للغـد . مع الصباح يفكر ، ويحزم امره.
عاد يفكـر فـي ان ينهض . وسأل :
ـ كم الساعـة ياحاج ؟
اخرج الحاج ساعـته الفضية من جيبه . تثاءب ، وقربها من عينيه محدقـا . ومسح عـن بصره غشاوة دامعـة :
ـ الساعـة التاسعـة
ـ بس ..
ـ الليل طويل يابني . والحر لا ينيم احدا . وهانحن نسهر معـا

***

كانا صامتين ما يزالان . يفكـر كل منهما في اموره . انقطع تيار الصمت المطن فـي « المندره » ، حيـن دخل عليهمـا من الباب علـى غفلة ، بشحمه ولحمه . وبدا حضوره غيـر قابل للتصديق . عبـر ساحة البيت الكبير ، ولم يطرق بابه ، ولم يناد احـدا ، ولم يطلب الستر لاهل البيت . تجمـد الحاج حمزة في مكانه ، وهب محمد واقفا :
ـ مـن ؟ .. انـت ؟
ضحك مذكـور قائـلا :
ـ سلام عليكم
اجاب الحاج حمزة ماخوذا دون ان ينهض :
ـ وعليكـم السـلام
واكتشف محمـد انه عاجز عن رد سلام مذكور . رفـع مذكور طرف ثوبه الوافي عـن ساقيه ، وهو يجلس . واسند بندقيته بين فخذيه. وجلس محمـد على طرف الاريكـة متحفزا ، ربمـا لمغادرة المكان لو طلب منه ذلـك . وراح يرقب . علـى رأسه لبدة بنيـة اللـون ، وحـول رقبته كوفيـة سميكة شتويـة ملفوفـة حول عنقه ، يتدلى طرفاها على ظهره وبطنه . ثوبه كشميري اسـود فاخـر . هكذا يواجه مذكور ، دائمـا ، من يزورهم ، لا يـراه احـد ابـدا فـي ثياب الليل . طويل، وعريض ، مكتنز الوجه ، مدملجه . لكن عينيه ناعستان ، فاترتان ، تريان كل شيء بنظرة جانبيـة ومواربة . ابن ليل حقا ، جاء من كفر « ابـو حسين » ، وعين نفسه حارسـا على اراضي القرية . فرض على كـل مالك مبلغـا يحدده هو ، في زيارة مثل هذه . وعلـى المالك ان يدفـع حتى العمدة نفسه يدفع. كلاهما يخشى الاخر ، ويتفادى الصدام بـه، ويستفيد مـن وجوده . الذين لا يملكون ، أو يملكـون شيئا لا يذكـر، قالوا : وماذا نملك حتـى يأخذه منا ؟ يكون قـد فعل بنا خيرا ، اذا اخذ بعض فقرنا . والذين يملكون ، طأطأوا رؤوسهم ، لديهم ما يجعلهم يحرصون علـى حياتهم : البيت المفتـوح ، والارض الطيبة ، والورثة من بعدهم . يحمل هـذه البندقيـة دائما . لم يـر ابدا بدونها ، يقيم في عش بين الغاب علـى حافـة ترعة « البوهية » . جاءت من النقطـة دوريـة بعـد دورية ، ليلة بعـد ليلة ، ونهارا بعـد نهار . حاصرت الغاب والاراضي . فتشت كل شبـر في النواحي ، ولم تعثر عليه ابدا، حتى شكت الشرطـة فـي وجوده . لكـن الناس دائمـا يرونه : العمدة، ومشايخ البلدة ، والخفر ، والنسـاء ، والاطفال ، يرونه مـع بندقيتـه، عندما يرغب هـو ان يروه . لـم يبحث عنه احـد ووجده . كـل عـام يشتري ارضا يكتبها لزوجته واولاده . هكذا يقولون . لـم يستطع احـد ان يتأكـد من شيء بشأنه . أنف ان يعرفه ، ويزرع الارض مـع اخيه. رفع البندقيـة ، وعاش بالخطر مستريحا . قال للعمـدة :
« الموت لا يأتي سوى مرة واحدة . اذن فمم اخاف .وهوآت آت »
لكـن احدا من اهل البلدة كلها ، لم يستطع ان يقول لنفسه ذلك، مثلـه . البهيمة تدور في الساقيـة مغمـاة العينين ، غافلة عن دورة المدار . لا تنظـر ابدا ابعـد من موطيء اقدامها ، حتـى لا تفكر فـي الشرود عـن المدار . لذلك تظل تدور وتدور . قـد يقدم لها الطعام، وقد يجـز رأسها بالسكين . ذلك شيء لا تفكر فيه البهيمة . مذكـور وحـده يفكـر فيـه .
طال الصمت والنظـر الى عيني مذكور الموار بتين ، اللتين تقولان كل شيء ولا شيء. بلا كلمـات ، راح محمـد يحس ويفكر ، بهاتيـن العينين نامت جرائم القرية ، هجعت كلها في جريمته ، بالخوف منه وهو الحارس الذي لا يحرس شيئـا سوى نفسه ، ظلت عـروق الخشب بالحظائر في اماكنها . بقيت التروس فـي السواقـي سليمة لا تمس . نضج القطن وطاب ، ولم تقطف منه لوزة خلسـة . تركت الارض فـي ليالي الصيف دون ان تقلع منها شجرة . لكن الناس يعيشون في خوف جـارف ، دونه كل اشفاق علـى ما يملكـون . البندقيـة فـي يـده القاسيـة ، يصوبهـا قلبه الغليظ لا يعرف احد : متى يطلقها ؟ وعلى من؟ ولمـاذا ؟ .. ربمـا علـى اي احد ، ربمـا بلا سبب ، سوى تأكيـد انه موجود وقادر . مثله يملك الناس بنادق ، لكنهم لا يرغبون ان يطلقوها بلا سبب . هاهـو السبب لتنطلق ، لكنهم لا يفعلون ، ايضا ، لسبب. لا يريدون ان يواجهـوا الموت او يصنعوه . ألفـوا ان يخرجـوا الحياة من الرحم ، والحبوب من الارض ، يغرسون بذورهم فـي الاثنتين . ألفـوا ان يرقبـوا الظلم والظلمة في صمت ، وينشغلوا بالبحث عن قوتهم، وتقبيل ايديهم ظهراً وبطنا ، رضـا بمـا يأتي ، وبما يبقى ، وفي القلب حسرة علـى ما لـم يأت ، وندم علـى ما ذهب . واذا وقع الظلـم على احدهم صرخ وحده ، ولـم يسمعه احـد .
قال الحاج حمزة ، قاطعـا الصمت الثقيل ، هاربا من النظـرة المواربـة :
ـ شاي ام قهـوة ؟
ـ الموجود ياحاج حمـزة .
واضاف مذكور مسندا ذقنه العريضـة الـى فوهـة بندقيته :
اذا كـان ضروريـا .
لفت الحاج حمزة راسه ، وصفق ، ثم انتظـر ، سمـع طرقـة تنبيـه علـى مصراع البـاب المفتـوح لداخل ، فقال :
ـ قهـوة للمعلم .
سمعت طرقعـة الشبشب تبتعـد بسرعة . وعاد الصمت برهـة.
رفـع الحـاج حمزة رأسه قائـلا :
ـ خيـر انشاءاللـه .
ـ كله خير ياحاج حمزة . انني احرس ارضك
نظـر محمـد بسرعـة الى وجه الحاج حمزة ، لكنه لم يلحـظ الرعـدة الحبيسة التي لمعت كالومضـة ، وانطفأت قبل ان ينظـر . تنحنح الحاج حمزة ، ونظـر اليه . هـو الاخر ينظر اليه بجسارة. الان رجـلان ينظر كلاهمـا فـي عيني الاخر تماما . قال الحاج حمزة :
ـ كـم ؟
قال مذكـور وهـو يبتسم :
ـ بسيطة . عشرة .
تداخل الحاج حمزة فـي بعضه ضعفـا وخوفـا . وتساءل محمد في ذات نفسه : ترى . هل ما تزال لديه الان بقيـة من القدرة علـى الرفض والتحدي ، كيوم الانتخابات البعيد ، الذي مات وشبع موتا ؟!»

سمع محمد طرقتين على الباب الداخلي . نهض ، واخذ الصينية من زوجة الابن ، ونظر الى فنجال القهوة . سمعهمسها له:

ـ من ؟

ـ ضيف .

وانفتل هاربا بصينية القهوة ، وضعها امامه . ورفع الطبق بالفنجال ، وقدمه له : ـ تفضل .

وتمنى ان يضع فيه سما .

نظر مدكور الى عينيه ، ويده تمسك بالطبق منه ، فاضطرب محمد ، واستدار ، وجلس ، وكان مدكور يقول في الوقت نفسه:

ـ عز دائم ياحاج .

ـ من خيرك .

قالها الحاج حمزة بسرعة كمن يسب . وعاد الصمت . وراح مدكور يشرب ، راشفا قهوته باناقة ، بلا صوت . فكر محمد : يبدو كشبح من العالم الاخر . من يقدر ان يقتل شبحا . ورأى محمد الحاج حمزة يهم بان يتكلم ، ثم يصمت ، ويخرج مسبحته من جيبه، ويلوذ الى حباتها الكهرمائية . ليس من اللائق ان يتكلم الان ،حتى ينتهي مدكور من قهوته . فكر محمد ان يصادقه ، ثم يخونه ، ويسلمه للقتل ، او يقتله بنفسه . صديق « الخط » في الصعيد فعل به ذلك . وجد نفسه يأنف ان يكون خائنا او غادرا . كيف يكون ابن الحاج مصطفى خائنا او غادرا . لن ينسى احد في البلدة له ذلك . وسوف يعاملونه في حذر دائم .

وضع مدكور الفنجال بطبقه على الصينية ، ومسح فمه بكلوة يده .

ـ يجعله عامر ياحاج حمزة

صمت الحاج حمزة .انبثق الرد ، وانمحى في لحظة ، في رأس محمد:

« وانت طيب يامعلم » .

الان يجب ان تتكلم ياحاج حمزة ،قال الحاج حمزة :

ـ اسمع ، يامدكور ،يابنى .

وانتظر لحظة .

ـ انا حقيقة لدي ارض . وانت تقول انك تحرسها .

ـ البلدة كلها تعرف ذلك .

ـ ما علينا يابنى . لكن . انت تعرف . كم فما تطعمهم هذه الارض .

عبس مدكور عندئذ . بدا جافا وبشعا .

ـ اعرف . لكن . من ضمن مصاريف الارض . كل ارض تحتاج الى حراسة . ذمة الناس قد خربت .

صدم الحاج حمزة ، بلع ريقه ،وسكت واجما . وحدث محمدنفسه:

« من طلب منك ان تحرس . لكن . اسكت الان . في يده بندقيته»

نهض الحاج حمزة . ذهب يخب في بلغته وعباءته البيضاء . زاد تهدل وجهه المغضن . عبر الباب الداخلي ، وغاب . هل سيأتي بالنقود ام تراه سيعود حاملا بندقية ؟

رفع مدكور ذقنه عن فوهة البندقية ، وقال لمحمد متوددا:

ـ كان ابوك رجلا طيبا .

ابتسم محمد :

ـ عرفته ؟

ـ ياليت . قالوا لي عنه .

قالوا له ؟

ـ من قال لك ؟

ابتسم مدكور في غموض ، وصمت ، ثم تنهد قائلا :

ـ هيه . ليته كان حيا

حدث محمد نفسه

« كان سيقف في وجهك ، ويهرسك »

واضاف مدكور في سأم :

ـ الانسان لا يجد في البلدة رجلا .

ياللخيبة . ماذا آكون اذن . لكن : لماذا تريد ان يكون ابي لا ترى امامك يامدكور سوى عبيد . وشعر محمد انه هش كالقشة حيا ؟ .. ورنا الى وجهه . هذا الاحتقار والقرف . اينما ذهبت في داخل ثوبه . منخوب كالغابة في عرض طريق مترب .

طال الصمت ، وعلت نقات الضفادع ، وتضخمت في اذني محمد بدأ يحس بالمرض . سعل ، ومسح انفه في كمه . وود ان ينهض . هاتان العينان المواربتان تبقيانه في مكانه . لا ينبغي ان يذهب قبل ان يبتعد هو ، بزمن .هذا حكم اللحظة .

***

جاء الحاج حمزة مستندا الى يد ولده . يبدو منهارا ، لكنه يتماسك . يسير معه بدور ، بجانبه ، على قدر خطوه ، وعيناه على مدكور يجلسان . يرفع بدور رأسه قائلا بحسم :

ـ افهمني يا معلم مدكور .

ـ اعرف . عندك ثمانية عشر ولدا . واعرف ماذا تكلمتم فيه بالداخل .

يعني .

ـ عشرة « أهيف » .

ـ طيب .. بس ..

ـ النصف ، لا ، ولا قرش واحد . من أين تأكل البندقية ؟ وكيف تحرس ؟

اندفع بدور قائلا :

ـ عنها ما حرست

ومد يده الى جيبه بسرعة . في لمحة ، كانت البندقية في يد مدكور مصوبة الى صدره .

ـ اترك المسدس .

أخرج بدور يده من جيبه خالية . زفر مدكور ، ثم ضحك . وبدا محمد فاغر الفم . أخرج مدكور صوتا ساخرا من أنفه : هه أدار البندقية بين يديه . جعل فوهتها نحو صدره .

قال آمرا بدور :

ـ خذها .

يبدو بدور غير مصدق . ينظر الى وجه مدكور ، والى كعب البندقية .

ـ خذ . قلت لك : خذها .

قالها مدكور في صوت آمر ناهر .

يمد بدور يده ، ويأخذ البندقية . وتهبط يده قليلا بثقلها .

ـ اثبت . نعم . هكذا . ضع يدك على الزناد. الطلقة في الماسورة. انظر للدبانة جيدا .

يتحدث مدكور مرشدا ، كأن البندقية غير مصوبة اليه هو . الحاج حمزة ينتفض اشفاقا على ولده . لديه فصل من العيال .

ـ اضرب .

يركز بدور عينيه بسرعة ، عبر خط الدبانة . يسمع محمد صوت زوجة الابن ، عبر ظلام الداخل :

ـ اضربه .

صوت صارخ متوسل . يثير الرعدة في جذور شعر الرأس . اصبع بدور يتراخى عن الزناد . يده ترتخي بالبندقية ،حتى تصل فوهتهاالى الارض ، كعريس فاشل ليلة عرسه ، امام عروسه . ابتسامة عريضة تتسع ببطء على وجه مدكور الذي يتفصد عرقا . الحاج حمزة ينتفض خجلا من ولده . ينظر اليه في خزي .

ـ حرام عليك . تريد ان اصير قاتلا .

وتسقط البندقية من يده على الارض . خيل لمحمد انه يسمع صوت بصقة في الظلام . يضحك مدكور في سعادة . يقول بقسوة ، دون حرج :

ـ البندقية تريد رجلا .

ينظر مدكور الى ساعة يده ، مبعدا كمه الواسع . يومض ذهبها في ضوء المصباح ، ويرى محمد الحاج حمزة ينظر اليه ، ثم الى البندقية ،

ليأخذها هو . يضبط مذكور النظرة العابرة ، فيعبس قائلا :

ـ افعلها أنت ياحاج حمزة . هذه ارضك، وهذه نقودك. انت رجل كبير في السن وينظر الى بدور معذبا ، في حقد خفي . ويضيف قائلا للحاج حمزة ، وعيناه على ولده ما تزالان :

ـ .. لن يفصلوك ، ولن يقطعوا مرتبك ، ولن يخاف منك عيال المدرسة . ورجلك صارت قريبة من القبر . أم تخاف ان ترتعش يدك ؟

ويمد الحاج حمزة يدا ترتعش ، الى جيب صديريته ، وينظر في عتاب لمحمد . وسمع محمد صوت نفسه :

« على أي حال يا حاج ، لو .. لو حدث وجاء ، أنا تحت امرك » .

كان يريد ان يملأ فراغ أبيه . في خياله نهض ، وامسك بالبندقية الملقاة ، وصوبها الى رأس مذكور ، واطلق . خبطت زوجته « سنية » على صدرها وهتفت : ـ محمد . هيه . انت قتلت ؟.. ابتعد عني .

امسكت أم محمد ، أمه ، بذقنها ، وشهقت :

ـ هه . ابوك لم يفعلها . يدك ستعتاد على القتل يا بني .

عيون الكل تنظر اليه : قاتل . قاتل . عندما يعود للبلدة من النقطة، او من السجن ، سيلبسه دور القاتل : العينان الوارمتان . اللبدة . الكوفية . الرقبة المعوجة على جانب البندقية .

ـ خذ .

كان الحاج حمزة يمد يدا ترتعش لمذكور بالجنيهات العشرة .

ـ كان ابوك رجلا طيبا .

نظر محمد الى مذكور . انه يحدثه ، وينظر الى البندقية الملقاة واليه ، ثم يبتسم في وجهه متوددا ، وينهض . ويأخذ البندقية ، ثم النقود . يدسها في جيب صداره الحريري . حذاؤه شمواه . نعل الحذاء « كريب » . يعلق البندقية في كتفه . لا يبدو على وجهه حرج .

قال لبدور :

ـ لا تتعب نفسك في التفكير . لن تجد احدا تؤجره علي . الكل يعرف انني ناب أزرق . واذا وجدت سيكون الثمن غاليا .

واستدار مذكور قائلا : ـ سلام عليكم .

لكنه عند الباب ، التفت ، ونظر الى محمد قائلا :

ـ دعها مستورة معك يا محمد .

وانصرف . اي سلام ؟!. ران الصمت كحمل ثقيل . لا احد ينظر في وجه الآخر . الرؤوس مدلاة على الصدور . العيون تنظر الى موطىء القدمين . نعيق الضفادع يعلو ، ويتداخل ، ويتضخم ، كلحن جنائزي ، تعزفه اوتار نايات حزينة متنافرة ، كحلقة لطم وصراخ لنسوة القرية في مأتم قتيل .

***

كانت زوجة الابن واقفة على عتبة الباب الداخلي ، لا تتكلم . يبدو محمد اللحظة غير مرغوب في بقائه بعد . لكن لحظة انسحابه لم تحن . قال له مذكور ما معناه ان يبقى ، وان يبتعد عن طريقه . لذلك سيظل جالسا .

قال الحاج حمزة ، دون ان يرفع رأسه عن صدره :

ـ لو حدثت مشاحنة بسيطة على المياه ، في الحقل ، بين الجيران، اهل البلدة الواحدة ، كانت قد ارتفعت « النبابيت » والفئوس ، وربما البنادق ، ويسيح الدم ، وربما مات احد . اولاد ابو عليوه من كذا يوم ، وقفوا ، اربعة اخوة ، صفا واحدا ، من أجل دورهم في المياه ، وساح فيها الدم . بيننا وبين بعضنا سباع ، ومع مذكور ..

تنهد الحاج حمزة ، وهز رأسه في أسى ، ثم صمت .

عاد محمد يفكر بحسه بلا كلمات . مع بعضنا نعم . مسالمون في لحظة غضب . كل يحارب من أجل مصلحته الخاصة . لكن ، مع مذكور ، يا حاج حمزة ، الامر يختلف . انك تواجه الموت بنية القتل . قاتلا يكون الانسان ، مثل مذكور ، او مقتولا . ثم ، لا تؤاخذني : ما مصلحتي انا مثلا في الا تدفع لمذكور؟ لست انا الذي يدفع . آه . لكنني اشعر معك بالذل . حين احتاج سآتي اليك . وعندما اكون وحيدا سأسهر معك مثل الليلة . وحين اعبر ارضك ، لن اجد حرجا في اخذ خيارة اشتهتها نفسي . وود محمد ان يفضفض عن نفسه . قال نافخا ، دون ان يرفع رأسه :

ـ الايام قادمة .

قال بدور مبررا ما في داخله ، كأنه لا يحدث احدا .

ـ غريبة !! كيف شلنا جميعا . كأنه قد سحرنا .

اصدرت زوجة الابن صوتا مسموعا ساخرا بشفتيها فقط . احس بدور ما يدور في رأسها ، نظر اليها ، لكنها قالت :

ـ فداك ، أنت والحاج ، يا بدور .

وابعدت عينيها عنه الى ظلمة الداخل . ولم تذهب . قال الحاج حمزة : ـ زمان ..

واخذ نفسا عميقا ، ورفع رأسه ، لكنه لم ينظر الى احد ، ثم قال :

ـ زمان .. نزل بلدتنا اربعون لصا ، على اربعين فرسا . لم يكن احدكم قد ولد . كانت البنادق في ايديهم . وظلوا يرمحون في شوارع البلدة بالخيل ، ويطخون أعيرة في الهواء . اغلقت البلدة على نفسها ابواب الغرف ، قبل ابواب البيوت . واخذوا كل مواشي البلدة . ساقوها امامهم . وكان كل خوفنا ، ان يطيش عيار من بندقية مائلة، ويصيب كومة من القش على سطح بيت ، وتشتعل البلدة ، ونحن محبوسون بداخلها . كنت صغيرا ايامها . انظر من خصائص النافذة.

وتنهد الحاج حمزة ، ثم قال بصوت من يرثى :

ـ وجاء جيل ، على جيلنا الذي يودع من سنين . كثر جيلكم يامحمد . وحمل راديوهات صغيرة . لكنه ينظر الى رجليه . ولقمة خبزه . ويا نفس . هيه . ومن يعرف : ما الذي سيحدث لاولادنا ؟

والتفت الحاج حمزة نحو محمد قائلا :

ـ ابوك كان رجلا . لو كان يزحف الى القبر ، لم يكن ليسكت مثلي .

احس محمد بذات الطعنة التي يوجهها الحاج حمزة الى نفسه . لم يقل شيئا . وسمع صوت مذكور يرن في اذنيه :

« ليته كان حيا . الانسان لا يجد في البلدة رجلا » .

وفكر محمد ، انه ، مع ذلك ، ابن هذا الرجل المستور الحال ، الذي عاش دائما مع الحق والمظلوم على الظالم . وسأل نفسه : كيف يستطيع ان يواجه الموت ، يواجه مذكور ، وهو بعد يدير وجهه ، حين تذبح أمه دجاجة . ولم يستطع ان يقتل القط البري الذي يقطع عليه الطريق الى ارضه ؟ كيف يستحق هذه الارض اذن ، ولقمة الخبز التي يضعها في فمه ؟

ونهض الحاج حمزة قائلا :

ـ قم . عد الى بيتك يا محمد . فقد ابتعد الآن .

ونهض محمد واقفا . وادار الرجل ظهره اليه ، دون ان يصافحه . ووقف بدور ليسند أباه الحاج ، لكنه سحب يده بعيدا عن ولده . ومدها نحو المرأة الواقفة ، قائلا لها : ـ خذي يدي يا ابنتي .

ولطم محمد وجهه ، وهو يحس بفجيعة تخنقه . وتخايل له القط البري يصرخ في وجهه . فصرخ مثله ، دون صوت ، مكشرا عن انيابه . واندفع خارجا ، في ظلام الليل .

القاهرة سليمان فياض

الممثل يخلع القناع

عرفت أنها رواية ملفقه
وأن ما يقال عن عليٍّ
يقال عن معاوية
وأن دوري الذي ترون نبله
تخدعكم به وسامة القناع
ومذ قبلت مثل هذه الادوار
مزقت نبل مهنتي
وأن مخرج الرواية الكبير
قد لا يكون فوق مستوى الخطأ
فذلك المؤلف التعيس
يقضي نهاره الطويل في التجوال
مفتشا عن الحقائق المؤكدة
وحينما يجيء بالحصاد
بالشوك والاحجار والصراخ
يجيئنا بالمر والدموع
يقول مخرج الرواية الكبير
أسرفت في تصيّد الاحزان
ما هكذا الحياة
والناس ما أتوا لمسرحي
ليذرفوا دموعهم
من أجل هذه المبالفات
ففيّر البداية المفرقة السواد
وغير الوسط
ارجوك سيدي يا شاعري العظيم
لا تترك النهاية المروعة
فالناس مجهدون
وكم تكون نافعا
لو استطعت ان تثير فيهم الضحك
ويبدأ المؤلف المسكين في ارتداء حلة الكذب
كي تصبح المأساة
روايـة مسلية
وهكذا يا سادتي المشاهدين
تقضون ساعتين في الضحك
فكل ما ترونه بهيج
ولا محل للقلق
فالشكر كله للمخرج الكبير
أمـا انـا
أنـا الممثل الصغير
فسوف أفسد الرواية المسلية
لليلة وحيدة فقط
سأخلع القناع
ابوح باعترافي الخطير
وبعدها ستكرهونني
لانني عكرت صفوكم
لكنني أطمئن الجميع
بأنهم لن يقطعوا التمثيل
فسوف يحضر البديل
امـا انـا
لا تشغلوا نفوسكم
بل تابعوا اذا استطعتم التمثيل
فقط اردت ان اقول
لو أن لعبة الحقيقة المقنعة
تكشفت امامكم
لضج هذا المسرح الكبير بالعويل

القاهرة — **محمد ابراهيم ابو سنة**

قرأت العدد الماضي من «الآداب»

الأبحاث

بقلم جلال السيد

***

مر عامان على عدوان ٥ يونيو ـ وهي بلا شك ـ ذكرى حزينة ومؤلمة ، على كل انسان عربي ، ولكننا لن نجتر الاحزان ، ونتصايح بالعويل والندب ، ولسنا مع الذين حملوا اخطاء الامة العربية جميعها على ما حدث في ٥ يونيو ، بل نرى ان نواجه اخطاءنا ـ جميعا ـ بشجاعة ، ونعمل مع كل ما هو ايجابي في وطننا العربي ، مدركين ان العدوان ما زال قائما ، والمعركة لن تنتهي حتى بازالة آثار العدوان ، واذا كان ما حدث في ٥ يونيو ، قد افقد البعض صوابهم ، وترك جرحا ـ لا يزال ـ في قلب كل عربي ، يقطر دما ، فلا شك ايضا ان الهدف الرئيسي من العدوان لم يتحقق ، سواء في القضاء على انظمة الحكم الثورية ـ خاصة في الجمهورية العربية المتحدة ـ والتحقق من زعامة عبد الناصر ، او القضاء على الشعب الفلسطيني ، وطمس القضية الفلسطينية الى الابد .

في هذه الحدود ـ ورغم الاخطاء القاتلة التي تسببت في هزيمة يونيو ـ فان الاستعمار الامريكي واسرائيل والصهيونية العالمية ، لم تستطع جميعا تحقيق اهدافها من العدوان . بل على العكس زاد تعلق الشعب العربي في مصر بقائده وزعيمه ، وما زال يوم ٩ يونيو في الاذهان ، وسيظل علامة في تاريخ شعبنا ، الذي رفض الهزيمة ، وادرك انه قادر على النصر ، ولم يصب الشعب العربي باليأس والاستسلام ، وكانت ثورة السودان ضربة للاستعمار ، وتعبيرا عن روح الشعب العربي الثورية ، التي لم تؤثر فيها هزيمة يونيو او غيرها من الهزائم مهما عظمت ، واستيقظ الشعب الفلسطيني عملاقا ، يملأ اسماع العالم بثورته المسلحة ويضع قضيته ـ لاول مرة ـ منذ عام ١٩٤٨ وضعها الصحيح ، ولم تطمس القضية الفلسطينية ، بل اصبحت هي القضية الرئيسية فيما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ، او الصراع العربي ـ الاسرائيلي .

ووضعت الثورة الفلسطينية القوى الاشتراكية والثورية والوطنية، في العالم ، وفي الوطن العربي ـ بشكل خاص ـ امام مسؤولية تاريخية ، في الوقوف مع الثورة وتأييدها ومساندتها وحمايتها ، واي تخاذل او تردد في هذا الموقف ، يضع اصحابه في صف واحد مع الصهيونية والاستعمار .

وفي العدد الماضي من «الآداب» ناقش الدكتور سهيل ادريس، في افتتاحية العدد « مؤتمراتنا الادبية » واشار الى مؤتمر الادباء السابع الذي عقد في بغداد ، والى المؤتمر الثاني لاتحاد كتاب فلسطين والذي عقد في القاهرة ، وقبل مناقشة آراء الدكتور سهيل حول المؤتمرات الادبية ، ارى من الضروري ان اوضح الموقف من مؤتمر كتاب فلسطين ، فلقد قاطعه معظم الادباء والكتاب الفلسطينيين ، بل اكثر من ذلك ان منظمة التحرير الفلسطينية ـ التي انبثق عنها هذا الاتحاد في الماضي ـ قاطعت المؤتمر ، وايضا حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » . ويبقى السؤال ، اذا كانت المنظمات الفلسطينية ـ طليعة الشعب الفلسطيني ـ اليوم ، قاطعت المؤتمر ، فمن كان يمثل ؟

لقد قال لي بعض الفلسطينيين الذين قاطعوا المؤتمر : ان اي مؤتمر فلسطيني لا بد ان يمثل الثورة الفلسطينية ويكون انعكاسا لها ، ولهذا قاطعنا مؤتمر اتحاد كتاب فلسطين .

والحقيقة اننا كنا نفهم ـ قبل اعلان الثورة المسلحة ـ ان اي تجمع فلسطيني ، مفيد للقضية ، اما اليوم فان اي تجمع فلسطيني ـ خارج الثورة ـ لا يمثل الا الاشخاص المجتمعين ، بل اكثر من ذلك ان الشعب الفلسطيني ينظر اليه نظرة ارتياب ، كما ينظر اليوم للمنظمات الفدائية الفلسطينية الصغيرة ، التي قامت وشكلت بهدف ضرب الثورة وتشويهها والتشكيك فيها .

ونحن لا نشكك في اتحاد كتاب فلسطين ، ولكن نطلب منه ان يتجه للثورة الفلسطينية سواء لقيادة الكفاح المسلح او منظمة التحرير الفلسطينية ، ليكون في خدمة الثورة ويعاد تشكيله بشكل ثوري ، يعكس حقيقة الثورة الفلسطينية ، اما الابتعاد عن الثورة فموقف سيحسب على اعضائه ، ولن يكونوا بعد ذلك بعيدا عن الاتهام ، مهما كانت نواياهم .

اما بالنسبة لمؤتمرات الادباء العرب فقد قال عنها الدكتور سهيل : ان توصياتها « ظل معظمها ، ان لم نقل كلها ، حبرا على ورق » . وهو يقترح تخصيص مؤتمر كامل لبحث موضوع « مشكلات الاديب العربي ».

ويرى ان الموضوع الكبير الذي عالجته جميع مؤتمرات الادباء منذ خمسة عشر عاما ، هو « رسالة الاديب العربي في مكافحة الصهيونية »، واذا ظللنا نعالج هذا الموضوع الخالد ، من غير ان نتقدم فيه خطوة ، فمن الافضل تعليق المؤتمرات الادبية .

ومع تسليمي بأن توصيات مؤتمرات الادباء لم ينفذ معظمها ، فاننا نتساءل ، بعيدا عن المشاكل التي تعوق تنفيذ التوصيات ، ماذا قدم الادباء خلال خمسة عشر عاما بالنسبة لرسالة الاديب العربي في مكافحة الصهيونية ، هل يكفي ان يضع الادباء ابحاثا في المؤتمرات عن رسالة الاديب في مكافحة الصهيونية ، أم عليهم يقع هذا العبء ؟ وهل تناول القضية الفلسطينية في اعمال فنية وادبية ـ على مستوى جيد ـ يحتاج الى مؤتمرات وتوصيات ؟ فماذا كتب الادباء العرب جميعا ـ باستثناء الادباء الفلسطينيين ـ عن القضية ؟ مقال هنا ، وقصيدة هناك ، تتباكى على الوطن الفلسطيني ، وتؤكد اننا عائدون ، هل عايش الادباء العرب الشعب الفلسطيني سواء في مخيماته ، او في قواعده اليوم ، واحسوا بمسؤوليتهم العربية ، وعبروا عن ذلك في انتاجهم الفني والادبي ، وطرحوا القضية امام العالم من خلال هذا الانتاج ؟

نقول ان القضية الفلسطينية وكذلك النظرة للصهيونية ظلت ليس فقط منذ انعقاد المؤتمر الاول للادباء العرب في ١٩٥٤ ، بل قبل ذلك ، منذ عام ١٩٤٨ ، وهي قضية مزايدات سياسية وقع فيها الادباء ، وكانت بالنسبة لهم قضية مناسبات ، والقضية ليست ان نطرح موضوع رسالة الاديب في مكافحة الصهيونية ، ولكن القضية ان نفعل شيئا ايجابيا تجاه هذا الموضوع ، وقد اعلنت الثورة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٥ ، وتعرضت لمشاكل وصعوبات خطيرة ، كان منها موقف بعض الدول العربية ، فماذا قدم الادباء تجاه الثورة الفلسطينية منذ هذه الفترة حتى الآن ؟

وهنا نقدم اقتراحا لمؤتمر الادباء القادم ان يكون حول دور الاديب فيدعم الثورة الفلسطينية ، ليس على ضوء ما حدث في المؤتمرات السابقة ، ولكن على ضوء الثورة الفلسطينية التي قدمت وتقدم شهداءها ـ كل يوم ـ والذين اصبحوا امانة في اعناق الشعب العربي ، ومسؤولية امام الادباء والمفكرين العرب ، ومن خلال القضية الفلسطينية

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ



بقلم شوقي خميس

***

في العدد الماضي من الآداب اشرنا الى حقيقة واقعية ، تتمثل في قيام جبهة تحرير من الشعراء العرب ، ضمت اليها اغلب شعرائنا من كافة الاتجاهات الفنية والفكرية ، ونبهنا الى دخول شعراء فلسطين المحتلة كقوة اساسية عظيمة الفاعلية في هذه الجبهة ، بالاضافة الى عشرات من الشعراء الجدد من كافة الاقطار العربية ، ويضيفون كل يوم الى رصيد الجبهة الثائرة عطاء جديداً .

وفي ذلك المقال لم نركز على دور الشعراء الواقعيين الذين بدأوا حركتهم الجديدة منذ زمن يقارب العشرين عاما وهو عمر الشعر الحديث تقريبا . وكان ذلك اقتناعا منا بأن دور الشعراء الواقعيين ما كان ليحتاج الى توضيح بعد ان اسفرت الكارثة التي حلت بالوطن العربي عن الاهمية البالغة للارتباط بالواقع وللمحاولات الثورية الهادفة الى تغييره نحو الافضل . لقد قام الواقعيون بدور قيادي في الفن وفتحوا الابواب لكل من جذبتهم الحركة التحريرية من شعراء الاتجاهات الاخرى فيما بعد . ومهما قيل عن تفرد كل شاعر ورؤيته الخاصة الخ فان اي شاعر لا يمكن أن ينطلق من الفراغ . فاذا كانت حركة التحرير قد ضمت اليها غالبية الشعراء وربطتهم بواقع الحياة والمأساة مما ادى الى سيادة التيار الواقعي في الشعر ، فيجب الا ننسى فضل الذين ماتوا وهم يحملون في قلوبهم تمزق الارض او عاشوا منفيين تدمى نبضاتهم من طرق ابواب الثورة والحرية حتى فتحنا ابوابهما ، يجب الا ننسى شعراء مثل بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي والعديد العديد من شعرائنا الواقعين المبدعين .

وقد توقعنا في مقالنا السابق أن تؤثر هذه الحركةالجديدة التي تتمثل في جبهة الشعراء على شكل القصيدة العربية وان تؤدي الى الارتفاع بفن الشعر العربي الى مستويات جديدة ، وسنناقش الوجه الفني والجمالي الآن في قصائد العدد الماضي تاركين للقراء وحدهم الحكم على صحة هذه التوقعات .

غزة ... في القلب ـ سلافة حجاوي

تقدم هذه القصيدة صورة من صور كفاح طالبات غزة ضد الغزو الصهيوني وتغري مثل هذه التجربة بالتناول الخطابي المباشر ، ولكن الشاعرة تغلبت على هذا الاغراء ، وابتعدت عن النزعة الخطابية باستخدامها للمقاطع القصيرة ، وتفاعيل الرجز ذات الايقاع الموسيقي البطيء بشكل عام ، هذا من ناحية الموسيقى الخارجية للقصيدة ، كذلك فان الشاعرة قد انتقت جزئياتها من معطيات الواقع البسيطة مثل الكتاب والدفتر والمحبرة والضفيرة والمدرسة والساحة ، ومزجت بينها وبين صور تعبيرية تجسد انطباع الشاعرة الكلي عن حياة الطالبات (كن فراشات معطرة ـ يرشفن دفقة الرحيق من كتيب .. الخ)

وقد اتخذت الشاعرة في صياغتها للقصيدة شكل الموقف الدرامي فبدأتها بنظرة الى الخلف نطل من خلالها على العناصر التي ستعصف بها الازمة بعد قليل ـ فنشهد صور البراءة في حياة طالبات غزة ـ الارض في عيونهن خارطة ـ تلهو بها الجبال ـ وتمرح السهول والتلال ـ في ألق المياه والظلال ـ هذه الارض التي ستصبح فيما بعد ميدانا لنضال نفس الطالبات ، الارض التي ستخفق حمراء فدائية في قلوبهن. فبعد ان تقدم لنا الشاعرة لحظة البراءة والحلم المحطم لا تنتقل مباشرة الى عالم التحول وازمة الاحتلال وانما تفصل بين العالمين بمقطع قصير غنائي وما سيأتي ويؤدي بغنائيته التي خرجت فيها موسيقاها عن ايقاع الرجز الهادىء دور الغناء القديم فتدعم مشاعرنا العامة وتحفظها من التبدد في مواجهة ما سيحدث ، وان اكتسبت الغنائية هنا قيمة اضافية بربطها بالموقف الدرامي . وبعد ذلك تنتقل الشاعرة من جديد الى ايقاعها السردي البطيء لتصف التحول المأساوي وموقف الطالبات البطولي ـ بعيدا عن التهويل الخطابي المداهن ـ مستخدمة الجزئيات ومادة الحياة التي استخدمتها في خلق صورة الحياة السالفة ، ويترك المشهد تأثيره العميق من خلال معطياته الشفافة البسيطة مثل صور الكتب الملقاة في الشوارع المقفرة والحزن المفاجىء والاقدام الصغيرة التي تزاحم الهواء والارض الدامية تشرق في عيونهن على نحو متخلف الآن وقد تحولن الى مناضلات . لقد استطاعت سلافة حجاوي ان تصل في قصيدتها هذه الى مكان في نفس المتلقى ابعد بكثير واعمق من كل الحساسيات الجاهزة .

التائهون في سيناء ـ صالح درويش

عندما تجسد القصيدة احساسا عاما ـ مثل هذه القصيدة ـ تكون مهمة الشاعر اصعب ، فهو في احساسه بسيناء الدامية التي بدأت تنهض من جديد ، وفي تصوره لفزع الاعداء اذ يشعرون بوجودهم العارض امام وجودنا القديم الضارب بجنوره المناضلة في اعماق التاريخ ، وفي ندائه الثوار ليضربوا ضربتهم الحاسمة ويوقظوا العروق والرمال ، في كل هذا ينطلق الشاعر من احساس قومي عام تشاركه فيه جماهير المتلقين . فما الذي يفعله بتجربته ليرتفع بها الى مستوى الشعر وينقذها من عادية التقرير العاطفي ؟ لقد جسد الشاعر احساسه العام من خلال صور فنية قويه مثل « بنادق الثوار .. يا مفتوحة العيون ... يا مذهلة الحقد ، صبي توهج الرعد ، تمسكي بالارض » .

ولكن هذا التعبير القوي أن انقذ القصيدة من الضعف فهو لا ينقذها من العادية ، فان ما ينقذها حقا ويرتفع بها الى مستوى الشعر ويمنحها القيمة الفنية والاصالة انما هي رؤية الشاعر الخاصة . فالشاعر وحده هو الذي تصور الجثث الملقاة في سيناء ، منسية كشجر العرعر تمضغها ريح السموم ، وهو وحده الذي منح التمرد والانفجار فيما بعد صورته الخاصة . ومثل هذه الصور عندما تضاف الى شعور المتلقى فانها تدعمه وتخصص عموميته وتحيله الى شيء شبيه بالذكرى وتهبه معنى جديدا ، كما ان الطريقة التي اورد بها الشاعر رؤيته خلق الايقاع العاطفي الذي ينظم مشاعرنا الثائرة ويخلصها من الفوضى والتهوش .

> التائهون في الصحاري انتصبوا
> كراية مصبوغة بالدم .

بعد ان يبدأ الشاعر قصيدته بهذين البيتين الحاسمين في نهايتيهما تتوالى البيوت كموجات صغيرة متداخلة ممتزجة ببعضها امتزاج الحاضر بالماضي والواقع بالحلم :

> والجثث الملقاة في سيناء
> منسية كشجر العرعر
> تمضغها ريح السموم
> تمردت على الرمال المحرقة
> وفجرت قبورها ... الخ

لاحظ النهايات الممتدة في البيت الاول والثالث والخامس والنهاية المضطربة ـ عن عمد ـ في البيت الثاني والهامسة في البيت الرابع .

كان بامكان الشاعر ان ينحت لابياته نهايات متسقة اتساقا هندسيا جميلا وفارغا ولكنه فضل أن يمنح طريقته في الاداء هذه العفوية المؤثرة والقريبة من النفس ، وهكذا من خلال رؤية الشاعر الخاصة لما هو عام وعن طريق الصياغة الفنية التي اخرج بها الينا تجربته استطاع ان يمنح قصيدته قيمة فنية وعمقا انفعاليا وجماليا يدعم وجداننا الثوري .

عايدة ـ محمد الاسعد

يمتلك الشاعر محمد الاسعد قدرة رائعة على التشكيل ، وعلى ان يبدو بالغ البساطة في أدائه الفني في الوقت الذي تحمل فيه صوره

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ



بقلم : سامي خشبة

***

ليس هناك نوع واحد من الحروب. وليست هناك نظرة واحدة الى كل انواعها . وليست لكل الحروب نهاية واحدة .

دفعتني الى تقرير هذه الفكرة العادية ـ في بداية نقد قصص العدد الماضي من الاداب ـ قصة لويجي بيرانديللو العظيمة «الحرب» التي نشرت ترجمة لها من ذلك العدد قام بها أحمد ساهر . لقد اطلق بيرانديللو على قصته ذلك العنوان الهائل ، الذي يبدو حتى من الترجمة الانجليزية التي تحت يدنا The War عنوانا اشبه بالقضية المنطقية الكلية ، جامعا مانعا ، وفي العربية ايضا بحر في الالف واللام في بداية الكلمة ، فيصنعان اسما لعلم يريد ان يدل على كل اشباهه وان يشير الى كل من يحمل اسمه .. كأنه يدل ويشير الى كل حرب اخرى . ولكن هذه ليست هي الحقيقة لان « حرب » بيرانديللو لاشبه حربنا في شيء .. رغم ان لكل من الحربين ضحاياها .

كتب بيرانديللو قصة « الحرب » بعد ان اكتملت آثار الحرب العالمية الاولى ، اكبر الحروب الاستعمارية في التاريخ ، او الحرب التي لم تتردد كلمة « الوطن » اكثر مما ترددت فيها ، والتي لم تنتهك معاني الوطنية والوطن كما انتهكت فيها ، فقد كان الهدف الوحيد لكل من اطرافها هو اعادة اقتسام العالم فيما بينهم ، والحصول على اكبر قدر من العبيد يضعهم كل طرف تحت نير استغلاله السافر . وقد اشتركت ايطاليا في هذه الحرب ، ولم تحصل منها على مغنم ولم تخرج بغير الموت الذي حصد عشرات الالوف من ابنائها في كابوريتو وغيرها من المعارك التي ذاقت فيها مرارة الهزيمة المدمرة . رغم انها كانت في الجانب الذي انتصر في النهاية . كما خرجت ايطاليا من هذه الحرب مهيأة للوقوع في قبضة الحزب الفاشي الجنونية الذي قاد ايطاليا من جديد الى حرب اخرى اشد هولا واكثر اجراما .. وكانت الهزيمة فيها كاملة . وقد كان بيرانديللو يوجه ادانته الى « هذه » الحرب التي خرجت منها بلاده بالهزيمة والموت ، وكان يوجه ادانته الى « هذه » الحرب المشابهة التي كانت بلاده تندفع اليها في جنون والتي اشتعلت فعلا بعد موت بيرانديللو بثلاث سنوات. ولكن الفنان العظيم كان يوجه ادانته بطريقته الخاصة المتميزة . فبيرانديللو يقول في قصة « الحرب » ان الانسان لا يستطيع ان يواجه حقيقة نفسه الا اذا واجه حقيقة العالم المحيط به . ان الاب الفخور بولده الذي ضحى بحياته في ميدان القتال ، لا يستطيع ان يتبين فداحة خسارته الا حينما تواجه المرأة الذاهبة لتوديع ولدها قبل رحيله الى ميدان القتال بذلك السؤال البسيط : « اذن هل مات ولدك حقا ؟ »

انها لم تكن تسأل ، وانما كانت تقرر الحقيقة المروعة لكي تزيح بها قناع الثرثرة الفارغة عن الوطن والوطنية والابناء الصالحين، الثرثرة التي لا تعبر عن قضية حقيقية « للوطن » الذي كان يشق حربا عدوانية يهدف قادته من ورائها الى استعباد شعوب اخرى . الموت والفقدان والخسارة والثكل واليتم ـ هي الوجوه الحقيقية المرعبة « لهذه » الحرب ، وهي الوجوه التي لا يعرفها الانسان الا اذا واجه حقيقتها المتجسدة في مثل هذه البساطة .

ولكن هذه الوجوه وان كانت وجوها مشتركة بين كل الحروب ، فليست هي الوجوه الجوهرية او الوجوه التي تعبر عن الحقيقة الجوهرية لحربنا نحن .. حرب الشعب المناضل التي يشنها من اجل تحرير ارضه ومستقبله من الاستعباد والابادة . وهذا هو ما تكشفه القصص الثلاث الاخرى في نفس العدد الماضي من الآداب . وان كشفته كل من هذه القصص من زاويتها الخاصة .

فبينما تنتهي قصة بيرانديللو بتلك النهاية الدامعة الحزينة التي تكشف عن لا انسانية الحرب العدوانية وعن خواء كل الافكار التي تستخدم لتبرير العدوان ، عن الوطن والوطنية والاستشهاد والابناء الصالحين الذين يموتون بسعادة لانهم يتوهمون انهم يموتون في سبيل وطنهم .. فأن القصص الثلاث التي كتبها رشاد ابو شاور ومحمد رؤوف البشير وفايز محمود، تنتهي بالشخصية الرئيسية في كل قصة وقد اصبحت الحرب هي مآلها الاخير ، المآل الذي قد يعني معنى استمرار الوجود الانساني في القصتين الاوليين ، أو المآل الذي يختتم هذا المعنى في القصة الاخيرة.

ولكن بينما نرى الحرب في قصة « ذكريات حزيران لرشاد ابو شاور ، تبدو في صورة عمل جماعي يمارسه شعب بأسره لتحقيق وجود هذا الشعب ولانتزاع حقه في الحياة ولاستعادة ارضه ومقدرات مصيره بين يديه ، فاننا نرى الحرب في القصتين الاخريين : « بطاقة معايدة » لمحمد رؤوف بشير ، « الغد المستحيل » لفايز محمود تبدو كأنها السبيل الوحيد لتحقيق الخلاص النهائي لشخصية واحدة هي الشخصية الرئيسية في كل من القصتين . في قصة رشاد ابوشاور في صورة التاريخ الحقيقي للشعب من خلال فرد واحد ، وفي القصتين الاخريين تبدو على العكس ، تقريرا لمصير فرد واحد ، يصنعه الشعب بأسره .

ذكريات حزيران

عنوان القصة نفسه يحمل معنى لا تكتمل القصة دونه . ذكريات ذلك الشهر الكريه العظيم . الشهر الذي واجهنا فيه دون مظنة من شك اخطر تحديات وجودنا القومي والانساني عبر تاريخنا كله ، وهزمنا في المعركة الاولى لهذا التحدي ، وقررنا ان الهزيمة في المعركة لا تعني النهاية .. وانما تعني ان الحرب مستمرة ، وان علينا ان نتعلم مزيدا عن القتال بكل انواعه وفي كل ميادينه . انه الشهر الذي اصبح شهر الهزيمة وشهر البداية الحقيقية للمقاومة . وهو الشهر الذي كان من المقدر فيه ان يباد شعب فلسطين او ان يلقى السلاح يائسا من كل امل ـ مثلما يتخلى عن كل امل كل من يدخل جحيم دانتي البشع ـ خضوعا لما ظنه الاعداء حكما اصدره « القدر التاريخي » ، ولكنه ايضا الشهر الذي اثبت فيه شعب فلسطين ان الناس قادرون على ان يفرضوا على التاريخ قدرهم الخاص بحد السلاح .

وهذا هو ببساطة ما تقوله القصة . في البداية تحلق الهزيمة لكي تنشر في السماء لون جناحها الاسود . لا طائرة عربية ، خطب واغان تتحدث عن الحرب والقتال ولكن لا قتال هناك ولا حرب، قوافل النازحين تسد الافق ، طائرات الاعداء كغربان جهنمية تمزق اللحم برصاصها وتمزق السماء بضجيجها . والام تصلي ، والابن الباقي ـ فالاخرون مغتربون ـ يظن ان المنفذ الوحيد هو الرحيل الى عمان لكي تنضم الام الى قافلة من قوافل النازحين . ولكن هناك بذرة الجانب الاخر من الموقف ، كامنة في الارض منذ البداية ايضا : « ثمة حقيقة واحدة رسخت في عقلي : لن ارحل « لن يرحل الابن ، وكذلك لم يرحل رفاقه الذين خرجوا من سجن الحكومة التي كانت تسجن المناضلين ووجدت نفسها الان مجبرة على الاستعانة بهم ، وقائد مجموعة الفدائيين يقول وهو يطلق النار: « ما دمنا نملك هذا فسنستمر » . وكانت هذه هي الاجابة على كل التساؤلات التي مرت بذهن الابن : ماذا نفعل الان ؟ ماذا تفعلين ياامي ؟ أيوجد احد في المخيم ؟ هل ترحلين ؟ . حتى الام اجابت على السؤال الاخير بسؤال مضاد : الى اين .. الى ارضنا؟ فقد كانت هي ايضا نازحة قديمة ، وهي لا تعرف لنفسها هدفا ولا لرحيلها مقصدا الا اذا كان عودة الى ارضها الاولى التي نزحت

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

اغنية

للخامس مـــن حزيران

– ١ –

حين عادوا ،
قالت الريح سأبقى ،
فاستعادت لونها
كل العيون الخائفة ،
قالت الريح سأبقى
فاستعادت صوتها
كل الجروح الراعفة ..

– ٢ –

شاعر السلطان
قص الآن أوتار الربابة ،
(في الصباح المعتم الخطوات
عادت خيلنا
بالفارس الميت وازهار الهزيمة
فالعن الآن مدينة ،
بارك النابالم فيها
كـل وجـه وحجر ..)
ترجف الآن مدى السلطان
والسلطان أعمى
ميت من دون موت
سد في عينيه بابه ،
وانتحـر ..

– ٣ –

قال مصلوب الجدار :
(ذكرياتي اليوم ينبوع شرر ،
وجراحي قبرات
كيف للصلب أعود ..
حاملا خمسة اقمار شظايا
وزهورا فاحمة ..؟
دونما بيت ولا قبر أعود !)
...   ...
ثـم اخفاه المطر ..

– ٤ –

كلما ابتلت بأرضي مقلتاك ،
كلما عراك سوط الجوع
والمـوت
على كـل سياج ،
كلما ابقيت خيطا من دم
في ليل شعبي ،
قالت الريح ...
ستأتي مقلتاك ..

الكويت

محمد الاسعد

ابعاد البطولة
في شعر المقاومة العربية

بقلم غالي شكري

هذا المقال الذي تنشره « الاداب » يثير كثيرا من الموضوعات وتحتمل المقاييس التي اعتمدها الكاتب فيه كثيرا من النقاش . فالمجلة تنشره لتفتح باب النقاش فيه ، قبل كل شيء ، لا اقتناعا منها بما يحويه .
« التحرير »

تتعدد أبعاد البطولة في شعر المقاومة العربية المعاصرة ، وذلك لتعدد الجبهات التي يناضل عليها الانسان العربي . فالجبهة الفلسطينية مثلا ، ليست مجرد صراع بين العرب من ناحية والاستعمار الغربي من ناحية اخرى ، انها علاوة على ذلك صراع مر بين « دولة » اسرائيل والشعب الفلسطيني . ليست اسرائيل مجرد « شكل » للصراع بين الشرق العربي والاستعمار الغربي ، وانما هي « مضمون » الصراع اليومي بين دولة عنصرية غاصبة وشعب مغلوب على أمره . من هذه النقطة نستطيع أن « نتفهم » شعر المعارضة العربية في الارض المحتلة ، هذا الشعر الذي لا يغض من قيمته على الاطلاق انه لا يتصل بمعنى المقاومة الا من قبيل المجاز ، ولكنه يتصل أعمق الاتصال واوثقه بمعنى المعارضة . هذا المعنى الذي يجمع في جبهة عريضة كافة القوى الديموقراطية في اسرائيل ، عربا ويهودا ، ضد الكيان العنصري لدولة اسرائيل الدكتاتورية . وينبغي أن نكون منصفين للحقيقة ولا نظلم انفسنا فنقول أن المقاومة الوطنية بمعنى تحرير الارض من اثار الاجنبي لا تخطر على بال وتفكير الشعراء الفلسطينيين المقيمين في ظل الارهاب الصهيوني . وانما يتخذ التحرير عندهم معنى اخر يتعايش في ظلاله العرب واليهود أخوة احرارا من أي قيد عنصري سواء كان قيدا دينيا أو عرقيا أو حضاريا أو غير ذلك . فليس الدين والحضارة الا أردية قديمة يرتديها آلهة البطش العنصري ليخفوا انيابهم الحقيقية التي مزقت وتمزق كل دين وكل حضارة .

أردت أن اقول أن جوهر الشعر الفلسطيني المعارض ، هو تحرير الارض لا من اليهود وانما من الصهيونية . وبالرغم من ان هذه القضية لا تلقى رواجا عند المتطرفين هنا وهناك ، الا انها ستظل مع ذلك العمود الفقري لنضالنا المشروع أمام الراي العام العالمي . ولعل رد الفعل الهستيري الذي قوبلت به رحلة محمود درويش وسميح القاسم الى مهرجان الشباب بصوفيا عام ١٩٦٨ كان نتيجة حتمية لهذا الفهم المغلوط لابعاد « البطولة » التي يقوم بها هذان الشاعران وغيرهما من شعراء الارض المحتلة . لقد تصورنا في غمرة الهزيمة الدامية وتالق نجم الشعر الفلسطيني ان هذا او ذاك من الشعراء « معجزة المقاومة العربية » كتعويض لغياب المعجزة الحقيقية ، معجزة المقاومة المسلحة . ونسينا أن شعر درويش والقاسم وزياد وجبران قد عرفته الاسماع قبل الهزيمة الاخيرة بسنوات . وانه - وهذا هو المهم - لم يتغير بعدها تغيرا نوعيا . ذلك أن الشعر ومبدعيه الذين ساروا تحت العلم الاسرائيلي في مهرجان صوفيا فاثاروا رد الفعل الهستيري ، لا تتحدد نقطة انطلاقهم من المقاومة التحريرية الشاملة للوجود اليهودي ، وانما من المعارضة التامة للدولة الصهيونية . وفرق كبير بين هذه النقطة وتلك في الانطلاق نحو تقييم شعورهم . وسوف تصادفنا كثيرا لفظة « المقاومة » في هذا الشعر ، كما أننا سوف نستخدم دوما عبارة « الارض المحتلة » لا لشيء الا لان عدوان يونيو ١٩٦٧ قد أثبت بما لا يدع مجالا للشك ان الدولة الراهنة في اسرائيل تملك مخططا توسعيا بعيد المدى ، وان الاستمرار في هذا المخطط يثقل الوطأة على العرب المقيمين في الارض المحتلة ، وطأة الانتماء الى العرب خارج الاسوار من ناحية ، ووطأة الاضطهاد المتعاظم من جانب القوى المهيمنة على « دولة » اسرائيل . وفي حدود هذا المعنى للمقاومة لن نقع في اللبس الذي وقع فيه كثيرون حين اتهموا محمود درويش بالتحلل من الوجدان العربي في دفاعهعن الاكراد ، واتهموا سميح القاسم بالذبذبة السياسية في انتمائه ومعارضته للحزب الشيوعي . فضلا عن أننا في هذه الحدود لن نتورط في اتهام هؤلاء الشعراء الكبار بالخيانة لمجرد أنهم اختاروا الحياة في ظل ظروف أسوأ من الموت .

وشعر المعارضة في ادب فلسطين المحتلة ليس تخصصا من جانب الشعراء الفلسطينيين فهم يعالجون مختلف رؤى الشعر ومراميه جنبا الى جنب معارضتهم « السياسية » للنظام القائم . ففي قصيدة « الى امرأة » يمزج الشاعر محمود درويش بين الصورة المركزة الموحية ، وبين قالب المثل الشعبي القريب من الحكمة العربية القديمة دون أن تتمزق أوصال القصيدة الى ابيات مكتفية بذاتها ، بل هو يمدها بقيمة واحدة تتكرر في كل مقطع بصورة جديدة تضيف الى الفكرة الرئيسية بعدا جديدا ، كما يمدها بايقاع موحد يتكامل من مقطع الى اخر حتى يصل الى « الذروة » التعبيرية في قوله :

« - لا يحزن الصياد
أن يعود مرة بلا أسماك
يحزنه ان تحمل الشباك
بعد نهار الكد
طحلب البحار »

وبهذه الخاتمة يكون قد نزع اخر « الاقفصة السبعة » عن وجه الشجر الذي كان جميلا ثم ذبل في الخريف ، ووجه المطر الذي كان وفيرا ثم أصابه السأم في الشتاء ، ووجه القمر الذي كان وسيما ولكنه لا يغني عن جوع . وتكاد هذه القصيدة ان تشبه دقات المسرح التقليدية الثلاث السابقة على رفع الستار عن العالم التراجيدي الذي يصوغه شعرا محمود درويش . هذا العالم الذي تتخلله نغمة اليأس الحزين الهادىء ، اليأس القريب احيانا من المعنى الوجودي القائل بان الحياة الانسانية تبدأ عند الشاطىء الاخر من اليأس . ومن قاع اليأس، أي انعدام الرجاء في أية محصنات طبيعية للنصر ، يرى الشاعر قضيته على حقيقتها ، يراها في الاسلاف :

يا وجه جدي ، يا نبيا ما ابتسم

من اي قبر جئتني
ولبست قمبازا بلون دم عتيق فوق صخرة
وعباة في لون صفرة .
ولبست قمبازا بلون دم عتيق فوق صخرة

للماضي والاجداد ، فقد أصبحت « بلادنا مقابر » :

يا سادتي ، حولتم بلادنا مقابر
زرعتم الرصاص في رؤوسنا ، نظمتم المجازر
يا سادتي ، لا شيء هكذا يمر
دونما حساب :
كل ما صنعتم لشعبنا مسجل على الدفاتر

ويتصور المرء أنه ما دامت هناك « ساعة حساب » فالامل في النصر معقود في الاعين المسهدة ، في رؤى احلامها المكتظة بالرعب والحنين ، الرؤى التي تجمع بين الامل في حساب غامض جنبا الى جنب يقين مفجوع :

يخيل لي أن خنجر غدر
سيحفر ظهري
فتكتب احدى الجرائد
- كان يجاهد
ويحزن أهلي وجيراننا
ويفرح اعداؤنا
وبعد شهور قليلة
سينسى الجميع
جروحي القتيلة

ان محمود درويش في هذه القصائد وغيرها يقدم نموذجا جديدا لشاعر المعارضة لم يعرفه قط الشعر العربي الحديث ، وهو الشاعر الذي لا ينطلق من وهم يعشش في المخيلة ولو كان وهم النصر .. وانما هو ينطلق من المعارضة ذاتها بكل تحدياتها ومنجزاتها السالبة والموجبة. بل ربما كان درويش يعمد بالذات الى التركيز على التحديات فتبدو من ثم الصورة قاتمة .. ولكنها القتامة الحقيقية غير المزيفة التي تحول الياس فينا الى كوة مضيئة بنور الامل . والسمة الثانية البارزة في شعر محمود درويش انه يعيش حياته في شعره بلا تزوير ولا تنميق ، حياته التي قد تهب عليها نسمة حب وتلفحه فيها نيران الهجر ، وحياته التي قد تترسب على جدرانها قطرات الوحدة القاتلة فتشحن وجدانه بمرارة كالعلقم . انه حين يكتب الشعر لا يخلع عن نفسه هذه الثياب الداخلية ويرتدي ردنجوت الشعر والبطولة والمقاومة، بل يأتينا هكذا انسانا يناضل الحياة من خلال نضاله النظام العنصري.

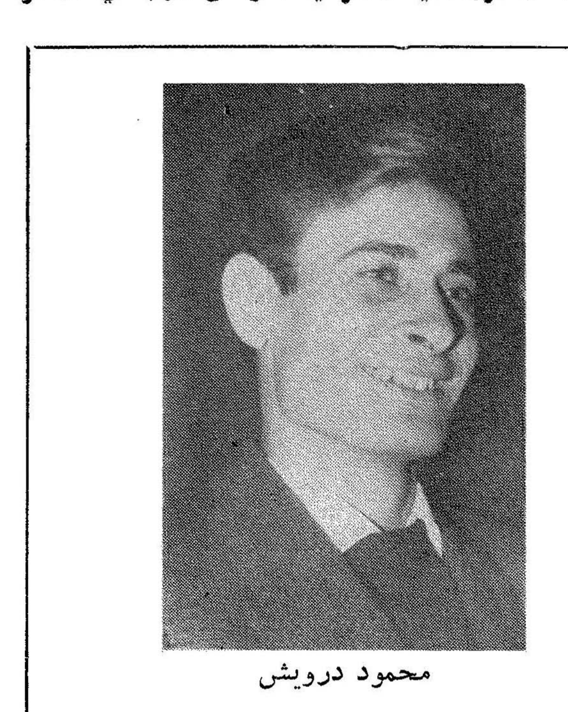
ولعل قصيدة « يافا » لراشد حسين من انجح القصائد التي تدل على أن السمة البارزة في الشعر الفلسطيني خلف الاسوار . وهي من هي من السمات العامة في الشعر الفلسطيني خلف الاسوار . وهي من الناحية الفنية تعد من قصائد الاتجاه السلفي في الشعر الحديث . ولكن الفنان الاصيل قد استطاع - متخيلا مدينة يافا في ظل الاغتصاب الصهيوني - ألا يستخدم كلمة تقريرية واحدة ولكنه يعتمد اعتمادا كاملا على الصورة المستوحاة من جزئيات الواقع القديم للمدينة في جديلة واحدة مع جزئيات الواقع الجديد ، وما تعكسه هذه الصورة المزدوجة من مفارقات ومقابلات لا نهاية لها :

مداخن الحشيش في يافا توزع الخدر
والطرق العجاف حبلى بالذباب والضجر
وقلب يافا صامت ، أغلقه حجر
وفي شوارع السماء مأتم القمر

وينقذ الشاعر قصيدته من هوة التكرار الموسيقي والرتابة الايقاعية التي تصل في النماذج الرديئة من نفس النوع الشعري الى درجة الاملال .. فيقول :

يافا التي رضعت من أثدائها حليب البرتقال
تعطش وهي من سقت أمواجها المطر
يافا التي كسرت الايام فوق هذه الرمال
ذراعها تشل حين ظهرها انكسر
يافا التي كانت حديقة أشجارها الرجال
قد مسخت محششة توزع الخدر

وبالرغم من أن القصيدة تلتزم التفعيلة الواحدة اطارا موسيقيا الا ان صرامة البناء قد حالت في أحيان كثيرة دون المرونة التي تتصف بها « حداثة » هذا الشعر ، وأفقدتها الحيوية الدافقة التي من شأنها أن تمس الاعماق اكثر مما استطاعت قصيدة « يافا » أن تفعل . على أن الاتجاه السفلي الجديد يصل منتهاه في قصائد الشاعر سميح القاسم ، كما أن الرومانسية الاشتراكية تصل الى ذروتها في شعر



محمود درويش

توفيق زياد . وهو الشاعر الذي تأرجحت بعض مراحله الفنية بين العويل الناتج على ما مضى الى الرثاء المكتوم للحاضر ، الى وميض الامل الخابي وهو يطل من وراء الكلمات فيما يشبه « الوعيد » :

ان من يسلب حقا بالقتال
كيف يحمي حقه يوما
اذا الميزان مال

ويميل شعر توفيق زياد أكثر من غيره الى « تحليل » أسباب الهزيمة وابعادها ومستقبلها ، ولكنه تحليل « شعري » في النهاية يفقد قيمته لما يموج فيه من ضباب يحرم الشعر مناخه الوجداني الخاص ولا يمنح بديلا لذلك صورة نظرية صحيحة . ويتحول هذا الضباب الى سحابة رومانسية غائمة في شعر « ابن الجليل » الذي يقترب كثيرا من رومانتيكية نزار قباني ، يقتصر استخدامه الشعري على المناخ الرومانسي الذي يشيعه في القصيدة لافي مضمونها أو نسيجها الحي :

سهرت ليلتين في العذاب
دخنت عشر علب
فرشت أرض غرفتي أعقاب
كتبت ألف بيت
قرأتها في غضب
ضربت فوق مكتبي
وقمت بانفعال
للشعر للخيال
أعصر رأسي ضارعا

للشعر للخيال
لكنني آويت للسرير
وكل ما في دفتري العنوان
يسخر مني خطه الكبير

فحين يكتب الشاعر الفلسطيني المناضل في الارض المحتلة هذه الكلمات تكتسب ـ اللفظ الرقيق والاخيلة المجنحة ـ بعدا سياسيا واضحا تكثفه هذه الغضبة الحائرة القلقة التي يهرب من هولها الخيال والشعر والقدرة على الخلق ، وتهرب قبل ذلك كله : القدرة على النوم.أما محمد القيسي اكثر الشعراء المناضلين في فلسطين المحتلة (*) تأثرا بالمدرسة المصرية في الشعر الحديث ، فانه يستلهم المعجم الشعري لصلاح عبد الصبور واحمد حجازي استلهاما يتجاوز الحدود التي يتوقف عندها شعرهما .. فهو يستمد من أسلوب « فروسية الكلمة » وتجسيد المجردات وموسيقى الابحر الراقصة والحكايات الناعمة ، ما هو ابعد غورا في الاعماق العربية ، يمزج الحس بالوجدان ليخرج منها بمركب جديد هو القلب الجريح في اهوائه المشروعة وكبريائه المخنوق :

يا قلبي ،
يكفى ما القينا خلف البوابة من ازهار
وما عدنا نملك ثمن الازهار
وتعود ،
قلقا يا قلب اراك
تندى جنبي باحزان هواك

وهكذا تتوحد الاحزان وتنسج الآلام نحيبا واحدا مشتركا بين هوى الحياة وهوى الوطن فتندغم ـ من ثم ـ القضية العامة في التجربة الشخصية ، وبمسيان معا تجربة المأساة على أرض الفداء . وهي التجربة التي لا تتجاوز معنى « المعارضة » باية حال ـ وربما كان هذا في ذاته وجها من وجوه المأساة ـ ولكن الوجه الذي نلتزم بسماته وملامحه عندما نتصدى لتصويره ، لا ان نتخيل قناعا من صنعنا .

***

على ان شعر المعارضة الفلسطينية داخل الارض المحتلة هو من زاوية ما احد عناصر الجبهة المعادية للصهيونية والاستعمار ، وهو بالتالي يدعم المقاومة بصورة غير مباشرة ويغذيها برافد من الواقع ويطور أبعادها بشهادة العيان . وذلك على النقيض من موجة شعر « التشفي » التي يعد نزار قباني أبرز وجوهها . ولست من الذين يحرمون فنانا من قول كلمته باسم ماضيه الذي لا يتسق ولا يتفق مع هذه الكلمة . فالازمات الكبرى والمحن العظيمة قد تغير من جوهر الانسان وقد تقلب الفنان رأسا على عقب . ومن هنا يبطل عنصر « المفاجأة » كحيثيات مضادة لشعر نزار ، فلربما استطاع ان يجد في « الحب والبترول » و « خبز وحشيش وقمر » و « رسالة الى جندي في الاسطول السادس (*) ما يقوم دليلا على انه كتب الشعر الوطني قبل الهزيمة ، وبالتالي فاين موضع العجب فيما كتب بعدها ؟ ولكن هذه السلسلة المحكمة من الغلطات سرعان ما يكتشف أمرها ، لان نزار قباني قبل الخامس من يونيو لا يمكن تقييمه على ضوء هذه « النتف » المعدودة من قصائد المناسبات . أما « أعماله الكاملة » فهي تلك الاعمال التي تخصصت في « المرأة » من وجهة نظر البرجوازي المرفه الجواب بين عواصم العالم ، شاعرا ودبلوماسيا . ولا يختلف شعر نزار الجديد ـ بعد الهزيمة ـ عنه قبلها ، فليست الهزيمة الا احدى « المناسبات » التي تملى على الشاعر اسلوبا واحدا في « النظم » ، كما انها ليست الا قناعا عصريا اكثر ملاءمة لنفس الوجه الذي طالعنا به الشاعر في كتاباته عن المرأة . والجديد هو ان نزار قباني يمس وترا مشدودا في القلب العربي فيعزف ـ وينزف ـ لحنا جنائزيا يستهوى الافئدة ، ويحك جرحا لم يلتئم في النفوس الخدر .

لا تتصل « هوامش على دفتر النكسة » في كثير او قليل بشعر المقاومة ، ولم يتحول كاتبها بين غمضة عين وانتباهتها من شاعر الحب والحنين الى شاعر يكتب بالسكين .. فاغلب الظن ان سكينه قد اخطأت مكان القلب من العدو الرابض فوق أرضنا الى شغاف القلب من الانسان العربي المهزوم . ولا تنطلي علينا هذه الخدعة البراقة التي يصدر بها نزار قباني قصيدته الاولى بعد ٥ يونيو ، هذه الخدعة التي تبدو وكأنها نقد ذاتي لعقل هذه الامة ووجدانها . بينما هي في واقع الامر نوع من السادية التي يتلذذ فيها صاحبها لذة تلتقي مع لذاذاته السابقات في شعره الجنسي ، فالنرجسية هناك تقابلها السادية هنا . وحتى هذه السادية ليست شعورا مرضيا صدق صاحبها في تشخيصه وعرضه ، وانما هي محاولة ينقصها الذكاء في اغلاق باب الادانة دونه . ينقصها الذكاء ، لان نزار مهما كال الشتائم لنفسه على ماضيه ، فان هذا لن يحول دون رؤية الماضي مستمرا دافقا حيا في حاضره الشعري، ولن يحول بالتالي من ادانة الماضي والحاضر معا . وينقصها الصدق لان فريقا من الكتاب والفنانين العرب قد حاولوا ـ بقدر ما اتيح لهم من حرية الكلمة ـ ان ينبهوا الى موطن الداء وان يحذروا من أهوال الكارثة القادمة .

ولا يتوقف نزار قباني كثيرا عند دلالة حرب يونيو الحقيقية ، فليست العنتريات والطبلة والربابة الا مظهرا خارجيا لمسؤولية حضارة كاملة ، مسؤولية « الجذور » قبل الفروع ، ولكن الشاعر الذي لم يكن يرى في المرأة سوى فستانها وحلمة ثديها هو نفسه الذي يرى قشرة الحضارة فيظنها كل شيء وهي ليست شيئا اذا قيس بما صدرت عنه من « انظمة » اجتماعية لا يدينها بحرف بل هو في شعره يقتات من فتات موائدها الفكرية . والا فما معنى ان يكون الابحار الى « بلاد الثلج والضباب » هو المنقذ من الضلال ؟ وكيف يمكن ان يتحول النفط العربي الى خنجر من لهيب ونار في صدر العدو ما دام « يراق تحت ارجل الجواري » ؟ ان الشاعر لا يجيب ، بالرغم من ان « منطق » السؤال والجواب ، ذلك المنطق الرياضي البارد هو عماد القصيدة ولب لبابها ، فلن يستطيع باسم حرارة التجربة الشعرية ان يدعي خروج هذه المهمة عن اختصاصه ، فالوضوح والتقريرية والمباشرة هي النسيج « الفني » لابياته المنظومة نظما . وليس هناك من ينكر السلبيات المريرة التي تخنق الكيان العربي قبل الهزيمة وبعدها ، تخنقه الى درجة الموت ، تخنقه الى حد تهديد هذه الامة بالانقراض .. ولكن منذا الذي يستطيع ان يتصور هذه السلبيات وقد اختزلت الى همجية البعض منا وعبودية البعض الآخر ؟ لا بد ان ثمة حلقة مفقودة بين دكتاتورية الفرد وانسحاق الجموع ، اذا لم يمسك بها الفنان فقد أعطانا المظهر دون الجوهر ، وباعنا في سوق النخاسة بارخص الاثمان . والحل الوحيد هو الحل المؤجل الى اجل غير مسمى ، فاطفالنا هم الذين سيحملون النبر عنا « فنحن جيل القيء والزهري والسعال » وقد نسي الشاعر الحصيف ان الكروم الجيدة لا تثمر حصرما ، والعكس ايضا صحيح فالشعابين لن تلد اسماكا عظيمة . وبالتالي فقد حكم بالموت مقدما على مستقبل هذه الامة ، وليس « حديثه » عن الاطفال الانقياء الا من قبيل الايهام الكاذب . ولا زلت اؤمن بالمبدأ الفنى القائل ان ما يمكن ان يكتب شعرا لا يمكن كتابته على أي نحو آخر . ولذلك اقول ان « هوامش على دفتر النكسة » سوف تسقط من ذاكرة التاريخ لانه كان من الممكن كتابتها نثرا .. بصورة افضل .

صدرت « الهوامش » بعد الهزيمة باقل من شهرين تحك الجرح وتلعب على الوتر المشدود فلقيت رواجا مذهلا ، سواء من المعارضين لها أو المؤيدين .. ولكن مفعولها السحري اقتصر على اللحظة الاولى ، لحظة الكرب العظيم والعذاب المروع ، ثم بطل هذا المفعول لان سحر الرقية قد انتزعته منها قصائد اخرى ابعد ما تكون عن التهريج والاثارة واقرب

(*) ملاحظة من التحرير : هذا الشاعر لا يعيش في فلسطين المحتلة ، بل في الاردن .

(*) ملاحظة من التحرير : ليس لنزار قباني قصيدة بهذا العنوان، بل ان قصيدته المقصودة هي « رسالة الى جندي في السويس » .

ما تكون الى النضال والمقاومة . توقفت التعويذة كأي نواح يسقط في هاوية التشفي ، واصبح شاعرنا « نجما » لامعا يتفوق على النجم الذي كانه في القديم . واستمرأ اللعبة على نحو مختلف بعض الاختلاف ، فأقام حوارا مع « شعراء الارض المحتلة » و « القدس » و « فتح » على التوالي . هو حوار داخلي أن جاز التعبير عن « المونولوج » الذي أداره الشاعر بينه وبين نفسه ، لان الطرف الآخر المفترض لم يكن يوما « على الخط » معه .

والحوار تقليد عريق في ادب المقاومة لانه بطبيعته يميل الى النزال الملحمي ، ولكن نزار قباني جعل من حواره مع شعراء الارض المحتلة « مشجبا » يعلق عليه خطاياه ويتفرج عليها . أي سادية ، مرة اخرى ؟ ولكن لا ، ليست سادية كما نظن لاول وهلة ، بل تجديد الحك على ظهر الجرح الذي لم يندمل ، يثيره فيهيج الاشجان ويستفز المشاعر الى نوع من تمزيق النفس . ليس ندما ولكنه تشف أن يقول الشاعر في «اجمل» أبيات القصيدة :

الشعر لدينا درويش
يترنح في حلقات الذكر
والشاعر يعمل حوذيا لامير القصر
الشاعر مخصي الشفتين بهذا العصر
يمسح للحاكم معطفه
ويصب له اقداح الخمر
الشاعر مخصي الكلمات
وما اشقى خصيان الفكر

ان الخطأ القاتل في هذه المعاني التي كررها نزار في كل قصائده التالية هو خطأ مزدوج . شقه الاول هو المبالغة في تضخيم دور الفكر والشعر في الهزيمة او النصر ، وتصدر هذه المبالغة عن نظرة مثالية للدورة الجدلية بين الفكر والواقع ، نظرة تصل في استفاماتها الى درجه صوفية ترى الافكار تعاويذ سحرية والكلمات أحجبة تحمل السر . والشق الثاني للخطأ هو تعميم الظاهرة الجزئية تعميما يتناقض تناقضا جوهريا مع الصورة الشاملة . فشعراء الامير في عصرنا ليسوا هم على وجه اليقين من يؤيدون وجها ثوريا للسلطة في هذه او تلك من بلدان الوطن العربي . وانما قد يكون شاعر الامير جارية حسناء تجيد صنع الليالي الرشيدة في كلمات منظومة . فليس بالهتاف وحده يحيا شاعر الامير ، وانما بكل هزة بطن وثنية جزع وحلمة ثدي يبرع الشاعر في وصفها وتجسيدها و « هدهدة » الامير بها و « دغدغة » نظامه لها . ففي الوقت الذي كانت فيه أجساد النساء هي الديكور والابطال في دواوين نزار قباني ، كانت فلسطين بكل ما تحمله الكلمة من ظلال هي ديكور وابطال شعر الارض المحتلة . وتقوم أجساد النساء في شعر نزار بدور الهتاف لكل امير ونظام متخلف ، ولكنه الهتاف البارع المتحلل من قيود السياسة « الظاهرية » والمرتبط بأغلال « الجنس » الخارجية . أن قصيدة مدح لامير من الامراء في عصرنا الحاضر لا تأتي أكلها كما يأتيه هذا الشعر الناعم الطري الرخو فانه يستبدل « المدح » للامير بتثبيت دعائم عرشه وحمايته من « ثورات الشعوب » . والغريب حقا في حوار بين الشاعر وشعراء الارض المحتلة ان يتصور شعرهم الذي يوهمنا بأنه يتعلم منه شعرا شيطانيا كشعره . ولو أنه « سمع » في وقت مبكر عن شعرهم وتعلم في وقت مبكر من هذا الشعر لتغيرت نظرته اليهم والى الشعر . ولكنه فيما يقول لم يتعرف على الارض المحتلة وشعرائها الا مؤخرا ، فجاء التعارف سطحيا هزيلا يسيء الى قضية هؤلاء الشعراء .. فحرمات القدس انتهكت حقا ، ولكن ما شأن « المقاومة » بهذه العبارة :

وابنة دايان كمومسة
تتعهر في ظل المحراب

في مثل هذه الاسطر ـ وهي كثيرة ـ يتعرى نزار من قشرة « المناسبة » التي استغلها ابشع استغلال ، ويعود الى ديكوراته القديمة يستلهمها « مفردات العهر والهجاء والشتيمة » التي سبق له في الهوامش ان « نعاها » الينا . ولعله من أسوأ الصور التي يسوق الصهاينة الى التركيز عليها امام الرأي العام العالمي ، هي هذه الصورة التي يتقدم بها نزار طواعية واختيارا ، صورتنا كمقاتلين بالعمامة فوق الرؤوس والشيطان يعربد داخلنا . اذ كيف يستطيع ان يهضم الرأي العام العالمي ـ او الانسان في كل زمان ومكان ـ هذا الانشطار الحاد بين سخرية الشاعر بهذه « المقدسات » وحرصه عليها اذا دنستها ابنة دايان ؟ وكيف يستطيع ان يهضم حماس الشاعر للحرية الشخصية والاخلاقية ودعوته الحارة الى الاخذ بأسباب الحياة المصرية وتقاليدها « في بلاد الثلج والضباب »» ثم حماسه بنفس المقدار لاساليب العصور الوسطى وسلوك غوابر الازمان وأهل الكهوف . وهو نفس التناقض الذي يواجهه المرء في قراءته لقصيدتي « القدس » و « الاستجواب » في


نزار قباني

الاولى يقول « صليت حتى ذابت الشموع » وفي الثانية يقول :

من ربع قرن وأنا
أمارس الركوع والسجود
... ...
أمارس التشخيص خلف حضرة الامام
... ...
وهكذا يا سادتي الكرام
... ...
أعيش في حظيرة الاغنام

ولا يفتأ الشاعر يكرر نفسه الى حد الاملال ، فقصيدته «المثلون» هي احدث طبعة للهوامش ، نفس الانكار ، نفس المشاعر ، نفس اللعب على الوتر المشدود ، نفس الحك على الجرح : الفكر المهزوم والحريات المغالة والخوف المعربد وانعدام القابلية والقدرة على تجاوز المحنة والقناعة بالماضي والحاضر بغير احلام للمستقبل .. والمقاطع تردد أصداء بعضها البعض ، والقصائد قصيدة واحدة تفتتت في طريقها الى المطبعة فاصبحت كتبا براقة لامعة على احدث طراز . على ان هذا اليأس القاتل الذي يبثه نزار في القلوب بتلذذ غريب ينهار « فجأة » أمام ظاهرة الكفاح المسلح لمنظمة فتح . وعندما اقول « فجأة » لا اقصد ان الشاعر تغير ، وانما أقصد الى القول بأن « مفاجآته » هذه التي تبدأ بشعر الارض المحتلة وتنتهي برصاصات فتح تبدو في قصائده كالمعجزات الغيبية التي تهبط من السماء ولا يشارك في صنعها البشر ، الامر الذي يترتب عليه الشك العميق في أيمان الشاعر بانهيار المسرح ويأسه من اقامته من جديد . هذا هو التناقض الاكبر في قصيدة « فتح » وزميلاتها ، بل هو الشرخ الذي يدب في البناء الشعري من أسفل عتبة

المدخل حتى السطوح العلوية . هو القائل :

صراخنا أضخم من أصواتنا

وسيفنا أطول من قاماتنا

وهو أيضا القائل :

خمسين قرنا .. بكم كبرنا

وارتفعت قاماتنا

وكأن طول القامة لاحد الشعوب يظل سراً منسيا مجهولا يكتشفه الشاعر « فجأة » اذا عبر عن نفسه ـ فحسب ـ تعبيرا عاصفا مدويا . والمفروض ان وظيفة الشاعر تبدأ قبل فتح وبعدها ، تبدأ باستكشاف الطاقات الحقيقية لهذا الشعب وتشحن ـ اذا اراد صاحبها ان يكون شاعرا للمقاومة ـ العقول والارواح بوقود لا ينفد من الامل في تجاوز الهزيمة اذا كانت جذور النصر غائرة في الاعماق حقا . فليست فتح وغيرها من منظمات المقاومة المسلحة الفلسطينية ، الا « فروعا » اثمرتها جذور الشعب العربي الغائرة في أرض الفداء . اما ان تبدو الامور ـ دائما ـ كمعجزة ، فان ذلك ليس الا قصورا في الرؤية ، وتقصيرا في الفهم . والا فما معنى ان تكون جذورنا ميتة وارضنا ناضبة من الماء والهواء والغذاء ، ثم نتصور « فتح » فرعا نضرة وزهرة جميلة نبتت من نفس الجذور الميتة واثمرت من نفس التربة الخاوية ؟ ليس هذا ـ عند الشاعر ـ بمنطقي على الاطلاق ، والحل الوحيد هو اعتبارها معجزة من المعجزات . ولما كان الشاعر يبدي في كثير من هذه القصائد شكه في المعجزات ورفضه للمؤمنين بها فاننا لا نجد تبريرا لمثل قصيدة « فتح » الا بأنها ليست اكثر من « مناسبة » لا تختلف عن بقية المناسبات . هي مناسبة بكل ما تعنيه هذه اللفظة من فكر وفن . ومن الناحية الفكرية تسطيح مذهل لفكرة الثورة .

جاءت الينا « فتح »

كوردة جميلة طالعة من جرح

كنبع ماء بارد

يروي صحارى ملح

وفجأة ..

ثرنا على أكفاننا وقمنا

وفجأة .

كالسيد المسيح بعد موتنا نهضنا ..

هذه الثورة « المفاجئة » في تصور الشاعر ، يعود فيدينها ـ من الناحية الفنية ـ ادانة صريحة ، تقريرية ، منظومة ومباشرة :

ولم نزل نظن ان الله في السماء

يعيدنا لعودنا

ولم نزل نظن أن النصر

وليمة تأتي لنا

ولم يسأل نفسه بصدق : أليس هو من الذين « يظنون » أن النصر وليمة الهية ؟

ولكن تفكك أوصال القصيدة هو الذي يصل بها في خاتمة المطاف الى هذه الدرجة من التهرؤ المنهجي في بنائها وأفكارها . وليس صحيحا انه لا ينبغي محاسبة الشعر محاسبة البحث النظري ، ما دام الشعر في جوهره لا يخضع للمنطق والاقيسة النظرية . ليس صحيحا مرتين : الاولى لان ما « نتصوره » نحن من تلقائية واضطراب في البنية الشعرية العظيمة ، لا « يتحقق » فنيا الا بحساب جمالي دقيق وهندسة صارمة للصوت والصورة ، وتخطيط مسبق للحرف والكلمة وفهم عميق للوزن والموسيقى . ولا يتم الابداع بطبيعة الحال ، بآلة حاسبة او عقل الكتروني ، ولكن هذه الادوات التي أشرت اليها تترسب بالخبرة والتجربة والمعاناة في الطبقات اللاواعية من وجدان الفنان وعقله بحيث انه لا يحتاج في عملية الخلق الى درجة « الوعي الكامل » . ولكن اللاوعي في حرارته وانسيابه وتدفقه لا يغفل لحظة واحدة تلك الخبرات النامية في الاعماق ، الخبرات التي تتفاعل مع الذهن الخالق على صورة بالغة التعقيد تنعكس في احكام البناء الفني وان بدا لنا في النهاية ، تلقائيا او مضطربا . لا بد اذن من محاسبة الشاعر على الدعامات والاسس التي بنى عليها شعره ، فلربما كانت اسسا واهية قد تسببت في هذا الشرخ او ذاك من شروخ العمل الشعري التي تختلف من حيث الدرجة والنوع عن العفوية والبراءة والتلقائية والاضطراب في المبنية الشعرية العظيمة .

فالتناقضات « المقصودة » في شعر ما تختلف ـ بالقطع ـ عن التناقضات غير المحسوبة في شعر آخر . وليس صحيحا ان شعر نزار قباني يمكن معاملته ـ من هذه الزاوية ـ كأي شعر عظيم ، لانه في واقع الامر اقرب الى المنشورات الدعائية المنظومة منه الى الشعر ، فالعقلانية المسرفة والشعارات المكشوفة والكليشيهات المعدة هي الخصائص البارزة فيه ، وليس التدفق والحرارة والتلقائية . ولذلك يستوجب الحساب مرة اخرى كنثر عادي لا سبيل الى رد ما يموج فيه من تناقضات الى طبيعة الشعر .

ولا ينفي ذلك أن نزار شاعر ، وانه شاعر كبير ، ولكن خطأه الفادح انه جعل من « الهزيمة » مجرد مناسبة يقال فيها الشعر وليست تجربة عميقة الاغوار يعانيها حتى النخاع . وشعر المناسبات ـ مهما تنوعت الوانه وصوره من السياسة الى الجنس الى الوفيات الى المواليد ـ هو شعر المناسبات : اخطر سماته الفنية النظم البارد الذي يفضله النثر في معظم الاحيان ، واخطر سماته الفكرية السطحية المسرفة في التفاؤل او التشاؤم ، والمثالية ، والجزئية ، واقترانه بلحظة سريعة الزوال لا يتجاوزها الى ما هو أبعد منها . وتلك كلها صفات غاية في الوضوح عند النظرة المتانية في شعر نزار الاخير . ولكنه ـ كما قلت ـ شاعر كبير ، ولذلك تند عنه هنا وهناك نثرات صغيرة من الشعر المتألق بالحياة كالمقطع الثاني من قصيدة « فتح » :

مهما هم تأخروا فانهم يأتون ..

في حبة الحنطة .. او في حبة الليمون

يأتون في الاشجار ، والرياح ، والغصون .

. . . .

من حزننا الجميل ينبتون

اشجار كبرياء

ومن شقوق الصخر يولدون

باقة أنبياء

ليست لهم هوية

ليست لهم أسماء

لكنهم يأتون

لكنهم يأتون ..

اين هذه الكلمات من بقية مقاطع القصيدة ، بل ومن بقية قصائده كلها التي كتبها بعد العدوان ؟ هنا الايمان العميق بالجذور « مهما تأخروا » والايمان العميق بالوجود الحقيقي الشامل « الحنطة والليمون والرياح والغصون » والايمان العميق بجدلية الحياة لاثباتها « من الحزن والصخر ينبتون ويولدون » . أي أيمان عميق هذا الذي يرى في أعماق اليأس أملا ، وفي قاع الحزن فرحا ؟ وأي شعر عظيم هذا الذي تشف فيه الكلمات وترق الى حد الهمس ، تختفي المباشرة والتقريرية ، ويحل مكانها الرمز الهادىء والايماءة الذكية ، يتوارى العقل ويظهر القلب : كبيرا كبر الحياة نابضا بأدق العواطف واعظمها على السواء . في هذا المقطع وحده ، تتسع « فتح » لتصبح رمزا شاملا يتجاوز اللحظة الموقوتة والمكان المحدد الى آفاق انسانية اكثر رحابة وعمقا .

ولكن ماذا يصنع هذا المقطع اليتيم وسط الضجيج اللاهث الذي افتعله شاعرنا ، ضجيج الزفة التي صنعت منه هو الساخط على شعراء الامراء ، شاعرا لكل امير يبتغي التنفيس عن نفسه وعن نظامه والقاء التبعة كلها على « المفكرين المهزومين » ؟ وماذا يصنع هذا المقطع اليتيم اذا كان الشاعر قد نصب لنا فخا غريبا : ان نبحث عن هرة سوداء في غرفة مظلمة ؟ ان شعر نزار في الهزيمة يقع في الطرف

المقابل لشعر المقاومة ، فهو شعر تمزيق النفس والتغني بالاشكـال العجيبة التي ترسمها الدماء النازفة .

***

وعلى غير هذا النحو كان هناك شعراء آخرون صدمتهم الهزيمة حقا ، وأصابتهم بالدوار ، ولكنه دوار المشاركة الحقيقية في العذاب، وليست مشاركة التشفي واطفاء الغليل . وسوف اقتصر على نموذجين اثنين من بين عشرات التجارب الممتازة لانهما يقدمان دلالتين مختلفتين فيما نحن بصدده من حديث . والنموذجان هما شعـر فدوى طوقان وشعر معين بسيسو ، بعد الهزيمة .

لم تكن فدوى طوقان بمعزل عـن « الكارثة » قبل الخامس من يونيو ، وانما كانت المأساة في دماها تصبغ جانبا هاما مـن اشعارها بلون احمر قان . فلم تكن قصائدها في فلسطين مجرد تصيد لمناسبة من المناسبات ، وانما كانت موضوعا أساسيا من موضوعات فنها وملمحا رئيسيا لا يكتمل وجهها الشعري بدونه . وقد عاشت فدوى فلسطينية على الضفة الغربية من نهر الاردن ، أي انها كانت اقرب ما تكون مـن « الارض » أبعد ما تكون عنها . ولذلك اختلف غناؤها عن غناء شعراء الارض المقيمين فوقها ، فبينما تحددت نظرة هؤلاء فـي نطاق المعارضة للنظام العنصري ، تحددت نظرة فدوى في نطاق « الرفض » الرومانسي للواقع . انها « لا تصدق » الهول الماثل وتكتفي بتصوره كابوسا لا بد من زواله بيقظة النائم من نومه . على ذلك النحـو جاءت قصائدها « الروض المستباح ، بعد الكارثة ، مـع لاجئة في العيـد ، رقية بديوانها « وحدي مع الايام » وقصيدتها « الى المفرد السجين » فـي ديوانها « اعطنا حبا » وبلغت ذروة رومانتيكيتها في قصيدة « نـداء الارض » بديوانها « وجدتها » . وهي القصيدة التـي جسدت فيهـا « البطل الرومانتيكي » اروع تجسيم فكانت « الصورة » لا المعارضة هي البذرة التراجيدية الكامنة في اعماقه ، لانها عودة حالمـة مسلحة بحب الارض خالية الوفاض من أي سلاح يعبر عن هذا الحب بلغة لا يفهـم العدو سواها . ولذلك حين يسقط البطل على ارض الفداء قد ترسم دماؤه كلمة الحرية ولكنها لا تروي أبدا شجرتها، لانه يسقط ـ للاسف ـ بلا ثمن .

وتبدأ « نداء الارض » بفتى عربـي تشرد مـع اهله فـور وقـوع الكارثة ، تمثل يوما هذه « الارض » التي غذته مـن صدرها بالحنان ، وتمثل ربيعها وقمحها وبرتقالها ، وهاجت به فكرة العودة كلما استفزت دماءه تلك الاطياف الحبيبة .. فقال :

انغصب ارضي ؟ أيسلب حقي وأبقى أنا
حليف التشرد أصحب ذله عاري هنا
أأبقى هنا لاموت غريبا بأرض غريبة
أأبقى ؟ ومن قالها ؟ سأعود لارضي الحبيبة
بلى سأعود ، هناك سيطوى كتاب حياتي
سيحنو على ثراها الكريم ويؤوي رفاتي

تلك هي « المقدمة » التي استقامت على طول القصيدة مع خاتمتها، وقد كانت بغير شك مقدمة رومانسية تماما سواء في هبوط الفكرة من أعالي السماء كالمعجزة ، أو في فرديتها المسرفة التي تكاد الارض معهـا ان تكون ملكا شخصيا للبطل ، أو في صورها الوارفة الظلال بالقمـح والبرتقال ، او في تنفيذها بعد سؤال وجواب كاجراءات شكلية لا بـد منها لتبرير العودة . وعاد :

وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها
يعانق أشجارها ويضم لآلي حصاها
ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدا وفم
والقى على حضنها كل ثقل سنين الالم

وكانت في انتظاره بالطبع ـ وهذه هي اللقطة الواقعية الوحيـدة في القصيدة ـ رصاصتان أردتاه شهيدا على أرضه وتحقق حلمه بـأن يدفن تحت ثراها ، بل لقد نفذت هي أمره حين همس لها منذ اللحظة الاولى « هيئي مرقدي » فلفته بذراعين مشتاقتين .

هذا البطل الرومانتيكي الحالم بالعودة هـو جنيـن الفدائـي الفلسطيني في شعر فدوى طوقان الاخير .. فالفرق بينهما هو المعادل الموضوعي للفرق بين الموقف قبل الخامس من يونيو والموقف بعده . ان رومانتيكية الشاعرة لم تكن سلبا خالصا ، وانما ، وهي انعكاس لواقـع سلبي يفرز الحلم ولا يواجه التحدي ، قد استطاعت بعين زرقاء اليمامة ان ترى ما هو أبعد ، أن ترى النور من بعيد رغم الظلمة الداجية ، ان تتنبأ . والنبوءة في الشعر رؤيا غير واضحة وليست خريطة سياسية مفصلة ، تكفي فيها الايماءة الحية الفنية برمزيتها عـن الابانة المباشرة . ولئن كان البعد القومي هو البعد السائد علـى شعر فدوى ، فانهـا


معين بسيسو

لا تغفل العنصر الاجتماعي في المأساة ، ففي قصيدة لها بعنوان « مع لاجئة في العيد » تدمغ أهلهـا مـن الاغنياء وعشيرتها مـن المترفين ، قائلـة :

أختاه ، هذا العيد عيد المترفين الهانئين
عيد الالي بقصورهم وبروجهم متنعمين
عيد الالى لا العار حركهم ، ولا ذل المصير
فكأنهم جثث هناك بلا حياة أو شعور
أختاه لا تبكي ، فهذا العيد عيد الميتين .

قصدت بذلك الى القول أن ثمة حقائق اساسية فـي شعر فدوى طوقان تقودنا الى وصفه ـ قبل الهزيمة وبعدها ـ بانه شعر مقاومة . الحقيقة الاولى أنه يشكل تيارا رئيسيا في انتاجها لا مجرد مناسبة مـن المناسبات . وبالتالي فهو يتخلى فنيا عن النظم البارد لهتاف حماسي أجوف ، ويتخذ نفس السمات الجمالية التي يتحلى بها شعرها الآخر ، في الحب مثلا . والحقيقة الثانية أن صورة البطولة في شعرها قبـل يونيو ١٩٦٧ هي الجذر الوجداني لصورة هذه البطولة فـي شعرها اللاحق للهزيمة ، صورة الشهيد بلا ثمن هي أم الشهيد الفادح الثمن . والحقيقة الثالثة التي رافقت الشاعرة فـي معظم انتاجها السابـق والتالي للهزيمة هي التركيز على الوجه القومي للبطولة بغيـر اغفال لوجهها الاجتماعي . ومن مجموع هذه الحقائق نفسر البون الشاسع بين فدوى طوقان ونزار قباني من ناحيـة ، وبينها وبيـن محمود درويش وزملائه من ناحية اخرى ، فهي شاعرة « مقاومة » لا تتوقف عند حدود المعارضة ولا تتردى في هاوية الاستسلام . وانما هـي فـي مرحلتها الجديدة « تواكب » المشهد الفدائي مواكبة تكاد أن تكون تفصيلية ، لا من موقع الفلسطينية المنفية التي كانتها ، وانما مـن موقع الفلسطينية الجديدة في ظل الاحتلال . هكذا ترفض فـدوى رومانسيتها القديمة وفرديتها وبطولاتها التراجيدية واحلامها الطوبارية ، وتوجه الخطـاب

ـ التتمة على الصفحة ٥٨ ـ

عـودة الغـريب

قصة بقلم رشاد ابو شادر

أخذ يتفرس ملامحها في الجريدة ، دون أن تريم نظراته عنها ، ثم سرح بعيدا .. بعيدا .. واخذت ذاكرته تنبش بحسرة في أعماق الايام .

بعد ان انهى دراسته الجامعية في دمشق وحصل على اجازة في اللغة العربية ، تقدم لخطبتها .. كانا يقيمان في « حارة النصارى » في القدس ، يلتقيان معا في أغلب الايام حين يذهبان الى العمل ـ كانت موظفة في البنك في اريحا ، وكان هو يتعلم في مدرسة مخيم عقبة جبر قرب اريحا ـ .. في كل مطلع نهار ، تقلهما سيارة الباص من القدس الى اريحا .. وتمر الايام .. تمر قاسية عليه ، ويفكر في مخرج ، يجب مصارحتها ، نحن لسنا صغارا لنخجل من حبنا ، يسأل نفسه ، الى متى تستمر لعبة النظرات ؟

في صبيحة احد الايام انتظرها في مكان غير بعيد عن « بيتها ».. وحين اقتربت ، شعر ان قلبه يخرج من حلقه ، وجاهد كي يخرج عن صمته ، كي يثبت لهـا رجولته وصادق مشاعره .. فكر . لنبـدأ بالتحية ..

ردت عليه بهدوء . تناهى صوتها الى سمعه موسيقى عذبـة ، قصائد ربيعية واعدة . شد رأسه الى اعلى ليتملى وجهها العذب . كان وجهها القمري حزينا . عيناها العميقتا السواد تختزلان فـي غوريهما عذابات دفينة . وكأنما يراها للمرة الاولى ، وشعر تجاهها بالفة غامرة ، ودون مقدمات :

ـ آنسة وفاء .. اريد .. اريـد .. ان .. ان اتقـدم لخطبتك .. وكي لا تفلت الفرصة من يده .. أردف :

ما رأيك ؟

فسألته على استحياء :

ـ وماذا تعرف عني ؟

ـ ما أعرفه يسعدني ويرضيني .. ألسنا ابناء حارة واحدة ..

أطرقت ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة حية تلاشت مع فيض الكلمات العذبة :

ـ اتعرف انني أعيل اسرتي ..

ـ أعرف ..

قالها حميمة ، صادقة ، فيها اكبار عميق . ولتفسير رأيـه في الموضوع اضاف : ـ بامكانك الاستمرار في العمل ، وتقديم مرتبك كاملا لمساعدة اشقائك ووالدتك ..

وتذكر فرحة اسرته يوم اخبرهم بانه ينوي خطبة (وفاء) .. ثم رنت الزغاريد .. وبعدها انتدب الى الكويت ، ليعمل هناك لمـدة سنتين ..

ويتطلع الى الوجه ، ليشرب الحسرة ويقتله الالم ..

والدها استشهد في حيفا . وهي . يلقى عليها القبض فـي القدس ، بتهمة وضع المتفجرات في احدى دور السينما الاسرائيلية .. ويقرأ تحت الصورة (البطلة العربية وفاء عبد القادر أثناء محاكمتها).. ويغالب دمعة سخينة سالت على وجهه الصلب ، ثم يطوي الجريـدة ويأخذ في تجهيز سلاحه ويقول لنفسه : اليوم سأتحرك للاشتراك فـي العملية في القدس . ثم في نفس اليوم يأتيني الخبر .. ويزفـر بمرارة ..

وينتبه من شروده ، حين يفاجأ بآمر القاعدة يقف أمامه ، ناظراً اليه باستغراب :

ـ ما بالك أخ عبد المحسن ؟

ـ لا شيء البتة ..

ـ وجهك ممتقع ، كأنك تعاني سكرات الموت . أضائق أنت بسبب المهمة التي ستشارك فيها ..

ـ ابدا .. ابدا يا أخ ..

وعاد آمر القاعدة يسأله بالحاح :

ـ أخ عبد المحسن ، هل عندك امور خاصة تود اطلاعي عليهـا ..

ـ لا .. لا ابـدا ..

ـ هل أعتبرك مستعدا ؟

ـ بلا ادنى شك .

بعد أن ابتعد آمر القاعدة قليلا ، عاد بسرعة ..

ـ أخ عبد المحسن .. نسيت ..

ثم مد يده الى جيبه ، واخرج رسالة :

ـ هذه لك ..

ففض عبد المحسن الرسالة . شرع في قراءتها :

عزيزي وصديقي :

وصلتني رسالتك ، وكم سررت حين علمت انك انضممت الـى الرجال الذين يمزقون ظلام أيامنا ، ويمحون العار عن جبيننا .. وهانذا اكتب لك عما ازمعت القيام به .. ما ان وطئت اقدامي أرض الكويت ـ بعد أن خلفتك في عمان ـ حتى نشب في اعماقي صراع مرير ظـل يفترس حياتي طيلة فترة الشهور الماضية ، دون أن أعرف ما يتوجب علي فعله ، وما أن وصلت رسالتك حتى اتخذت قراري الحاسم بالعودة مع اسرتي ، للانضمام اليكم ..

تقبل تحياتي ، والى لقاء قريب في جبال السلط .

المخلص

عبـاس

طوى الرسالة،ووضعها بحركة متعبة داخل جيب قميصه العسكري الخشن ، وسرح في ذكريات حميمة مؤسية ..

اصطفوا في طابور طويل امام مكتب المنظمة . كانت السـيارات تقف مرسلة هديرها تحت شمس الكويت اللاهبة . ومن أجهـزة « الترانزستور » تتفجر اغان حماسية صاخبة . بين الفترة والاخرى يعلو صوت المذيع معلنا عن بدء المعركة ..

حملوا معهم القليل من المتاع والكثير من الامل . قال كل منهم في سره : لقد انتهت حياة الغربة ، تجلت على الوجوه فرحة غامرة طالما ظلت حبيسة في الاعماق تحت طبقة سميكة من الام الغربة والنفي .

تنبه عبد المحسن على صوت صديقه (عباس) . أخذا بعضهمـا بالاحضان :

ـ ها نحن نعود الى الوطن يا عباس .

قالها عبد المحسن بنشوة لا محدودة .

قال عباس :

ــ سنحمل السلاح ، ونساهم في المعركة . انا عائد معكم ، لن أبقى في الكويت .

بدهشة سأله عبد المحسن :

ــ واسرتك يا رجل ..

ــ سأنتظرهم في عمان ..

تحركت السيارة متثاقلة ، ثم اندفعت تنهب الدرب .. كانت القلوب تخفق ، والعيون تتطلع الى أمام كانما تحاول النفاذ من الظلام والمسافات لتصل الى أرض الوطن ..

آه يا صديقي عباس ، لم يكتمل الحلم ، تهاوى حين أعلن وقت القتال قبل وصولنا .. يومها صممت انا على البقاء . وعدت انت الى الكويت ، وظللت انا في عمان دون أن اعرف ما ينبغي علي فعله .. الاسرة والخطيبة في القدس . وعمان دائخة متعبة ، شوارعها تغص بالفارين والجنود المهزومين ..

شد عبد المحسن قامته ، سار باتجاه المغارة ليجهز سلاحه بانتظار لحظة الانطلاق .. عم الليل ثقيلا كثيف السواد .. وحول ضوء صغير اجتمعوا ، بينما أخذ قائد « الدورية » يشرح لهم طبيعة الاماكن التي سيمرون بها ، قبل الوصول الى الهدف النهائي قرب القدس .. حدث نفسه : سأصل القدس دون أن أراك يا وفاء ، ودون أن أكحل عيوني بمرأى حارتنا القديمة ..

حين أزفت الساعة تقدموا باتجاه النهر وعلى ظهورهم كانت حقائب محشوة بالمتفجرات والعتاد .. واصل عبد المحسن سيره وفي جيبه الجريدة التي تحمل صورة خطيبته ... من خلال الظلام لاح له وجهها القمري الحزين . يستمع في السكون الى آهاتها الملتاعة : آه يا قمري ، هل لامست أصابعهم جسدك . الذعتك سكائرهم وشتائمهم . قمري ، يا عذابي اشرق لحظة واحدة .. ها هي اقدامنا تعانق ارضنا بعد غياب طال . هاهو الغريب يعود حاملا النار والحقد والتحدي .. أتستطيعين رؤيتي وانت في غياهب سجونهم ؟

قذف أحدهم حجرا باتجاهه ، تنبه على الصوت ، لبث في مكانه ، ثم قبض على سلاحه بانتباه شديد ، بينه وبين رفيقه مسافة عشرة امتار ، جاهد الا يرتفع صوته :

ــ محمود .. اهناك ما يريب ؟

ــ اش .. يبدو ان العدو قريب ..

وامطرتهم الرشاشات بزخات عنيفة من جهة الشمال .. اقترب منه محمود :

ــ يبدو انهم شعروا بحركتنا . أحدنا يجب أن يشتبك معهم كي يمكن الاخرين من مواصلة السير ..

ــ أنا .. انا ساشتبك معهم ..

قالها عبد المحسن باصرار .. وزاد انهمار الرصاص ، استلقى عبد المحسن ورفيقه على الارض :

ــ محمود .. محمود ..

ــ ما بالك ..

ــ واصل السير .. واصل .. سأشتبك معهم لاحمي تقدمكم ..

وهدر مدفعه بين يديه .. كان يتنقل من مكان الى آخر كي يوحي لهم بكثرة المشتبكين معهم .. أخذت كشافاتهم ترسل ضوءها صوبه .. اخرج من حزامه قنبلة وقذفها باتجاههم .. ادرك ان النهاية وشيكة ، لكنه قرر الصمود أطول وقت ممكن كي يتمكن الرفاق من النجاة .. اشتعل الليل بالنار ، وتحول الى جحيم رهيب يضج بالموت والكراهية .. قال عبد المحسن لنفسه : لا يهمني أن اموت ، المهم ان يصلوا ، أن تدوي الانفجارات غدا .. امطروه بوابل من الرصاص ، فسره انهم يركزون باتجاهه فاسحين المجال لرفاقه بالاستمرار الى هدفهم ، الذي كان يقترب كلما ساروا .

عمان

رشاد ابو شاور

ناطور الكرم

« مات ناطور الكروم في مدينتنا قبل النكسة بأيام »

هل مات ناطور الكروم « أبو رجب »
وتلفعت عيناه بالصمت المؤبد والعتاب
هل مات ناطور الكروم وما مشى
خلف الجنازة غير زوجته العقيم
تمشي وتنسرب الدموع ولا أحد
يبكي لما حصلا
ملك الكروم النائحات
الله يسقي قبره عسلا
من أرض كنعان المليئة بالخبايا
انا لنرتكب الخطايا
حتى لننسى كل شيء آه يا ملك السهول
هو ذا يقول
وعلى سفوح مدينتي الخضراء في البلد البعيد ...
يصيح في قمم « الخليل » :
« يا ثعلب الوادي
لا تقترب منا
الفخ والصياد
في ساحل الجنة
لا تقترب منا » (١)

***

أولاد حارتنا ملائكة صغار
يمشون خلف الشيخ يقتربون منه ويهزجون :
« عمي أبا الفانوس
نوّر لي الفانوس
دع عنك مشي الليل
أخشى على الفلوس
عمي أبا الفانوس » (٢)
ويردهم بعصاه تلك مزمجرا
لا تقربوني انها جرداء
يـا أشقياء
من أين لي فلس أرتق ثوبي البالي

***

يأتيك ينتعل الاديم أديم أتربة الصخور
يأتيك يحرس في الشتاء تراب حقلك لا يثور
اللوز يملء سفحنا نوّاره الأبيض
والناس في أرض الشآم
طيـر الحمام
مـا حالهم ؟
هل ما تزال تحط فوق قبابهم ؟
أم أنت قد أنكرتنا كالآخرين
مروا وما ألقوا سلاما .. أطلقوا للريح
سيقانهم ، أواه يا كبدي الجريح
من يشتريك فأستريح .
يأتيك والرمان منتصب النهود
وعلى سلالم بيتنا رقص اليهود
« يا بائع الرمان
ورد الصبا غالي
لا تقترب منـا
أحبابنا مروا
لـم يسألوا عنا
لا تقترب منا » (٣)

***

هل مات ناطور الكروم « أبو رجب »
هل مات في شمس الربيع الساطعة
أم مات وهو يحث خطوا صادقا تحت المطر
أم أنه قد مات لما ينتظر
ايجاره في موعد الاثمار
لو كنت تدري آه يا ملك الورى
ماذا جـرى
ما مت مجروح الفؤاد .
(هل مات ناطور الكروم وما مشى
خلف الجنازة غير زوجته العقيم)
لو مت مثلك سيدي تحت المطر
قبل الثمر
« بل قبل أن يأتي الغزاة بمكرهم ...
تحت الشجر » (٤)

م. عز الدين المناصرة
القاهرة

(١ ، ٢ ، ٣) ـ تحوير لاغان شعبية شامية .

(٤) في قصة زرقاء اليمامة : يحمل الاعداء الشجر فوق رؤوسهم ... راجـع قصيدتي « زرقاء اليمامـة » ... الآداب ديسمبر ١٩٦٦ .

اضواء على
حركات الكفاح المسلح في افريقيا

بقلم حسين شعلان

الحديث عن حركات التحرر الوطنية المسلحة في افريقيا ، يعني الحديث عن نضال « الانسان الافريقي » ضد أشكال الاستعمار التي عرفها التاريخ الحديث ـ ويعرفها التاريخ المعاصر ، في صورها الثلاث : الاستعمار التقليدي (القديم) ، والاستعمار الاستيطاني (العنصري) ، والاستعمار الجديد .

ومن هنا نقول ـ دون أن نبالغ في تبسيط الامور ـ ان « الانسان الافريقي » وهو يحمل السلاح ضد أشكال الاستعمار الثلاثة هذه ، يقدم نموذجا مجسدا لنضال « انسان القرن العشرين » ضد القهر والاستغلال الاجنبي . ونضيف ان « الانسان الافريقي » ـ بذلك ـ انما يساهم مساهمة ايجابية في انجاز المهمة التي طرحتها شعوب العالم في الستينات من هذا القرن . الا وهي مهمة تصفية الاستعمار كنظام . ولا شك أن هذه المساهمة الافريقية ، سوف تترك بصماتها الواضحة على المحصلة الاخيرة لنضال « انسان القرن العشرين » من أجل هذه القضية المنتصرة برغم كل التعرجات والانتكاسات المحدودة والمؤقتة .

ومن الطبيعي ان نقول ، باننا نسلم مقدما باختلاف الظروف الموضوعية التي يحارب في ظلها « الانسان الافريقي » عن تلك التي يحارب في ظلها « انسان آسيا » أو « أنسان أمريكا اللاتينية » . ولا بد من أن نسلم بالتالي بحقيقة أن اختلاف هذه الظروف يفرض بالضرورة اختلاف بعض تاكتيكات الكفاح المسلح . ولكن ذلك كله لا يلغي اتفاقها جميعا في الهدف الرئيسي : تحرير الارض وتحرير الانسان .

المناخ الخاص :

ويمكن أن نجمل ظروف هذا المناخ الخاص بحركة الكفاح الوطني المسلح في افريقيا ، تحت عنوان عريض هو واقع « التخلف الرهيب » الذي تقوم على أرضه هذه الحركات المسلحة .. وفي مواجهته من أجل تغييره .

صحيح ان حركات التحرير المسلحة في آسيا وفي امريكا اللاتينية، تقوم ايضا في ظل ظروف من التخلف الاجتماعي والاقتصادي تعانيه شعوبها . فذلك التخلف ـ في الحالتين ـ نتاج الحكم الاستعماري ومحصلته الطبيعية وسبب انفجار الحركات الوطنية نفسها . ولكن واقع التخلف في افريقيا ، يفوق كثيراً واقع التخلف في آسيا أو في امريكا اللاتينية .

فحركات التحرير المسلحة في امريكا اللاتينية أو في آسيا ، تعيش في ظل علاقات اجتماعية أكثر تقدما من تلك التي تعيش في ظلها حركات التحرير المسلحة في أفريقيا . ففي معظم مستعمرات اسيا وامريكا اللاتينية ، حطم الاستعمار الى حد بعيد معظم الهياكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القديمة . ولكنه لم يفعل ذلك في افريقيا عن عمد .

وبينما ترتب على ذلك في آسيا وامريكا اللاتينية ، قيام مؤسسات قومية جديدة اكثر قوة من تلك القديمة .. مكنها بعد ذلك من النهوض لمواجهة الاستعمار ، ترتب على السبب نفسه ، بقاء الجوهر الاساسي للمؤسسات القومية القديمة في افريقيا في حالة من الضعف النسبي . فان تحرك بعضها في مواجهة الاستعمار ، غلب عليها طابع القصور في مواجهة أرقى اشكال مؤسسات القهر الاستعمارية .

فظاهرة القبلية ـ مثلا ـ من أهم المصاعب التي تواجه حركات التحرير المسلحة في افريقيا . اذ أن ابقاء الاستعمار عليها ـ عن عمد ـ فضلا عن اذكائه لعوامل الحزازات بينها ، نمى عنصر الولاء للقبيلة . يزيد من عبء « الولاء القبلي » على الحركة الوطنية المسلحة ، ظاهرة الدولة غير المركزية . ومن ثم يصبح « الولاء القومي » عنصراً هاما من عناصر تقديم الكفاح المسلح تسعى الاجهزة السياسية للحركات الوطنية المسلحة الى خلقه والتأكيد عليه . لقد اعتاد المواطن الافريقي ـ في هذه المناطق ـ وبفعل الخديعة الاستعمارية ـ ان يحمل سلاحه ، أيا كان نوعه ، ليواجه مع غيره من أفراد قبيلته ، أفراد قبيلة أخرى تعيش الى جواره على نفس ارض الوطن . أما أن يحمل مع غيره من قبيلة أخرى سلاحا واحداً ليقفا جنبا الى جنب في خندق واحد ، ضد عدو واحد ، فذلك ما لم يعتده الافريقي في هذه المناطق كثيراً . ومن هنا يظل عنصر « الشك » قائما بين رفاق السلاح حتى وان غلب عليهما معا عامل « الولاء القومي » . ولذلك بالتأكيد انعكاساته الضارة على الحركة العامة للكفاح المسلح .

وظاهرة الامية السائدة في افريقيا والتي تبلغ ـ مثلا ـ من بلد كغينيا « المسماة بالبرتغالية » ٩٩ ٪ ، تلعب بدون شك دوراً معوقاً للكفاح المسلح ومتطلبات خلق الكادر العسكري ـ السياسي الذي يرقى الى مستوى مهام المعركة المسلحة ضد الاستعمار . ولا يؤثر ذلك فحسب على متطلبات وجود الكادر العسكري السياسي ، وانما على احتياجات الحركة المسلحة نفسها من ضرورة توافر أطباء مثلا أو معلمين أو فنيين .. الخ .

واذا أضفنا الى ذلك على الفور ، ظاهرة عدم وجود لغة قومية واحدة يسود استخدامها في المجتمع ، في معظم الاحوال ، لادركنا بعداً آخر من مصاعب هذا الواقع . ولا شك ان لذلك تأثيره الذي لا ينكر على العمل والنشاط الدعائي للحركة الوطنية المسلحة ، سواء في الوسائل المكتوبة كالمنشورات والبلاغات العسكرية ، أو في الوسائل المسموعة كالاذاعة .

وهناك عامل آخر له تأثيره على حركات التحرر الوطني المسلحة في افريقيا . فهي تواجه ميدانا جديداً عليها . ففي آسيا مثلا ، نستطيع ان نقول أن أي حرب عصابات وطنية جديدة ، سوف تجد أمامها تراثا ضخما ثريا بالخبرات لمدارس وتجارب نضالية في حرب العصابات كتجربة ماوتسي تونج في الصين أو هو شي منه والجنرال جياب في فيتنام . وفي امريكا اللاتينية ، هناك أيضا مدرسة وتجربة كاسترو وجيفارا في كوبا ثم في بوليفيا . أما في افريقيا ، فان واقع حصول الغالبية العظمى من بلدان القارة على استقلالها السياسي بأساليب العمل السياسي أو الضغط الدولي .. وبشكل عام بأساليب غير « الحرب المسلحة » ، قد لعب دوره في عدم قيام ما يمكن أن نسميه « بمدرسة افريقية لحرب العصابات » . وهنا تبقى « تجربة الجزائر » تجربة فريدة ورائدة في افريقيا ولكن عدم صياغة تجربتها في حرب العصابات حتى الان بالاضافة الى « ظروفها الخاصة » في هذه التجربة .. قلل من انتشارها كنموذج . ومن هنا نقول ان المناضلين الجزائريين مطالبون بصياغة تجربتهم نظريا لاثراء خبرات حركات الكفاح المسلح في افريقيا . وهم بلا شك يتحملون المسئولية الاساسية في

هذا الصدد . ولكن ذلك كله لا يقلل أو يلغي من فعالية المساعدات التي قدمتها وتقدمها الجزائر للمناضلين الافريقيين .

نضيف الى هذه الظواهر ، ظاهرة تخلف بعض الديانات التي ما تزال تؤمن بها قطاعات عريضة من الجماهير الافريقية في هذه المناطق. فما تزال تنتشر حتى الان بعض الديانات الوثنية التي ترتبط بغيبيات مغالى فيها . ولهذه الظاهرة تأثيرها الضار في اعاقة حركات الكفاح المسلح . فبينما كان الامبرياليون الامريكيون والبلجيكيون والبريطانيون، يحشدون أرقى ما وصلت اليه صناعة الاسلحة الحديثة من معدات لضرب حركة الكفاح المسلح في الكونجو كينشاسا أبان حكم العميل تشومبي (بغزو الكونجو في عام ١٩٦٤) ، كانت بعض قطاعات الحركة الوطنية الكونجولية المسلحة ، تستقدم ((السحرة)) لعمل ((أحجبة)) و ((تعاويذ)) لمواجهة أحدث الطائرات الاستعمارية . والنتيجة .. في غنى عن أي تعليق أو تحليل .

وباختصار ، فان نتاج وسائل الانتاج المتخلفة وما يترتب عليها من علاقات اجتماعية متخلفة بالضرورة ، لا بد وأن تشكل عائقا من عوائق انطلاق العمل الوطني المسلح في مواجهة نتاج وسائل الانتاج الرأسمالية في قمة تطورها .

وبرغم ما في هذه الصورة من ظلال قاتمة ، فان شعاعات من التفاؤل تلقي بظلها لتبدد بعض هذه القتامة . ومرد هذا التفاؤل ، ان عمليات الكفاح الوطني المسلح نفسها في صراعها الضاري مع القوى الاستعمارية ، لا بد وأن تؤثر — بفعل عوامل رد الفعل على الاقل — على تخلي كثير من تلك القطاعات عن كل ما يعوق صراعها من أجل الحياة.. سواء في معتقداتها أو في وسائل عملها .

الكفاح المسلح .. ضد الاستعمار البرتغالي :

تعتبر انجولا وموزمبيق وغينيا ((المسماة بالبرتغالية)) وجزر الرأس الاخضر وساوتومي وبرانسيب ، آخر المستعمرات التقليدية في افريقيا . اذ تقع جميعها تحت سيطرة البرتغال التي تشكل في الوقت الحالي اكبر استعمار تقليدي يرجع الى القرن الخامس عشر .

وتبلغ مساحة هذه المستعمرات البرتغالية ٢٠٠٦٠٠٠٠ كيلو متر مربع ، أي ٢٢ ضعفا لمساحة البرتغال نفسها ، ويقيم عليها حوالي ١٢٫٨ مليون افريقي .

وما يزال الاستعمار البرتغالي يكيف سيطرته لمستعمراته الافريقية من خلال اطار متخلف بالنسبة لتطور الاستعمار العالمي وأشكاله الجديدة . فمنذ دستور ((الدولة الجديدة)) الذي وضعه سالازار في ١٩٥١ ، ثم عدله في ١٩٦٣ ، والبرتغال تعد مستعمراتها ((اقاليم فيما وراء البحار)) وجزءا من أراضي البرتغال نفسها .

والواقع أن هذا الاطار ((المتخلف)) ، محصلة موضوعية لواقع أن البرتغال نفسها تعد دولة متخلفة بالنسبة لدول أوربا . فنسبة الامية فيها تزيد على ٤٠ ٪ . ومعظم الصناعات القائمة فيها وفي مستعمراتها أجنبية . بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة العلمية اذا قلنا أن البرتغال نفسها تكاد تكون ((شبه مستعمرة)) أو هي كذلك بالفعل . ولكي لا تبدو هذه الحقيقة غريبة نذكر الحقائق الآتية :

● حتى عام ١٩٦٥ ، بلغ عدد الشركات الاجنبية العاملة في البرتغال ١٢٢ شركة امريكية وبريطانية والمانية غربية وبلجيكية وفرنسية .

● حتى نهاية عام ١٩٦٦ ، بلغت الاستثمارات البريطانية في البرتغال ما يزيد على ٩٠ مليون جنيه استرليني . وتسيطر المانيا الغربية على النسبة الكبرى من الاستثمارات الاجنبية وعلى ٥٠ ٪ من واردات البرتغال للآلات الصناعية .

● كان ميزان المدفوعات البرتغالي حتى عام ١٩٦٥ — ولمدة ٥ سنوات — في صالح المانيا الغربية بما يساوي ٢٠٠ مليون مارك .

● أقام احتكار ((ستاندارد اليكتريك)) الامريكي شركة تصنيع احتياجات جيش البرتغال العسكرية . كما أسست المانيا الغربية مصنعا آخر لنفس الغرض .

● لالمانيا الغربية ما يزيد على ١٥٠٠ جندي وضابط في البرتغال منهم ٥٠٠ يشكلون بعثة دائمة بقيادة الجنرال ف. بيكر لتدريب القوات البرتغالية ولتقديم النصح للجيش البرتغالي . ولامريكا مستشارون عسكريون في وزارة الدفاع البرتغالية .

● لامريكا قاعدة عسكرية نووية في البرتغال ولفرنسا قاعدة للصواريخ الموجهة .

● لحلف الاطلنطي قواعد وقوات عسكرية في أراضي البرتغال ، تساند النظام الفاشي القائم ضد غضب الشعب البرتغالي واحتمالات ثورته .

لكل ذلك ، فان البرتغال الاستعمارية ، تظل حتى اليوم غير قادرة على استيعاب مظاهر التطور الاستعماري الجديد ، وغير قادرة ايضا على صياغة علاقتها بمستعمراتها في اطار جديد .

ولان المستعمرات البرتغالية في افريقيا ، هي المورد الاساسي لحياة الاقتصاد البرتغالي ، فان الحكومة الفاشية القائمة في البرتغال مستعدة — كما كان يعلق سالازار — لان تقاتل ((حتى آخر رجل وحتى اخر قطرة من الدماء)) للاحتفاظ بالمستعمرات .

وذلك بالتحديد ما يدفع البرتغال — امام تنامي الحركة الوطنية المسلحة — الى العمل بكل الوسائل لاجتذاب رؤوس الاموال الاجنبية الى المستعمرات البرتغالية في افريقيا لتحقيق هدف مزدوج :

أولا : الحصول على سند مادي للحرب التي تشنها ضد الشعوب الافريقية في مقابل امتيازات لاستغلال الثروة الزراعية والمعدنية .

ثانيا : تطوير اقتصاديات هذه المستعمرات بسرعة لا تقدر هي عليها لتحقيق ارباح كبرى ولنعطي أمثلة على ذلك، نسوق ما يحدث في انجولا.

عند تحليل التجارة الخارجية لانجولا ، نجد أن الاقتصاد الانجولي مسخر لتلبية احتياجات البرتغال ودول السوق الاوربية المشتركة وبريطانيا والولايات المتحدة . ويدير المعسكر الامبريالي — عن طريق استثماراته الاحتكارية — كل قطاعات الاقتصاد الانجولي ، فتدير رؤوس الاموال الالمانية الغربية والامريكية ، انتاج الحديد . وتدير رؤوس الاموال البريطانية والبلجيكية والفرنسية سكة حديد انجولا التي تربط اقليم كاتنجا (أغنى أقاليم الكونجو كنشاسا بالمعادن) بالبحر وتدير رءوس الاموال البريطانية والبلجيكية والفرنسية انتاج الماس . وتدير رءوس الاموال الامريكية والبلجيكية انتاج البترول .

ووراء هذه المصالح الاقتصادية الامبريالية ، يكمن تفسير موقف حلف الاطلنطي من الحرب التي تشنها البرتغال ضد حركات الكفاح المسلح الوطنية في المستعمرات البرتغالية ، بزعم انها ((دفاع عن العالم الحر)) .

ويمتد هذا التحالف مع البرتغال ، الى جنوب أفريقيا وحكومتها العنصرية فلجنوب افريقيا أيضا استثماراتها الكبيرة في المستعمرات البرتغالية وخاصة في مجال انتاج الماس ، واقامة سد كابور اباسا (الذي تقدر ما سوف يقدمه من طاقة كهربائية بـ ٧٠٪ من الطاقة الكهربائية التي ينتجها السد العالي في مصر) هذا بالاضافة الى أن ١/٥ العملة الصعبة التي تحصل عليها البرتغال ترد عن طريق عمال موزمبيق الذين يعملون في جنوب افريقيا .

وفي مواجهة الاستعمار البرتغالي هذا ، والذي تسانده قوى الامبريالية العالمية والنظم العنصرية في افريقيا ، قامت الحركة الوطنية المسلحة في كل من انجولا وموزمبيق وغينيا .

لقد كان لقيام الفاشية في البرتغال عام ١٩٢٦ — بوصول سالازار الى السلطة — نتائج بعيدة الاثر في المستعمرات البرتغالية . فمع الفاشية استخدمت اكثر اشكال القهر والاستغلال عنفا . ولكنها عجزت عن اخضاع الافريقيين . بل أحدثت تأثيرات مضادة تماما . فقد خلق العنف الاستعماري الوعي الوطني ونماه . ومنذ عام ١٩٢٩ شهدت هذه المستعمرات ظهور حركات احتجاج وطنية أدت الى تأسيس روابط ذات طابع اقتصادي ونقابي . ولكنها لم تكن لتخلو من محتوى سياسي مميز.

وهكذا تاسس في تلك الفترة عدد من الجمعيات والروابط والنقابات، لعبت دورا هاما في عملية التوعية وتحديد مطالب الجماهير. ومع تصاعد نشاط هذه الجمعيات ، اكتسبت مطالب الجماهير الطابع السياسي الوطني وتبلورت التناقضات داخل هذه الجمعيات .

وكان هناك بشكل عام اتجاهان : احدهما اصلاحي يقول بالكفاح القانوني او السلمي التدريجي . والآخر ذو محتوى ثوري يرى القيام باعمال اكثر عنفا ضد القهر والاستغلال الاستعماريين .

ونتيجة للقهر الاستعماري ، سحقت كل المحاولات القانونية والسلمية . مما شجع الثوريين الذين افلتوا من الاعتقال ، على الانتقال الى العمل السري ، وقامت الاحزاب الثورية في المستعمرات البرتغالية.

انجولا .. تبدأ الهجوم :

في عام ١٩٥٣ ، تاسس ((حزب الكفاح المتحد لانجولا)) كتنظيم سري يدعو الوطنيين الى الانخراط في العمل السري والاستعداد للنضال . وفي ١٠ ديسمبر ١٩٥٦ ، تكونت ((الحركة الشعبية لتحرير انجولا)) ، في لواندا (العاصمة) من حزب الكفاح المتحد وعدد من التنظيمات الوطنية الاخرى الصغيرة وبعض الجمعيات السرية ، ودعا بيان الحركة عند تاسيسها ، الشعب الانجولي ((للكفاح الثوري من اجل تحطيم الاستعمار البرتغالي والسيطرة الامبريالية وقيام انجولا المستقلة)) . واستجابة لنداء الحركة ، قرر تنظيم ((حركة الاستقلال الوطني لانجولا)) ان يتحد مع الحركة الشعبية في عام ١٩٥٨ بعد الاتفاق على برنامج عمل موحد .

وبشكل مواز لقيام ((الحركة الشعبية ، قامت بعض التنظيمات السياسية التي ضمت عناصر المهاجرين الانجوليين - في الاساس - وخاصة المقيمين في الكونجو كنشاسا . ومن هذه التنظيمات (اتحاد شعب انجولا - حزب انجولا الديمقراطي) تكونت الجبهة الوطنية لتحرير انجولا التي اصبحت تسمى في ١٩٦٢ ((حكومة جمهورية انجولا في المنفى)) . وكان لقيام هذه التنظيمات - ثم حكومة المنفى - على ارض الكونغو كنشاسا ، آثارا سياسية انعكست على حركتها هي نفسها متاثرة بالمناخ السياسي في الكونجو وسارت على نمطه .

وفي فبراير ١٩٦١ قررت ((الحركة الشعبية لتحرير انجولا)) التحول الى الكفاح المسلح ضد الاستعمار البرتغالي . وفي ٤ فبراير هاجمت مجموعات مسلحة لها السجون والثكنات العسكرية ومحطة اذاعة لواندا ، ووجهوا نداء للبلاد باجمعها لتهب ضد الاستعمار .

وهكذا بدأ الكفاح المسلح في انجولا .

في ذلك الوقت المبكر من انفجار حركة التحرير المسلحة ، انقسم العمل المسلح فيما بين الحركة الشعبية وبين حكومة انجولا في المنفى . وطبيعي ان ينعكس ذلك على الحركة الوطنية الافريقية ككل ، وبتاثير الجناح اليميني داخل الحركة الوطنية الافريقية وغلبة الاتجاه التوفيقي ، حظت حكومة انجولا في المنفى باعتراف وتاييد منظمة الوحدة الافريقية . ولكن تطورات الاحداث ، اثبتت ان حكومة انجولا في المنفى ، لم تكن الا محاولة ((لاحتواء)) العمل الوطني المسلح في انجولا . حيث تاكدت علاقات هذه ((الحكومة)) بالدوائر الامريكية. وقد كشف عن هذه العلاقات عمليات الاغتيال التي جرت على ايدي قوات حكومة انجولا في المنفى للمناضلين من اعضاء الحركة الشعبية، وسرعان ما عدلت حركة التحرر الافريقي - بتاثير القوى التقدمية فيها - من موقفها السابق وحيث فرضت الحركة الشعبية نفسها كممثل شرعي لشعب انجولا وكفاحه المسلح من اجل التحرر .

وامام هذه الوضعية الجديدة ، تقلصت مساحة المواقع التي تسيطر عليها قوات ((حكومة انجولا)) ، الى الحجم الطبيعي اللائم لوزن هذه الحكومة السياسي . وتنحصر هذه المواقع اليوم على مساحة محدودة من الارض في شمال انجولا - خارج حدودها - على الجانب الكونجولي . وعلى العكس من ذلك ، اصبحت ((الحركة الشعبية)) تسيطر على بعض الاراضي المجاورة للواندا ، فضلا الى جبهة الشمال في كابيندا التي تمثل نقطة ارتكاز هامة ، بالاضافة الى منطقة واسعة في الشرق بعد ان تم فتح جبهة جديدة على الحدود الشرقية مع زامبيا . وبالعمل المسلح : على محور في الشمال وآخر في الوسط وثالث في الشرق ، استطاعت الحركة الشعبية لتحرير انجولا أن تحول عددا غير قليل من المناطق داخل انجولا الى ميدان حقيقي لقتال القوات البرتغالية التي وصل عددها في انجولا اليوم الى ما يزيد على ٢٠ الف جندي .

.. وغينيا :

في عام ١٩٥٦ اسس الوطنيون في غينيا ، ((الحزب الافريقي لاستقلال غينيا والراس الاخضر)) ، ليصبح الكيان التنظيمي لحركة التحرر الوطني في البلاد . وبدأ الحزب كفاحه الوطني من خلال تحريك مظاهرات الاحتجاج والمطالب وتنظيم الاضرابات التي اتسع نطاقها في عام ١٩٥٩ وخاصة بين عمال الموانيء والصيادين . وكانت خسائر الافريقيين من هذه الاضرابات ، فادحة . حيث كان الكثيرون منهم يسقطون امام رصاص القوات البرتغالية .

وفي عام ١٩٦٢ ، عقد الحزب مؤتمرا سريا في بيساو (العاصمة) واقر برنامجا للعمل الوطني على جبهتين :

- جبهة الكفاح المسلح في الريف .
- جبهة العمل السياسي في المدن .

وفي ١٩٦٣ بدأ الحزب الافريقي لاستقلال غينيا والراس الاخضر، كفاحه المسلح في الريف . وخلال ٥ سنوات ، اصبحت قوات الحزب تسيطر على مساحة تبلغ ثلث مساحة البلاد .

ولمواجهة هذا التطور الخطير ، زادت البرتغال قواتها من ١٠٠٠ جندي عام ١٩٦١ الى ٣٠ الف جندي عام ١٩٦٨ . وتعتقد قيادة الحزب ان خطة القوات البرتغالية تقوم اليوم على اساس((تنظيم عملية انسحاب مخططة الى جزر الراس الاخضر كنقطة تجمع لشن هجوم واسع وعنيف على معاقل الثوار ، ومحاولة استرداد المناطق التي حرروها)) .

.. ثم موزنبيق :

ظلت عناصر الحركة الوطنية في موزمبيق تعيش خارج حدود بلادها الى سنوات قريبة ، بفعل آثار الارهاب والقمع البرتغالي في البلاد ، واضطرارهم الى الهجرة الى البلاد المجاورة . وقد كان الوطنيون الموزمبيقيون ينشطون سياسيا من خلال الاحزاب الوطنية العاملة في كل من تنجانيقا وماوي وزامبيا . وبحصول هذه البلاد على ((الحكم الذاتي)) بدأ الوطنيون الموزمبيقيون في التفكير في خلق تنظيماتهم الوطنية المستقلة التي سرعان ما خرجت الى الوجود الفعلي بعد حصول هذه البلاد على استقلالها السياسي ، فاعلنت عن برامجها السياسية. ثم قرر حزبا اتحاد موزمبيق الوطنى الديمقراطي ، والاتحاد الوطني لموزمبيق المستقلة (اللذان تاسسا في مالاوي) نقل مقر قيادتهما السياسية في عام ١٩٦١ الى تنجانيقا التي كانت على ارضها قيادة حزب اتحاد موزمبيق الوطني الافريقي . وفي ١٩٦٢ عملت حكومتا غانا وتنجانيقا على نصيحة هذه الاحزاب بالوحدة ، وبذلتا جهودهما من اجل عقد اجتماع للقيادات الثلاثة التي وافقت في يونيو (١٩٦٢) على توحيد احزابها الثلاثة وتاسيس جبهة تحرير موزمبيق . وتبع قيام الوحدة ، عقد مؤتمر عام للجبهة ناقش ظروف موزمبيق ومشاكلها الوطنية واقر خطة الكفاح المسلح . وظلت قواعد الجبهة داخل موزمبيق تعبيء الجماهير من اجل تهيأتها للكفاح المسلح . وما ان اقامت الجبهة قواعد سياسية لها متينة داخل البلاد ودربت وحدات للقتال ، حتى اعلنت الجبهة المركزية للجبهة في ٢٥ سبتمبر ١٩٦٤ بداية الكفاح المسلح . وفي ١٩٦٨ استطاعت الجبهة - رغم حشد البرتغال لـ ٤٠ الف جندي - من ان تحرر منطقة واسعة في شمال اقليم نياسا وان تفتح جبهات جديدة في اقليم تيت بالقرب من نهر الزمبيزي حيث تجري اعمال بناء سد كاربورابسا .

ملامح مميزة ..

هكذا كانت حرب العصابات في انجولا وموزمبيق وغينيا .

حرب العصابات المسلحة الوطنية التي هي أرقى وانضج اشكال النضال الوطني في عالم القرن العشرين ، ضد الاستعمار البرتغالي بطبيعته التقليدية التي تلائم ظروف العصر ولا تقوى -استراتيجيا - على استمرار تحمل أعباء مواجهة حرب العصابات .

حرب العصابات المسلحة الوطنية ، وامامها خبرات لا تحد أثراها نضال شعوب اخرى سارت على نفس الطريق حيث انتصرت .

والاستعمار البرتغالي بطبيعته التقليدية ، وامامه طريق مسدود بتجارب فاشلة سبقه اليها كل من الاستعمار الانجليزي والبلجيكي والفرنسي وغيرهما من قوى الاستعمار القديم .

***

وسنحاول هنا أن نرصد الملامح المميزة المشتركة لحرب العصابات الوطنية في المستعمرات البرتغالية ، رغم اننا نعترف - مقدما - ما يشوب هذا الرصد من بعض التعميمات .

أولا : استراتيجية سياسية واحدة ، تسعى كل منها في بلدها الى انجاز مهامها التي تدور حول هدف : انتزاع الاستقلال السياسي وتحقيق السيادة الوطنية .

ثانيا : انتقال القيادة السياسية للعمل الوطني المسلح ، الى داخل البلاد . وبمثل ما تعكس هذه الخطوة ، حقيقة نجاح العمل المسلح في تحرير مناطق تمكنها من اتخاذ هذه الخطوة ، فانها تكفل كذلك ضمانا هاما من ضمانات حماية الحركة الوطنية من الانحراف . وبمعنى اخر يجنب قياداتها عبء الاغراءات التي غالبا ما تتوفر في المنفى وغالبا ما تؤدي بالتالي الى احتمالات المساومة أو التفريط .

ثالثا : رغم النجاحات التي حققتها حركات الكفاح المسلح - بنسب متفاوتة - الا انها جميعا ما تزال في مرحلة « الهجوم المتنقل » الذي يسعى لانزال هزائم جزئية بالعدو ، وذلك بغض النظر عن حجم الارض المحررة . أما مرحلة « الهجوم الشامل » الذي يهدف الى انزال هزيمة ساحقة ونهائية بالعدو ، فما تزال غير بادية في الافق القريب .

رابعا : ان القيادة السياسية والعسكرية لحرب العصابات في هذه البلاد ، قيادة واحدة : القيادة السياسية للحزب في كل منها . وبذلك تجنبت هذه التجارب احتمالات قيام أجهزة عسكرية ضاغطة . فالمكتب الذي يدير الكفاح المسلح وشئون الحياة في المناطق المحررة وتلك التي لم تتحرر بعد وللحزب نشاط فيها . ومن الاجهزة التابعة للمكتب السياسي ، « مجلس الحرب » الذي يسير اعمال الكفاح المسلح .

ومن هنا تبرز الاهمية الخاصة للبناء الحزبي . وليس صدفة ان تدعم الابنية الحزبية في هذه البلدان ، كلما اشتد ساعد الكفاح المسلح . ومن خلال التجربة في ساحة القتال من جهة والاحتكاك اليومي بالجماهير في المناطق المحررة من جهة أخرى ، يتربى كادر الحزب وتثرى تجربته النضالية . والدور الذي يلعبه التنظيم السياسي في هذه البلاد ، لا يقل أهمية بأي حال عن اهمية « البندقية والمدفع الرشاش » . بل هو بالفعل اهم منها لانه يوجهها جميعا من معركة الى اخرى . فالكادر العسكري - السياسي ، شيء تخلقه الحرب والحزب معا . وبدون تجارب القتال تظل امكانيات الكادر العسكري محدودة وقاصرة . أما بدون الحزب فلا يتكون الكادر السياسي على الاطلاق . ولا شك ان تدعيم أبنية الحزب أثناء القتال ، عمل لا يقل في اهميته عن بناء وتدعيم قوات جيش التحرير .

خامسا : تقدم تجارب الكفاح المسلح في هذه البلاد ، خبرات جديدة لتاكتيكات حرب العصابات في العالم . فالمألوف حتى الآن ، ان تبدأ حرب العصابات من الاطراف على الحدود لتزحف نحو الداخل. ولكن حرب العصابات هنا - وخاصة في غينيا وانجولا - تقدم نموذجا آخر مختلفا فرضته الظروف الموضوعية الخاصة . فقد بدات الضربات الاولى لحرب العصابات فيهما من الداخل ، وزحفت في غينيا الى الاطراف ، بينما تنقلت في انجولا ما بين الداخل والشمال والشرق . وقد كان لذلك تأثيره الكبير على رد فعل القوات البرتغالية التي أدهشتها هذه الضربات . فقد ظنت أن بدء الكفاح المسلح يعني قفل الحدود أولا والتركيز عليها . ولكنها فوجئت بتوالي الضربات في الداخل حتى اذا اعادت توزيع وحداتها الى الداخل ، انفجرت الضربات على الاطراف .. وهكذا .

وفي هذا المجال مارست الحركات المسلحة تاكتيكا بارعا بالعمل على تفريق قوات العدو وانتشارها بهدف اضعاف كل وحدة منها ، وبالتالي مواجهتها باعداد سابق ومتربص . فاذا ما كادت ترسي قواعد في منطقة ما ، تتحرك عناصر العمل المسلح في الداخل لتضطر قوات العدو الى التجمع والزحف نحو الداخل .. وفي هذه الحالة تحتل قوات التحرير المناطق التي أخلاها العدو أو تعمل على ذلك في ارتباط وثيق بتنشيط العمل السياسي بهدف شحذ يقظة وامكانيات سكان هذه المناطق لمنع العدو من العودة اليها .

سادسا : تتوفر لحروب التحرير في هذه البلدان ، قيادات سياسية تدرك ارتباط معركة التحرير الوطنية بقضية التطور الاجتماعي والاقتصادي . ذلك الارتباط الذي لا تفرضه فحسب طبيعة عالم اليوم وتجربة الشعوب في معركتها من أجل التحرر ، بل وتفرضه بشكل خاص تاكتيك حركة الكفاح المسلح فيها بالبدء من الداخل مما يفرض ضرورة توسيع القاعدة الجماهيرية للكفاح المسلح والحزب السياسي الذي يقوده . ومن المستحيل ان يتم ذلك الا من خلال انجاز مكاسب حقيقية بسكان المناطق المحررة . هذا ، فضلا عن ان استمرار المعركة وضمانات حماية الشعب لقوات التحرير ومساندتها - يعني حشد الجماهير حول مصالح محددة واضحة وملموسة .

ولذلك أقامت حركات الكفاح المسلح في المناطق المحررة من هذه البلدان ، أبنية سياسية واجتماعية على أسس ديموقراطية تحت قيادة الحزب ، واقتصادا وطنيا على أسس جديدة وخلق معالم سوق جديدة، كما أقامت المدارس والمستشفيات ومؤسسات الخدمات الاجتماعية ، لم يشهد السكان نظيرا لها قبل تحرير منطقتهم .

سابعا : ان المصاعب التي تواجهها الحركات الوطنية المسلحة في هذه المناطق ، تكاد تكون واحدة . فهي تعاني ضعف الامكانيات المادية (من سلاح ومال ولوازم للحرب) . وبرغم المساعدات التي تلقاها .. من المواقع التقدمية في حركة التحرر الافريقي - كالجمهورية العربية المتحدة والجزائر وتنزانيا والكونجو برازافيل بالاضافة الى دول المعسكر الاشتراكي وكوبا - الا أن مساندة حلف الاطلنطي للبرتغال ، تتطلب امكانيات مضاعفة لتلك التي تملكها أو تلقاها حتى اليوم حركة الكفاح المسلح في هذه البلدان .

ولا شك ان ضعف هذه الامكانيات المادية ، يؤثر مثلا على سلاح الدعاية لهذه الحركات المسلحة . فهي حتى اليوم لا تملك محطة اذاعة داخل الاراضي المحررة ودور مثل هذا الجهاز في العمل السياسي والعسكري غني عن البيان . كما انها لا تملك اجهزة اتصال لاسلكية جديدة بين وحداتها المنتشرة مما يؤثر على التقارير العسكرية للمعارك التي تخوضها وحدات حرب العصابات حيث تصل غالبا متاخرة ، عن طريق الترجل أساسا نظرا لصعوبة الانتقال حتى بعربات الجيب بسبب عدم وجود الطرق المعبدة وبسبب تخريب الكباري لاعاقة حركة انتقال قوات العدو .

الكفاح المسلح ضد العنصرية :

اتخذ النهب الاستعماري اشكالا متنوعة وتعددت أساليبه باختلاف البلدان التي تتعرض له وبتغير الفترة التاريخية التي يتم فيها . ومن هذه الاساليب العمل على تهجير أجناس أجنبية وزرعها في مجتمعات أخرى غريبة عنها ومدها بكل مقومات الوجود والحياة في نفس الوقت الذي يقوم فيه الاستعمار بحملة شاملة للقضاء على الشخصية الاصلية

للمستعمرة وخلق شخصية اخرى مغايرة تماما تتفق وحاجات المستوطنين الجدد وتخدم أهداف الاستعمار في محاولة لتخليد سيطرته والقضاء على اي تهديد بانبعاث الشخصية القومية .

وتسيطر العنصرية على جنوب القارة الافريقية تقريبا ، فهي تمتد من روديسيا الجنوبية في الشمال الى جمهورية جنوب افريقيا وجنوب غرب افريقيا . وبفعل حدة الصراع القائم في جمهورية جنوب أفريقيا، بفعل التطور الاقتصادي في مصلحة الاقلية العنصرية بشكل كامل وعلى حساب الافريقيين ، وبفعل قيام الحركة الوطنية فيها منذ أوائل القرن .. المعبرة عن تفجر الصراع الطبقي ، الا انها لم تشهد حرب عصابات وطنية بالمعنى المعروف . واقتصرت الكفاح المسلح الوطني ، على « اعمال التخريب » التي تقوم بين وقت وآخر ، ولكن قوة النظام العنصري وبشاعة اساليبه في القهر ، يحول دون اتساع « اعمال التخريب » الى نطاق حركة تحرير مسلحة . بينما شهد آخر عام ١٩٦٧ (في اغسطس) أولى خطوات حركة تحرير مسلحة في روديسيا.

لماذا ؟

فرغم التطور الاقتصادي لروديسيا الجنوبية ، وبطش نظام سميث العنصري بالحركة الوطنية الافريقية فيها ، الا ان روديسيا تعد أضعف حلقات النظام العنصري في جنوب القارة .

كيف ؟

● كان لرد الفعل الدولي لاقدام حكومة سميث على اعلان « الاستقلال من جانب واحد » في نوفمبر ١٩٦٥ ، باستنكار الراي العام العالمي والمنظمات الدولية لهذا « الاستقلال » غير الشرعي .. ثم موقف حركة التحرر الوطني الافريقي ومنظمة الوحدة الافريقية ، بادانة هذا الاجراء وادانة موقف بريطانيا المتواطيء والضغط عليها بقطع بعض الدول الافريقية لعلاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا ، ثم اجراءات المقاطعة الاقتصادية التي اتخذتها الامم المتحدة ــ برغم عدم فعالية هذه الاجراءات ــ نقول : كان لرد الفعل هذا آثاره الايجابية في خلق أرضية سياسية هامة لحركة ونشاط الحركة الوطنية لروديسيا .

● رغم تواطؤ بريطانيا مع حكومة سميث ، الا ان هناك واقعا لا يستطيع احد انكاره ، وهو ان هناك ثمة تناقضات بين بريطانيا وبين حكومة سميث المتمردة » . ولا شك ان لهذا التناقض ــ رغم ثانويته ــ آثاره الايجابية التي تعمل الحركة الوطنية في روديسيا على استغلالها.

● توجد بعض الخلافات بين صفوف العنصريين انفسهم داخل روديسيا . وتدور حول نقطتين اساسيتين : الموقف من بريطانيا وعلاقات روديسيا بها ، ثم الموقف من شعار « حكم الاغلبية » من الافريقيين . وتعكس هذه الخلافات ، تباين رد الفعل لاجراءات المقاطعة الاقتصادية التي اتخذتها الامم المتحدة والتي تؤثر ــ ولو بشكل محدود ــ على مصالح العنصريين وشركاتهم العاملة في روديسيا .

● موقع روديسيا الجغرافي على حدود زامبيا من جهة وهي دولة مستقلة تمد يد العون للحركة الوطنية بفعل مصالحها الاقتصادية المهددة بقيام نظام عنصري ثابت في روديسيا ، وعلى حدود موزمبيق من جهة اخرى حيث يقع جزء من اراضي الحدود هذه تحت سيطرة الحركة الوطنية المسلحة . وتعد هذه الاراضي طريقا لمساعدات تنزانيا وبقية الدول الافريقية المتحررة ، الى الحركة الوطنية في روديسيا . بينما نجد جمهورية جنوب افريقيا لا تشترك في حدود مع اية دولة افريقية مستقلة يمكن ان ينفذ الوطنيون من حدودها الى الداخل .

تجربة جديدة :

في ١٩ اغسطس ١٩٦٧ ، اذاع حزب المؤتمر الوطني لجنوب افريقيا وحزب اتحاد شعب زيمبابوي (روديسيا) ، بيانا مشتركا جاء فيه :

« .. وكرفاق سلاح ، نواجه عدوا مشتركا ، ونحارب من اجل هدف مشترك ، ونواجه مصيرا مشتركا .. فقد شكلنا قوة موحدة من حزبينا لشن هجمات مشتركة ضد العدو في كل من مواقعه ، وذلك من أجل تحرير بلدينا » .

وقبل هذا البيان بايام ، وفي ١٣ اغسطس على وجه التحديد ، كانت قوة مشتركة من ثوار الحزبين ، تعبر نهر الزمبيزي لتشن أول هجوم لحرب العصابات في روديسيا ولتفتح صفحة ناصعة لتجربة جديدة في الكفاح المسلح .

وهكذا تشهد افريقيا تجربة هامة في تاريخ حرب العصابات بان تشارك وحدات من حزبين في بلدين في عمل مسلح واحد . ولا شك ان تجربة حزبي « زابو » والمؤتمر الوطني هذه ، تعد التجسيد العملي لشعار وحدة نضال القارة في أرقى وانضج ما تكون صور هذا الشعار.

وما تزال هذه التجربة ــ برغم مرور ما يزيد عن عام عليها ــ في بداياتها الحقيقية الاولى . فمركز حركتها وقيادتها هي حدود زامبيا المطلة على روديسيا ، وتاكتيكها الاساسي هو « الضرب بسرعة والاختفاء بسرعة » لتحقيق اهداف سياسية في المقام الاول ، تسعى الى تكثيف الاحساس بالخطر لدى رجال الاعمال البيض في روديسيا والذين يترددون بعض الشيء في تاييد كل خطوات حكومة سميث ،خوفا من نتائج سياسته على استمرار مصالحهم الاقتصادية الكبيرة .

ولقد ترتب على هذه الوضعية الجديدة ، أن سارعت حكومة جنوب افريقيا بمد يد التاييد والمساندة لحكومة وقوات سميث .. هذا التاييد الذي وصل الى حد ارسال قوات تابعة لحكومة جنوب افريقيا، للعمل جنبا الى جنب مع قوات حكومة سميث .

ونظرا لحداثة التجربة ، ولحقيقة انها ما تزال في مراحل بداياتها الاولى ، فمن الصعب أن نتناولها هنا بالتقييم التفصيلي اللازم . وبرغم ذلك فان هناك تساؤلا يلح ــ بدون شك ــ على خاطر كل من يتابع تطورات هذه التجربة الا وهو :

الى اي حد يمكن ان تنجح وحدات من قومية ما في المساهمة مع وحدات من قومية اخرى في تحرير بلاد هذه الاخيرة ؟ خاصة اذا وضعنا في الاعتبار ان وحدات حزب المؤتمر الوطني هي التي تشكل الثقل الاساسي ــ حتى الان ــ في حركة الكفاح المسلح هذه .

على اي حال ، انها تجربة وليدة تستحق عناية كبرى تفوق عناية هذه السطور ــ او حتى الجهد الفردي ــ وتطرح تساؤلها هذا بشكل أكثر دقة واكثر الماما بتفاصيل لم تعرف حتى الآن .

دعوة للحذر ..

لا شك ان تحرير جنوب القارة باسره ، كسب هام وحاسم لحركة التحرر الافريقي لا يساويه الا تحرر شمال القارة ، ليصبح وسط القارة الذي ما تزال مناطق واسعة فيه تحت سيطرة الاستعمار في شكله الجديد ، بين « حصار » حركة التحرر ومن ثم تصبح استمرار سيطرة الاستعمار الجديد موضع شك .

وهنا يكمن الخطر ..

فسوف لا ترضى قوى الامبريالية العالمية ان تصل حركات الكفاح المسلح هذه الى مشارف الانتصار النهائي . وسوف تجرب احتواءها او بعضا منها . فان لم تحتوها فسوف تحشد كل ما تستطيع حتى وان فاق حشودها في الفيتنام ، لتنزل بحركات الكفاح المسلح في الجنوب ضربات قاصمة .

ومن هنا ينبغي ان يحذر مناضلو حركات الكفاح المسلح . فان لم ينتبهوا لهذا الخطر من الان ويعدوا انفسهم ــ سياسيا وعسكريا ــ لمواجهته ، فانهم قد يجدون انفسهم فجاة امام أخطار تفوق بكثير ــ بما لا يقارن ــ أخطار كفاحهم اليوم .

ان تدعيم الابنية الحزبية والمؤسسات السياسية في المناطق المحررة ، جنبا الى جنب تدعيم الابنية العسكرية ، ضمان لحماية مكاسب الحركة المسلحة .. المحقق منها اليوم والمرتقب لها في المستقبل .

الكفاح المسلح .. ضد الاستعمار الجديد :

الاستعمار الجديد محاولة تلائم عالم اليوم ، لتصدير الصراع الاجتماعي في الدول الراسمالية وتحقيق اكبر ربح على حساب قوة العمل في البلدان الخاضعة له . وللوصول الى هذا الهدف ــ الذي هو نفس هدف الاستعمار القديم ــ يجدد الاستعمار اساليبه لابقاء

البلدان المتخلفة في اطار الاقتصاد الراسمالي العالمي . وهو وان لم يكن قد نبذ نهائيا الاساليب القديمة في القهر السياسي والاقتصادي والعسكري المباشر ، الا انه لا يستطيع ان يلجأ اليها الا في حالات محدودة . وهنا يضطر الاستعمار الجديد الى ادخال تغييرات على أساليب الاستعمار القديم . فيتخلى مثلا عن بعض أشكال الاستغلال التي لا تحقق فوائد كبيرة وسريعة . وهو ايضا يقرر أشكالا جديدة للاستغلال ذات فائدة مزدوجة : فهي مصدر للارباح الطائلة ، وهي في نفس الوقت أقل استفزازا لشعوب البلاد الخاضعة لسيطرته . وهو ثالثا يتخلى عن السلطة السياسية - الاسمية - ويسلمها الى قطاعات اجتماعية لها مصالح محققة في استمرار سيطرته ونفوذه .

وفي مواجهة الاستعمار الجديد في افريقيا ، قامت تجربتان للكفاح المسلح . احداهما فشلت وصفيت ، والثانية تنسدل عليها ستائر الصمت الذي لا يفيد . الاولى قامت في الكونجو ليوبولدفيل (كنشاسا اليوم) ، والثانية في الكاميرون .

تجربة الكونجو :

تجنبا للتكرار ، نكتفي هنا بالقول ان تاريخ الكونجو - منذ مقتل لومومبا وحتى اليوم - هو محصلة الصراع بين الحركة الوطنية الكونجولية وقوى الاحتكارات العالمية من جهة ، ثم الصراع بين قوى الاستعمار العالمي بعضها البعض من جهة اخرى ، وبين هذه الصراعات فقد شعب الكونجو جوهر استقلاله الوطني ونهبت ثرواته واستنزفت طاقته وقتل الالاف من ابنائه ، بينما جنى الاستعماريون كل شيء .

لقد حققت الثورة المضادة في الكونجو - حتى الآن - نجاحا ضد قوى الحركة الوطنية المسلحة التي قامت في ١٩٦٥ ، وذلك عن طريق استخدام الاستعماريين لاعنف وأشد وسائل البطش والارهاب ضد قوات الحركة الوطنية المسلحة ، واستعانة الحكومة العميلة لتشومبي بالمرتزقة البيض المدربين على أحدث الاسلحة وتاكتيكاتها العسكرية ضد قوات من الوطنيين ضعيفة وقليلة الخبرة والمران سياسيا وعسكريا .

وقد ساعد الاستعمار الجديد على تحقيق اهدافه عددا من السلبيات التالية :

● الخلافات الشخصية بين زعماء الحركة الوطنيةالمسلحة ، والتي لعبت دورا هاما في الانتكاس بالثورة . هذه الاختلافات التي كانت مدخلا واسعا الى انحراف كثير من عناصر قيادة هذه الحركة ووقوعها صرعى امام شتى الاغراءات. (وتلك قضية سنعرض لها بعد ذلك نظرا لاهميتها واحتمالات تكرارها ما لم تحذر اسبابها قيادات حرب العصابات القائمة اليوم) .

● تردي قيادات الحركة المسلحة في آثار الخلاف الصيني السوفياتي . هذا التردي الذي حال - عام ١٩٦٥ - دون توفر الجو الصحي الملائم لوحدة قيادات حرب العصابات .

● افتقار الحركة الوطنية المسلحة ، الى زعيم قومي في مستوى متطلبات الموقف ، قادر على تجميع الصفوف . لقد كانت الحركة المسلحة الكونجوليةفي حاجة الى ((لومومبا جديد)) مستوعب لاخطاء لومومبا نفسه ، وليس في ذلك عبادة للفرد . ولكنه استجابة لحقيقة موضوعية تؤكد ضرورة دور ((الفرد التقدمي)) في ظل ظروف تاريخية محددة .

● غلبة عناصر المثقفين على قيادة تلك الحركة . ولا يعني ذلك - بشكل مباشر أو غير مباشر - عدم الاعتراف بدورهم الطليعي في مرحلة تاريخية معينة . ولكن عدم تطعيم ((حركة المثقفين)) بعناصر طبقية ثورية ، يفتح الطريق واسعا امام احتمالات الانحراف .

الكاميرون .. والحرب المنسية :

برغم استقلال الكاميرون في يناير ١٩٦٠ ، وتولي حكومة احمدو اهيدجو (زعيم حزب حركة اتحاد الكاميرون) السلطة السياسية ، الا ان البلاد لم تتخلص بعد من نفوذ الاستعمار السياسي والاقتصادي. وبرغم اعمال الاغتيال السياسي ضد قيادات حزب ((اتحاد شعب الكاميرون)) - باغتيال روبين أوم نيوب عام ١٩٥٨ ثم فيليكس موميه عام ١٩٦٠ - الا ان هذا الحزب ما زال يعمل على تنظيم شعب الكاميرون للتخلص من ((الاستعمار الجديد)) وتحقيق ((الاستقلال الحقيقي للبلاد)) على حد تعبير بيانات الحزب . واصبح حزب اتحاد شعب الكاميرون يتحمل عبء النضال من اجل هذا ((الاستقلال الحقيقي)) متخذا من الكفاح المسلح طريقا لذلك .

وقد استطاعت قوات حرب العصابات التابعة للحزب - تحت قيادة ارنست اونديه نائب رئيس الحزب ايام رئاسة موميه - ان تفتح جبهة قتال في غرب الكاميرون . وفي ١٩٦٧ قرر الحزب فتح جبهة قتال اخرى في الجنوب . ويطلق بعض الصحفيين على هذه الحرب : الحرب المنسية في افريقيا .

وينظر حزب اتحاد الكاميرون الى الحكومة القائمة في البلاد الآن على انها ((صنيعة الاستعمار العالمي وبخاصة الفرنسي)) . ويحدد اهداف فتح الجبهة الثانية بانها ((لتدعيم الكفاح المسلح في كل اراضي البلاد للتعجيل بتحقيق الاستقلال الوطني الحقيقي لشعب الكاميرون ، وبناء الحياة الجديدة للبلاد على اساس الاشتراكية العلمية)) .

ويعود في رأينا ((تقوقع)) او ((انعزال)) حركة الكفاح المسلح في الكاميرون وعدم بروزها الى عالم الضوء ، عدة اسباب نرصدها فيما يلي:

● الوضعية المعقدة لمسار حركة التحرر الافريقي من هذه المرحلة والتي فرضت عدم اثارة بعض مشاكل قد تؤثر على البقية الباقية من منظمة الوحدة الافريقية ، التي يعد الاحتفاظ بها مكسبا لا شك فيه .

● تبني هذه الحركة لما اصطلح على تسميته ((بالاتجاه او الفكر الصيني)) ، مما دفعها الى اتخاذ مواقف ((متشنجة)) من بعض المؤسسات الافريقية وخاصة منظمة الوحدة . فادى ذلك بالتالي الى عزلها عن بقية حركات الكفاح المسلح في القارة .

● ضعف هذه الحركة وعدم تمكنها بعد من احراز انتصارات تحقق لها ثقلا ملموسا في حركة الكفاح المسلح للقارة .

أخطار .. على الطريق :

نعود الآن لما سبق والمحنا اليه عند الحديث عن حركة الكفاح المسلح في الكونجو . وقد ارجأنا الحديث عنها ، نظرا لما تمثله هذه القضية من خطر عام ينبغي على حركات الكفاح المسلح في افريقيا التنبه له واتخاذ ما يلزم لعلاجه .

اننا ننظر الى حقيقة غلبة عناصر المثقفين على قيادات حركات الكفاح المسلح هذه ، باعتبارها ظاهرة موضوعية لمعطيات تاريخية صحيحة . ولكن حقيقة ضعف الانتماءات الطبقية لهؤلاء المثقفين في افريقيا الجنوبية ، نظرا للاوضاع الاجتماعية المعقدة وسيادة مفهوم ((الولاء القبلي)) ، هذه الحقيقة تمثل خطرا محتملا . كما انها تفسر لنا ظاهرة سقوط بعض القيادات - كما حدث في الكونجو - امام عديد من الاغراءات المادية .

فنزوح المثقف بامكانياته المتفوقة على امكانيات المواطن العادي ، من قلب المجتمع القبلي المتخلف ، الى الحياة السياسية باغراءات السلطة والمال وخاصة في حياة المنفى - التي غالبا ما تكون عاصمة متحضرة - يعرضه ((للانبهار)) بالحياة الجديدة ويخلق لديه تطلعات طبقية غير مشروعة وغالبا ما تتم على حساب معتقداته الفكرية والوطنية .

والمشكلة هنا ، انه برغم ايمان المثقف الثوري الافريقي في هذه المناطق ، بما قرأه عن دور الجماهير واهميته التاريخية ، الا انه في الممارسة العملية والاحتكاك اليومي لعمله الثوري ، يجد فارقا كبيرا بين ما قرأه وبين ما يراه في الواقع حيث الجماهير على درجة كبيرة من التخلف السياسي والفكري . وهنا يتضخم احساسه ((بالذات)) و ((بتفوقه)) . هذا الاحساس الذي ما لم تصقله وتنضجه تربية حزبية سليمة ، غالبا ما يسفر عن مسلك انتهازي يلوي عنق المبادىء ليبرز كل انحراف يسوغه له ((تفوقه)) او ((وضعيته الاستثنائية)) .

وهنا ، تبرز مرة اخرى ، الاهمية القصوى لدور الحزب السياسي في خلق الكادر الثوري القادر على الدفاع الملتزم عن مصالح الجماهير التي فرضت عليها السيطرة الاستعمارية تخلفا رهيبا ، دون الوقوع في براثن الانتهازية والانحراف .. والارتداد عما يؤمن به .

بطاقة للعرس الموعود

باسم رجال المقاومة العربية .. مهر العرس الموعود

(عاد الكلب الى قيئه ✱
عاد المطر الى ظمئه ..!)
هبني القدرة .. حتى أفصد من دمي لعاب اللدغه .
.. حتى ألعق ـ في الساحة ـ نار الجمره .
.. حتى أبذر وهمي في بطن الصخره .
هبني القدرة .. حتى أسترجع عيني
من خلف الاذنين ..
هبني القدرة .. حتى أصمت
.. حتى ينمو في حلق الصمت
ألف لسان يشدو بأغاني الموت .

هبني القدرة .. حتى أبكي دون دموع ..
وأعيد الى عيني ما سرقته أيدي الأمس المفجوع .
ماء الوجه الطاهر .. جف الليلة من خزيي .
لا تعتق عادي من قيد الندم المقدور .
مديون بالندم أنا .. حتى ادفع جزية دمي المرور ..
لا تبرىء جرحي .. لا تنزع من لحمي السكين .
حتى أنزعه بيدي ..
حتى أقرع سكين الجرح ـ غدا ـ بالسيف المسنون
لن تمنحني الامم المتحدة
.. ثمن دمي المسفوك !!
(ملعون من يرفع في سارية الجرح الاسود .. رايات بيضاء .)
شكرا .. شكرا يا يارنج ..!
لست مسيح العصر المنتظر ..
لن تسكت من طرفك ريح الارض الهوجاء
لن تحي أمواتي .. لن تطعم آلاف الجوعى المطرودين
.. بالارغفة الخمسة بالسمك .. وحبات التين
لن يتحول مسحوق البارود .. الى عسل وطحين .
عفوا يا يارنج .. !
سل ان شئت « الكونت برنادوت . » ..!
هبني القدرة .. حتى أفصد من دمي لعاب اللدغه
هبني القدرة .. حتى ألعق ـ في الساحة ـ نار الجمره

فالعالم لن ينسي عربي في الصحراء وفي ثلاجات الاوراق ..!
لن يسبل تحت الاجفان .. عيون العوره
العالم .. لن يصنع الشرف المفضوض
.. قطع غيار ..!
لن يلقي للوجه المرضوض
.. بعض سلام .. لن يرفع قبعة الرأس
لن أحمل في جيبي ـ فرحا ـ ذيل الحيه
والرأس هناك وراء الحائط .. ما زالت حية ..
لن أكتب صك الغفران
بمداد النابالم الناشع في الاكفان ..!
لن آكل ـ والحية ـ من طبق واحد
لن آكل باسم الحب المزعوم
تمر الحقد الناضج في تربة أمواتي
لن أشرب باسم الانخاب الدولية
لبن خنازير العصر المسموم ..!

✱✱✱

لا تبرىء جرحي .. لا تنزع من لحمي السكين !
حتى أنزعه بيدي ..
حتى أحمله كالايقونة كالاوسمة على صدري
حتى يعرف طفلي في الغد .. شاهد قبري
حتى يعرف ـ يا أمي ـ هذا التاريخ الخائن
.. أني لم أقطع يوما هذا الحبل الصدي
بين الرحم الطاهر .. والمدفع .. والثأر ..

✱✱✱

ماء الوجه الظامىء .. سوف يعود
في العرس الموعود
وغدا .. أدهن قدميك بحناء المدفع والبارود .
وغدا .. أحمل اعلامك في وجه العالم
لا تحمل شاره
.. غير دماء بكارتك الحمراء
وغصون الزيتون الخضراء

✱✱✱

هبني القدرة .. حتى أصمت ..
لا تضرب وجهي بصلاتي .
لا تضرب وجهي بصلاتي .

الاسكندرية ـ ج. ع. م.

دكتور وصفي صادق

✱ ٣ بطرس ٣ : ٣٣

حوذة لرجلٍ نصف ميت ..

قصة بقلم أحمد خلف

ليل . في غرفة مستطيلة ثمة رجل في الخامسة والعشرين من عمره . يتمدد فوق سريره الخشبي . وقبالته على الصفحة الجدارية ، تماما ، يتأرجح بندول ساعة حائطية . يهتز كخيط هزيل . مثل حبل مشنقة . يتراقص ببطء نحو جهة الشمال وبالعكس . ينتهي بانتفاخ كبطن حبلى من الاسفل . انه يضرب للمرة الثانية دقاته (البندول) في الرأس . يحدق مليا (الرجل) في المرآة الصغيرة . يبصر الوجه المشوه بسبب النابالم وقد مسخه كلية ، لم يعد في ميسوره التعرف عليه . أيصح ويكون هذا وجه رجل في الخامسة والعشرين ؟ ترى كيف سمح لهم بذلك .. بدت البثور موزعة بلا انتظام . يحس كما لو أخذ على حين غرة . قال بداخله ـ لقد باغتوني ، القوادين .. وهو يعلم انها فعلته الاولى وقد اخطأ التصويب . وكانت الاهداف معلنة . موزعة امامهم . ترى هل ترك ذهنه يهرب نحو جهة ما في العالم ؟ ولكنه يتذكر جيدا : ان الدنيا بأسرها تحولت بين اصابع القنابل والقاذفات ، الى امرأة تخلت عن كل شيء بسبب الجزع الذي سقطت فيه . تركض بسرعة جنونية باتجاه الشيخوخة . ثم الموت . سقوط نهائي في حفرة الظلام الرهيب . بالتأكيد عاش هناك بوعيه وقد مارس لعبة الدفاع قبل الهجوم وملاحقة الطائرات وهي ترمي حممها عليهم ولم يعد ليذكر اين وقف رقاص الساعة بالضبط لكن بندولها لم يصمت برهة واحدة . يطرق في المخ يضرب . يضرب : ـ بشكل تعسفي راح يستسلم لرفسات مذعورة وسط فوضى لا بشرية مستميتة في انتزاع الحكم من بين انياب الوحش . يا الهي . وحاول جهرا العودة الى الصحو الذي مارسه بصورة موفقة .. أرق الليل الماضي واضح على شواهد الوجه والعينين الصغيرتين . قال له العريف (قبل اندلاع الحرب) : ـ

احذر التفكير في شيء ما ..

قال سلمان : ـ ماذا تعني بالضبط ؟

ـ ستجد نفسك جبانا

لكني رجل مدفعي يا حضرة ...

ـ نعم ، وماذا عن الاطلاقة الاولى ؟

ـ انها لي حتما !

ـ شرط أن لا تدع ذهنك يسرح .

داخل الحفرة . فكر : ـ اني لا افكر بشيء وبقي بانتظار الاشارة لكي يطلق .. يثني ساقيه الهزيلتين تحته . يصنع منهما خطا منكسرا . وقوس جذعه ناحية الامام وحشر في ((سبطانة)) المدفع قذيفة مدهونة بالزيت .. كان الجندي الاخر يتهيأ لاعداد قذيفة جديدة تنتظر دورها في الارسال . خطابات .. خطابات (لم يعد يفصله عنهم ـ الاعداء ـ سوى هذه المسافة من الارض والهواء) . حسنا ينبغي ارسال الخطابات الساخطة : القذائف . عندما يحين زمنها الملائم . انه الان .. أما أن يبقوا بعيدين عن بعضهما ، ذلك ما يخشاه . هذه الاونة أطلق لتوه قذيفته الاولى وبركبتيه استمر يحفر أرض الحفرة الترابية . بجسمها هشة ولينة . كان يضحك حين أطلق الثانية حالما قذف الثالثة كاد يصرخ . لكنه توقف عن الحركة . ومن حوله ساد صمت كثيف . التوى على نفسه واخذ بالانين فقط . وعام في جوفه . حلقه . بلعومه ايضا قيء حار يختلط بالدم النازف من اسنانه وجبهته بينما راح بوزه يمسح تراب الحفرة .. ولعق اكثر من حفنة رمال رطبة بينما كف الجندي الآخر نهائيا : عن تنظيف القنابل وحشوها في السبطانة . لقد اعلن بصمت ان مهمته انتهت . وها هي الدنيا تنقطع دورتها عند المنتصف.

وهذه المرة أخذ يفكر بسرعة مضاعفة . ولحظها : ـ تركض امامه ((المرأة)) متجهة صوب النهر ووجد نفسه يتبعها . يلاحق ظلها المتخطي لوجوده هناك (بعد صمت المدفع وتعطيل الحرب بالنسبة له) وهي تقذف ثيابها في الهواء . ها هو ذا يصرخ بحدة أشبه بعويل مستغيث : ـ انك تتعرين . انت طالق . طالق . طالق .. لم تعد تسمعه وهي تجتاز الشارع الترابي الممتد حتى نهاية النهر الذي اختلطت ألوانه . احمر بلون الغرين . أتكون هذه دماءه ؟ ربما كان ذلك نزيفا يتخفى تحت أصوات القذائف . واستطاع ظله الراكض تحت وهج حرارة الصيف . يختلط بظلها ، ومرقت لحظة حاسمة من الجري السريع وسط المياه الملونة . أصبح في ميسوره القبض على ذراعها الايسر . وقد كفت عن قذف ثيابها في الريح . تخفي وجهها العريض بين نهديها . صرخت به : دعني أسبح في هذا النهر الجارف ..

توقف لهاثه السريع فجأة وهدأت اعصابه كما لو وضعها تحت تيار بارد . بطؤت ضربات قلبه تحت ابطه الساخن . ترى هل كانت تخدعني اللعينة . وهو يدفن المرآة الصغيرة تحت وسادته دفع مؤخرة الرأس ليستقر فوق المخدة . دخن بشراهة . ولاحقت نظراته قطع الدخان ، حيث تقع النافذة . اسند خده قليلا الى الجدار . تحسس رطوبة تسري بين أوردة الجلد ، لهذا تبسم داخله بفرح مشبوب بعاطفة ساخنة .. وكانت عربة الجنود قد تجاوزته نهائيا (قبل رحيلها وقبل اندلاع الحرب) ينظر الوجوه العديدة المتقابلة حيث الشحوب يطوف في العيون . يحسهم كما لو استهلكوا اكثر مما ينبغي . قال أحد الجنود: لعلها لن تحدث . قال سلمان : ـ معي . هل تخاطبني ؟

قال الجندي : ـ كلا . اعني الحرب .

ـ احذر ان تفكر بشيء ما .

ـ لقد ودعني اهلي حتى المعسكر .

ـ اني اكره الاهل .

ساجد امي ميتة من الحزن .

ـ ليت هذه الحرب لن تصير .

قال سلمان : ـ اني أكره الحديث .

وكانوا قد اخذوهم في الناقلات . محتضنا كل واحد منهم جراحاته وأوسمة الحرب معا . قال في داخله (بعد نهاية الحرب) آه وجهي . لقد شوهوه بالمرة . ثم وضعوه في العربة . استقر جسده فوق فراش مهترىء وقد دثروه جيدا .. أسبل ذراعيه بين جنبيه . ولم يعد ليصدر عنه أي صوت . فقط كان يحلم بزوجته الصغيرة تضع شالا أبيض فوق رأسها . يتمنى لو تخلعه ليستطيع ملامسة شعرها اللين . ليمسح أصابعه في خصلاتها الملتمعة تحت ضوء المصباح (بعد نهاية الحرب في الطريق الى العاصمة) الكهربائي ، حيث تقع الساعة الجدارية في الجهة المقابلة لنفس المصباح . حزمة من الجنود المصابين بشظايا القنابل والرصاص ، يبصرهم يلتفون حول دمائهم . وها هي الاكف والاصابع تسبح ببرك الدم الملطخ بها قاع السيارة العسكرية : ـ لم تعد صالحا للخدمة . يتأوه . ترى من أين يأتي الصوت الغامض . يخترق جدار سمعه . يمزق وعيه الان . يعيده مرة أخرى ذلك ما يحسه سلمان بشكل واضح (عبر حركة الناقلة الطويلة التي تكدس داخلها الجنود) كان الصوت يتكلم معه بخفوت وهدوء : ـ أكنت في الحرب يا سيدي ؟

ـ نعم . لقد خضتها حتى النهاية .

ـ هل هذه تجربتك الاولى ؟

ـ من أين عرفت ذلك ؟
ـ هذا واضح جدا .
يصمت قليلا وينقطع الصوت عنه . ينفتق جرح آخر داخل نسيج شرايينه المرضوضة . يظل تحت وطأة ألمها الممض . مرة أخرى يجيئه الصوت ناميا على شفرات جروحه الممزقة . يتضح الصوت أكثر يخاطبه هذه المرة بمودة ظاهرة : ـ هل تشعر بالاسف يا سيدي ؟
ـ أسألك عن لون العالم .
ـ أحمر مثل نهر من الدم .
ـ والنساء كيف عهدك بهن ؟
ـ لي زوجة واحدة .
ـ هل تحبها يا صديقي ؟
ـ انهـا زوجتي .
ـ حسنا ، والاطفال ؟
ـ لم تنجب لي منهم أحدا .
ـ أوصيك بالانتظار .

يتوقف محرك العربة الطويلة عند باب البيت وكانت قد زفرت عطسة قوية حين خرجت ثلاثة وجوه شاحبة . بعض الشيء . لكنه استطاع رؤيتها مخفية جسدها « زوجته » وراء هيكل العجوز وسحب ساقيه نحو الارض . اختلط في رأسه أكثر من وميض ساخن ، ما الذي ستقوله لي ؟ بالاحرى ماذا يجب أن أقوله أنا ؟ كل حسب سجيته . باعتقادي انت تخطىء الهدف . هل فاتت العربة من هنا . من هناك . ولكن لماذا أصفرت الوجوه الثلاثة ؟ وبصورة واضحة وعبر ضوء المصباح الخارجي للبيت تمكن من سرقة نظرة منهم . لقد بدأوا يلتصقون ببعض كما لو شعروا برعب ما . يهاجمهم . قذف ساقيه قليلا وخطا . وعبر المسافة الفاصلة بين الناقلة والبيت أراد أن يعرف لون المصفحة الاسرائيلية التي اخرسها العريف بقذيفة واحدة : تعطل صوت العالم.. وتمتم بحشرجة مؤلمة : دعوني أدخل أولا . بكت الام بين يديه وعلى نشيج صبياني بينما احتفظت الزوجة الصغيرة بشحوبها الواضح . ركضت أكثر من غمازة فوق خدها . حيث دفعت خصلة سوداء ضخمة وراء عنقها واستطاع توزيع نظراته الخائبة عليهم . الام تلتف حول نفسها . وقفت زوجته قبالته تسند كتفها الى حائط الغرفة المستطيلة يتدلى فوق راسها تماما بندول الساعة الطويل . يهتز ببطء . حبل المشنقة سائب في الريح . يتارجح الحبل الطويل ليعري الفواصل بين زمنه . كما لو يتجمع العمر دفعة واحدة مقابل لا شيء . فقط حبل أملس لساعة حائطية يتارجح بين فكي الزمان . انه زمنه هو فقط . ولم يعد يعني أحدا ما في العالم . ها هو ذا في الحاضر ايضا كما في الماضي . ساق في الحرب واخرى في الغرفة . ذهن يتوزع عند الزوايا والاركان . في الجهات الاربع حيث تنتهي أخيرا بشكلهـا البيضوي لتدور دورتها الكاملة .. وعلى وجهه أصطدمت اصابعه بالبثور التي خلفها النابالم له . وثمة صديد بارد يتساقط على هيئة قطرات لزجة بين مشطي الاسنان . وبرعبة صافية تمنى لو يدخن ، لكن ذلك اسقط من حقه وجعل جسده يتمدد فوق سريره الخشبي ، وبدأ لتوه يتنفس هواء غرفة نظيفة . ليس كما حدث في الحرب أبدا . في الحرب تعم رائحة غازات سامة ودخان كثيف . وموت سريع يجتاحهم . وحين أشار عليها ان تقترب منه ترددت باديء الامر الا انه امسك ذراعها . سحبها برفق نحوه . كانت تتكلم : ـ هل ستبقى هكذا ؟
ـ لقد منحوني مسدسا .
ـ وجسدك هل أصيب بأذى ؟
ـ حلمت بك مرتين في الحرب .
عدلت الزوجة الصغيرة من وضعها اصبحت في مواجهته مباشرة بينما ارخت ذراعيها فوق الفراش . كحبلين فضيين يتدليان امامه . قالت الزوجة الصغيرة : ـ انت متعب ، الافضل لو تصمت .
ـ سمعت اغنية رددت اسمك .
ـ ماذا ستفعل بعد الان ؟
ـ هل حدث ذلك صدفة ؟
ـ يا الهي ، أتنوي أن تبقى هكذا !
ـ تمنيت لو ترين القتل هناك .
ـ أنت تقتلني الان .
أصوات المدافع تخترق المكان . لم يعد يظهر من وجهه شيء ما . فقط كانت عيناه تنشران ظلالا من الضوء الخافت . اصوات بعيدة وقريبة تمتزج بسمعه تتكاثف . وهو ليس نائما ولا يقظا كان يتأوه بفعل جراحه واحتراق فتيلة النابالم . حيث لم يعد يتذكر سقطتها الاولى . وظلت زوجته تحدق به : ـ اني في العشرين من عمري .
ـ وكنت عارية تماما .
ـ وتريدني ابقى معك زوجة .
ـ وركضت وراءك بقوة رجل مدفعي .
ـ اني لا اطيق ذلك ابدا .
ـ وصحت بك انت طالق . طالق . طالق .
العجوز عرت امامه . الاب ظل صامتا لا يحرك طرفة عين ، بينما اختفت زوجته عنه كلية . حبل المشنقة الطويل عاود تأرجحه ثانية ليعلن دقاته الثلاث برتابة . تجسدت في عينيـه . يتدلى . يضرب الوقت في موضعه . هواء ساخن ينتشر تحت جلده . يتمشى مع دمه. وبين اصابعه المتوترة مثل خيوط قوية لنسيج من المطاط . وبارتباك شديد يستدير نحو مخدته يشد أصابعه الاربعة حول مقبض مسدسه . يطمئن لوضعه تحت الوسادة . اسرائيل ايضا كانت هناك . النابالم . مواضع الجنود . فوهات المدافع . لم يعد صالحا للخدمة . العرب مقذوفون بالقنابل الحديثة . تصير الدنيا طيرا مذعورا . يتضاعف عدد الطيور ، تتجمع حول بعضها ، لتنحدر نحو الاردن . وباتجاه الصحراء تعبر أرض الدائرة « طيور أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل». وجوه صفراء خائفة تركض نحو اللاشيء . خطرات هاربة يزداد ثقلها على سمعه . خطوات بطيئة . خطوات .
ليل . يمتد كبساط أسود . ويظل الضوء يرشح فوق جسده من الاعلى . ليس ثمة أحد معه في الغرفة رقاص الساعة يدور دورته . بندولها الطويل يهتز : يركض مع حركة الدم . مع جريانه السريع تحت جلده الضيق بين صندوق الجمجمة وصفحة الوجه المشوه مع خطوات الزوجة الصغيرة وهي تتجه نحو بطنه « خطوات » تعتلي أسفل البطن منحدرة باتجاه صدره يزداد ثقل اقدامها عليه تدوس فوق سطح لين من اللحم ، يحس كما لو سقط تحت تأثير كابوس رهيب . زنجي لعين يقبض على عنقه بقوة . يشتد التطويق مع الخطوات وهي تدوس الصدر . اصابعه تتجمع حول مقبض المسدس . يرفعه قليلا . نحو الساعة الجدارية . تتضاعف الخطوات . اقدام امرأة في العشرين من العمر لم تنجب له طفلا واحدا . يتنفس سلمان من فوضاه ، بينما تطلق فوهة المسدس اطلاقاتها الثلاثة . تخترق زجاجة الساعة الطويلة، تترك وراءها ثلاثة ثقوب عريضة تهشم الهيكل الملاصق لنظاراته ويهدأ كل شيء من حوله . بينما توقف بندول الساعة عن تأرجحه المستمر في الرأس .

حول لاعقلانية الفلسفة

بقلم الدكتور حسام محيي الدين الآلوسي

– ٢ –

ان ما ذكرته حتى الآن(*) ينعكس ليس فقط في تلوين وتقييم الفكر الفلسفي بل وفي التاريخ لهذا الفكر . فمن الطبيعي بعد ان فرضنا رابطة بين الفكر الفلسفي حسب التقسيم المعروف وبين انتاج ما قبله ، فكرا ونظاما ، أقول من الطبيعي ان ينظر الى فكرة ان الفلسفة انما بدأت مع اليونان وبطاليس بالذات في القرن السادس ق.م. نظرة ريب وانكار ، وقد ساد القول بان الفلسفة ثمرة العقلية اليونانية والاصالة اليونانية طيلة العصور القديمة والحديثة وما زال له مؤيدون ، وكان الجدل بين هذا الفريق والفريق الآخر المعاكس الذي يحاول ان يرجع الفكر اليوناني الى ما قبله لا يتعدى مقارنة الفكر اليوناني في أطوار نضجه بالفكر الشرقي القديم بابليا أو مصريا أو صينيا أو هنديا ، مع اغفال المنهج الذي سلكه جملة التطوريين ، اعني ليس فقط مقارنة الفكرين اعلاه بعضهما ببعض بل محاولة الالتفات الى الفكر البدائي ، وتدرج هذا الفكر في جميع الميادين حتى ظهور الكتابة وما بعدها .

ان الجدل بين هذين الفريقين طويل عريض ، ويكفي لهذا البحث، الذي هو ليس بحثا في مدى أصالة الفلسفة اليونانية بالدرجة الاولى ومباشرة ، بيان الخطوط العريضة : طرح ارسطو في كتابه « ما بعد الطبيعة » نظرية ان الفلسفة لا تبدأ الا على يد طاليس الملطي (٦٢٤ – ٥٤٦ق.م) (٢٨) . وتبنى هذا الراي اغلب مؤرخي الفلسفة(٢٩) وكثيرون من المختصين بالفلسفة اليونانية مثل زيلر(٣٠) وكاثلين فريمان(٣١) . ولكن الذي استطاع ان يضعه وضعا قويا هو جون برنيت(٣٢) . ومن الجدير بالذكر ان بعض مؤرخينا مثل ابن صاعد الاندلسي والشهرستاني يرون رأيا قريبا من هذا(٣٣) . وقبل أن الخص شيئا من رأي برنيت أذكر ان الخط المعاكس ابتدأ بذيوجانس اللاؤسي (القرن الثاني ق.م) فهو يرى ان أول فلسفة انما قامت عند الشرقيين، وقد دافع عن هذا الرأي الاستاذ ري في كتابه «شباب العلم اليوناني». كما حاول كورنفورد ان يرجع العلم والفلسفة اليونانية الى الاساطير(٣٤) وهذا الرأي يستمد قوته من دراسة الشعوب البدائية والحضارات القديمة(٣٥) .

يعتمد أصحاب الرأي الثاني ، على مقارنة العلوم اليونانية والفلسفة بعلوم البابليين والمصريين في الفلك والهندسة والحساب(٣٦) ، وبفلسفة الهنود والصينيين القدماء ، كما يعتمدون على وجود فكرة الخلق من الماء – وهي التي قال بها طاليس – عند البابليين والمصريين(٣٧) ، وكذلك في أساطير الخلق الكريتية متمثلة في الاله فلكانوس الذي يمثل الرطوبة والمطر(٣٨) ، وذلك منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد . كذلك يعتمدون على الربط بين فكرة الشرقيين عن القدر والعدالة ، وهذه الافكار تلعب دورا مهما في الفكر الفلسفي والفكر الاسطوري معا .

وقد دافع برنيت عن الفريق الاول القائل باصالة وفجائية الفلسفة اليونانية منكرا كل صلة لها بالحضارات الشرقية في كتابيه المشار اليهما سابقا ، وتتلخص حججه بهذا الصدد في انه ليس المهم مشابهة قول طاليس لاقوال الامم الشرقية في أن الماء هو اصل الاشياء ، بل المهم في المسالة ، والذي من جرائه عد فيلسوفا ، ومن جرائه ابتدأت به الفلسفة هو بحثه عن أصل الموجودات بحثا فلسفيا باثارة المشكلة الفلسفية لاول مرة : ما أصل الاشياء ؟ وهل يمكن ارجاعها الى شيء واحد ؟ ، اما عن علوم البابليين والمصريين فهي في رأي برنيت ذات طابع عملي ولم تصل الى الطور النظري(٣٩) . ثم ينكر أن يكون للهنود او الصينيين فلسفة متقدمة على اليونان(٤٠) . وينكر محاولة بعض اليهود والمدافعين عن الدين ، مثل فيلون(٢٥ق.م – ٤٠ ب.م) وكليمنت الاسكندري (١٥٠ – ٢١٧ ب.م) ارجاع الفلسفة اليونانية الى اليهودية ، وقد ردد قول هذين جوستين (١٠٣ – ١٦٧ ب. م) واثيناغوراس (ازدهر حوالي ١٧٧ ق. م) من المدافعين الاول عن الدين المسيحي(٤١) .

***

هذه اشارات وتلميحات الى راي الفريقين ، وهو أمر كاف ليكون صورة محدودة فن الذهن تهيؤه بعد ذلك لاستئناف ما سبق أن بدأت به ،اعني مدى صلة الفلسفة بالفكر البدائي ، وخطأ وضع تاريخ محدد معلوم نعتبره بداية للعلم او الفلسفة .

لا شك ان الحضارة اليونانية منذ القرن السادس ق.م متمثلة في الفكر الفلسفي المنظم كانت مرحلة متقدمة بلغ فيها الانسان مرحلة معقدة في التفكير وانتظامه ، ولكن من الخطأ القول بان الفلسفة وما قدمه اليونان في جميع الميادين هو ثمرة الجهد اليوناني فقط ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى من الخطأ اعتبار ان الفلسفة ، والعلم النظري قد بدءا في القرن السادس فقط . لقد اكتشفت حديثا – كما يحدثنا ديورانت(٤٢) مثلا – سلسلة الحضارات نشات في بحر ايجه اعتبارا من (٢٥٠ ق.م) وهي الحضارة الكريتية (٢٥٠٠ – ١٤٠٠ ق.م) والحضارة المسينية (١٦٠٠ – ٩٠٠ ق.م) ، والثقافة الآخية (غزا الآخيون بحر ايجه حوالي عام ١٤٠٠ ق.م) . وهذا يفيد في ايضاح نقطة مهمة في هذا الجدل وهي ان الحضارة اليونانية ليست بريقا مفاجئا في بحر من الظلمات وهي ليست كذلك « ظهورا مفاجئا يصعب تفسيره كما يرى رسل(٤٣) بدون وجه حق سوى ثقته هو وبقية مؤرخي الفلسفة بشكل عام بنظريات زيلر وبرنيت ، كما تدل اشاراتهم اليها ، وسوى ما في نظرية الاصالة اليونانية من مغازلة ودغدغة الميول القومية للمواطن الاوربي المنتمي الى الحضارة الغربية بوجه الخصوص باعتبارها وريثة لعقلية اوربية غربية مستقلة بنفسها عن حضارات الشرق واجناسه(٤٤) !

ان الحضارة اليونانية بعد القرن السادس ق.م هي سليلة حضارات موضعية متوسطة التاريخ من جهة (الكريتية ... الخ) وحضارات شرقية أقدم منها ومؤثرة فيها ، بابلية ومصرية وصينية ... الخ من جهة اخرى ، كما ان البحث التاريخي المتروي أثبت ان التقدم العلمي الفلسفي ، بل والاجتماعي والفني الذي حصل بعد القرن السادسق.م في ملطية واثينا يرجع ايضا الى تهيؤ الظروف المحلية الملائمة(٤٥) .

***

على انني ارى ان هذا الجدل ليس فاصلا ، وليس مفيدا اذا وقف عند الحدود التي اصطنعها ووقف عندها الفريقان ، واذا ظل يجري علي

---

* راجع القسم الاول من البحث في العدد الماضي من « الاداب » .

الطريقة التي نجده يسلكها عندما نقرأ كتاباً لواحد من هذا الفريق او ذاك ، ذلك ، لاننا نتحث عن اصول الفكر الفلسفي موضوعا واسلوبا، وعن اصول العلم ، واصول النظم ، والعادات والقوانين الناضجة (منذ ما بعد ظهور الكتابة أو اختراعها ،وليس فقط منذ القرن السادس ق.م) فينبغي اذن ان نسير بالتنقيب خطوات كثيرة الى الوراء ، غائرين في احقاب بالغة في القدم كلما استطعنا وامكنتنا العلوم الاجتماعية مثل دراسة الشعوب البدائية وسواها حتى يتسنى لنا عندئذ تلمس بواكير نشاطات الانسان في جميع الميادين وبذلك تتوفر لنا معلومات قيمة تخطط تنامي الفكر الانساني ، في كل المجالات ، وجزئيات تدرجه في ادراك الاشياء وتمييزها وتسميتها وفرزنتها ومعرفة خصائصها وعلاقاتها ، ومقدار ما يفيده وما يضره من البيئة التي تحيطه ودرجات تقدمه في تكيفه لها واخضاعها له . وسلوك هذا الطريق سيرينا اننا حينما سنصل الى القرن السادس ق.م ، سنجد ان ما قدمه الانسان في الاف بل ملايين سنيه عبر ابحاره الطويل هذا من أغوار ما قبل التاريخ ، في مجال تقدم العمليات الفكرية ، تجمع التجارب عن العالم الخارجي وتعرفه عليه ، النظم ، الحرف والصنائع، العقائد ، التنظيم والادارة ، والاخلاق وتطور الحكم الادبي والمقياس الخلقي ، العلوم . الخ ، اقول سنجد أن ما قدمه الانسان في هذه المجالات قبل القرن السادس ق.م من الخطورة والضخامة بحيث يبقى معه القول بان هذا البلد او ذاك او هذا الجنس او ذاك ، أو هذه الفترة القصيرة أو تلك ، أنتج العلم والفلسفة ... الخ قولا مضحكا حقا لولا يطمح القاريء في هذا الموضع الى مزيد بيان ، وساوافيه ببعض ما يشفي غليله بعد قليل .

***

وليس بامكان مجلة « كالآداب » أو سواها مهما كان صدرها رحيبا ان تتسع لتفصيلات خطوط تطور الفكر الانساني منذ كان الانسان حتى اليوم ، او على أقل تقدير حتى فترة ما يسمى عادة « ما بعد الفلسفة » اي القرن السادس ق.م فما بعده . ومع استحالة معرفة كيف كان البدائيون يعيشون ويفكرون لانقطاع ذلك وبعده عنا الا ان دراسة الجماعات البدائية التي ما زالت حتى العصور الحديثة ، وما سجله الباحثون عنها كافية لاعطاء صورة غنية التفاصيل في هذا الصدد ، حتى ان الفيلسوف الاجتماعي هوبهوز وهو يؤرخ خطوطا لنشأة وتطور الفكر البشري تجاوز في احد كتبه الثمانمائة صفحة ، وما زال في النفس شيء من حتى ، مع انه ركز كل التركيز على الجماعات البدائية وحدها تقريبا . واتمثل بهوبهوز دون غيره لانني سأستعين به كثيرا في اجلاء جوانب في العقلية البدائية وتطورها لتساعدنا على تقدير استمرارية الفكر ، وعدم امكانية تسجيل بدايات له ، وعلى مدى ما خلفه في الفلسفة عموما حتى بعد نضجها من آثار فاصلة في موضوعها وطرقها .

***

في كتابه المهم : « Morals in Evolution » (٤٦) . يقسم هوبهوز المراحل التي يمكن رسمها ـ لزيادة الفهم ـ ولاغراض التنظيم، ـ مع ان المسألة تحكمية ومصطنعة ـ ، اقول يقسم هوبهوز المراحل التي مر بها الفكر الانساني أو العقل البشري الى خمس مراحل ـ وبعض هذه المراحل ستلتقي من قريب او بعيد بمراحل اوكست كرمت الثلاث المعروفة ـ وهذه المراحل الخمس هي : ـ

١ ـ مرحلة مجتمعات ما قبل الكتابة

٢ ـ مرحلة بواكير العلم في الشرق القديم ، بابل ومصر والصين القديمة

٣ ـ مرحلة التأمل في الشرق في اطواره المتأخرة من القرن الخامس ق.م في الصين وفلسطين والهند

٤ ـ مرحلة التفكير الانتقادي المنظم في الاغريق

٥ ـ المرحلة الحديثة ابتداء من القرن السادس عشر متخذة شكلا مستقلا

ولا يلبث هوبهوز ان يجعل هذه المراحل اربعا حسب مواصفات معينة ولكن علينا ان نفهم منذ البداية انه لا يقول بالقطع اعني ان تكون هذه المراحل ذات نهايات حادة وفجائية ، بل هي على شكل خط بياني صاعد وعملية التقسيم عملية للفهم ، ونهاية كل مرحلة متصلة بما بعدها اتصالا هادئا وليس بشكل طفرة ، وستراه يؤكد على ان جذور اراء ونظم كل فترة تمتد بعيدة في المراحل التي قبلها .

قلنا انه يجعل هذه المراحل الخمس اربعا وفقا لمواصفات معينة ، فمثلا بالنسبة لنمو الفكر يقاس هذا النمو وفقا لدرجة سيطرة الانسان على الطبيعة ، سعة الفكرة ، درجة الوعي بها وهكذا ، وهذه المراحل هي:

آ ـ المرحلة السفلى ويمكن الوصول اليها من تحليل افكار المجتمعات البدائية المعاصرة ، وتتميز هذه المرحلة بما يأتي : ١ ـ التفكير ما زال في بداية تكونه ، وكذلك فان التمييز بين الاشياء لم يزل في دور التكوين وغير كاف ، ٢ ـ تستند الاستنتاجات عند البدائي على مقارات لا شعورية بين الاشياء وعلى اختلاط وتداخل افكاره عنها ، ٣ ـ لا تستند التعميمات على اساس التكنيك ، بل على اساس من وطأة العاطفة ، ٤ تسيطر الدوافع اللاشعورية على التفكير ، وليس ثمة من طريقة لضمان موضوعية الاحكام او يقينية الحقيقة ، ٥ ـ هناك دائما عوامل نفسية تشجع الانسان على ان يكون عقائده تحت ضغط الحاجة الى تبرير الاعمال التي يدفعه اليها الشعور ، وبذلك يتمون بنوع من الاحساس بالوحدة وبالراحة العقلية في المواقف المحيرة .

هذه المميزات تظهر في السحر وفي المذهب الحيوي وفي الميثولوجيا ، وما تزال موجودة وراء السطح الخارجي لتفكيرنا الحاضر.

ب ـ مرحلة الحس المشترك أو العام هنا نجد ان التفكير ما زال غير منظم وقواعد الاستنتاج الصحيح لم تتم بعد ، ولكن السلوك العملي للانسان الموازي او المواكب لهذه المرحلة الفكرية يظهر نوعا من الاستفادة من التحليل والمقارنة كما ظهر في هذه المرحلة شيء من القدرة على الفصل بين الاعتقاد وبين الرغبة كذلك فان الافكار العامة التي وصل اليها انسان هذه المرحلة كافية للربط بين الخبرات السابقة والعمل المباشر ولكن مباديء الترابط الداخلي بين الاشياء لم تحلل بعد الى اعلى من مستوى الحاجات العملية ، ولذلك فان الفكر لم يكن تأمليا ، أي ان العمليات الفكرية المتضمنة في العمل، او التي وراءه لم تمتحن طبيعتها ولا دلالاتها . وهوبهوز يستخدم اسم « الحس المشترك » لوصف حالة الفكر قبل عصر العلم والفلسفة التأمليين .

ج ـ مرحلة التصورات او التفكير التأملي المنظم : وهي المرحلة من مرحلتين وصل اليهما الانسان لاعادة تنظيم وتكوين عالم الخبرة ، وتنطبق هذه المرحلة الثانية على العلم والفلسفة التأمليين عند اليونان . وهذه المرحلة وان كانت قدمت اشياء جليلة فان الخاصية او الظاهرة البارزة المسيطرة عليها هي ان عالم الفكر والتصورات اصبح منفصلا عن عالم الواقع والخبرة ، بحيث أن الافكار والتصورات اصبحت تكون لها عالمها الخاص ، واصبح التفكير يستند على اقيسة وقواعد ومباديء تعتبر مستقلة بنفسها عما تقدمه الخبرة ، حتى لو كانت هذه الاقيسة ... لا وجود لها في عالم الخبرة والواقع. وهذه الطريقة الجدلية للوصول الى الحقيقة هي التي يسميها اوكست كومت بالمرحلة الميتافيزيقية ، وهي المرحلة التي تعقب عند الاخير « مرحلة الخرافة » وتتقدم « المرحلة الوضعية او العلمية » .

ومن المهم الا تفوتنا ملاحظة أن اشارة هوبهوز هذه الى انفصال عالم الفكر والتصورات عن عالم الواقع في هذه المرحلة يستدعي في الذهن ما ذكرناه اول هذا المقال عن « ديوي » من ان الفعاليات البشرية اتخذت طريقين : طريق التخيل ، الذي قاد الى الاسطورة والخرافة ، فالفلسفة بشكلها الكلاسيكي عند اليونان فما بعد خصوصا في المدارس

الفلسفية المثالية ، وطريق تراكم الخبرة العملية التي أثمرت كل ما حققته العلوم الطبيعية والعملية من تقدم حتى الآن .

د ـ المرحلة الرابعة ويسميها مرحلة اعادة تكوين الخبرة على أساس تجريبي : تتميز هذه المرحلة ، التي تكونت بشكل واضح منذ القرن السادس عشر للميلاد بمحاولة ارجاع الافكار الى التجارب العملية التي ولدتها والحكم على تلك الافكار على اساس درجة ما تلقي من ضوء على هذه الخبرات ، وجوهر اعادة التكوين هذه هو أن الفكر لا يهتم بالنتائج فقط ، بل وبطبيعة العمليات والتجارب التي بواسطتها تم الوصول الى النتائج ، مع الاعتراف بان الفكر قابل دائما للتغير ، وانه يتحدد بـ ويخضع في كل فترة لـ طرق وسعة الخبرة او التجربة الممكنة ، وان الافكار ما هي الا نتيجة أو نتائج لمرحلة معينة مستوية ناضجة ، ولكن جذورها تغور بعيداً في اغوار المراحل السابقة لها ـ كما سنوضح بعد قليل ـ . وهدف محاولة اعادة التكوين هذه هو ربط البناء الفكري بظروفه الخاصة . ان هذه المراحل الاربع لتطور العقل والمعرفة تقابلها مراحل أربع لتفسير تطور كل من الدين والاخلاق.

***

هذا الكلام الذي سقته ، ما زال محتاجا الى تفاصيل اخرى ، لكي نضع أيدينا على جزئيات تطور وتنامي الفكر البدائي ، واهمية ما اكتشفه او اخترعه الانسان قبل القرن السادس ق. م ، واهمية المرحلة الفكرية التي وصلها الانسان البدائي ومن جاء بعده حتى ذلك القرن ، والتي بدونها ولولاها لما وصل الانسان الى المراحل الثالثة والرابعة بعدها ، وليس هذا فقط ، بل ان توضيح جزئيات الفكر البدائي ستساعدنا على تلمس مدى ما تدين به الفلسفة التأملية ، لذلك الفكر الذي يوصف عادة بانه « ما قبل الفلسفة » من ديون ، سواء في الموضوع ، او في الشكل :

في المراحل الاولى التي يمكن الوصول اليها من حياة البدائيين تسيطر الطوطمية والسحر والمذهب الحيوي . وهذه المسائل كانت تقوم على مستوى فكري معين تتلخص اسسه على وجه الاجمال في ان الانسان في اوطأ مراحله المعروفة لدينا لم يكن يميز بين العقل والمادة، بين انسان وحيوان ونبات وجماد ، فهذه كلها كانت تعتبر عنده على مستوى واحد متقارب اكثر مما يظهر لنا ، وهي عنده متحدة بنوع من العلاقات الخفية ، وهذه الروابط هي الوسائل التي يستخدمها السحر (هوبهوس ص ٢٧٤) ، وهي التي جعلت من الممكن قيام الطوطمية .

وكان البدائي يعامل الاشياء كلها كموجودات حية ، وفي مرحلة اعلى كاشياء مسكونة بالارواح وكان البدائي يدرك ادراكا مشوها بعض روابط السببية وآثار الاشياء بعضها في بعض وان كان يخطىء التحليل والحكم فيعزوها اي يعزو تأثيرات الاشياء بعضها في بعض الى قوى خفية ، كما كان يدرك ويطبق صورة ، بل صوراً مشوهة لمبدأ الذاتية وفي هذا نجد التفسير المقنع لمزاولته لعمليات السحر على نطاق واسع . وفيما يلي تطبيقات وابعاد هذا المستوى من التفكير والفهم كما تظهر في الاسس التي تقوم عليها عمليات السحر : يمكن تمييز ثلاثة مبادىء :

الاول : هو ما يسمى Contagions Magic، والمبدأ يصاغ هكذا : « كل ما يعمل أو يؤثر في الاشياء التي تخصني فهو يؤثر في » ، فاذا كان ثمة شيئان متصلين جيدا مثل ان يكونا جزئين لشيء واحد فانهما يبقيان حتى بعد انفصالهما متحدين ـ في اعتقاد مزاول السحر ـ بحيث اننا اذا أثرنا في احدهما حصل التأثير في الآخر ، فمثلا قلامة ظفر ، او شعر مقصوص ، اذا احرق حصل التأثير في صاحب القلامة او صاحب الشعر المقصوص ، وهذا ينطبق على كل ما يعود للمرء ، اسلحته ، بقايا طعامه ، ظله ، صورته ، اسمه ، فكل هذه تقوم مقام الشخص نفسه . هذا المبدأ اذا حللناه نجد انه يعتمد على فكرة ان الهوية التي ربطت مرة بين شيئين تبقى بشكل من الاشكال مستمرة ، فالشعر المقصوص كان مرة جزء من صاحبه فان هوية ذلك الصاحب تظل في الشعر بعد قصه ايضا (هوبهوس . ص ٣٨١) .

والمبدأ الثاني للسحر : يقوم على تشويه آخر لمبدأ الذاتية ومنطوق هذا المبدأ الثاني للسحر هو : « اذا لم تستطع أن تمسك بالاشياء التي ترجع لعدوك فتستطيع على الاقل ان تجعل شبيها له او لها » وهذا الشبيه قد يكون من المعدن او الشمع او الخشب او الطين ، فاذا احرقته ، او ذوبته ، او غرزت فيه سكينا او مسامير حصل التأثير في صاحب الشبيه او في المشبه له ، ومن الامثلة على ذلك ان الانسان البدائي يحاول ان يحصل على اشعة الشمس بان يشعل النار ، أو المطربان ينث الماء على بقعة صغيرة (ص ٣٨١) ، والمبدأ هنا هو ان الاشياء المتشابهة والعمليات المتشابهة هي شيء واحد ، فرش الماء على بقعة صغيرة عند البدائي سيكون بداية لنزول المطر على نطاق واسع ، وكذلك عندما يقتل البدائي دبا واحداً أو يكرمه فكانه يقتل او كانه يكرم جميع نوع الدب ، وسواء كانت برجلين أو باربع ، فان كل ما يصيب واحداً منها يصيب جميعها لان مبدأ الذاتية كان في طوره الاول، فلم يكن من النضج بحيث يميز البدائي الافراد داخل النوع الواحد . وبنفس الطريقة يمكن جعل طوطم ما رابطة او رمزا يوحد الناس والحيوانات مثل الدببة والانسان وذلك بان يقوم الانسان (القبيلة ، او العشيرة) باكل دب من الدببة وبهذا يصبح نوع الدببة كله موجوداً في العشيرة أو القبيلة ، وبذلك يرتبطان (العشيرة والدببة) .

اما المبدأ الثالث للسحر فيتعلق برأي البدائي في الصفات التي للاشياء ، ففي الاشياء توجد قوى ومؤثرات هي سبب صفاتها وسلوكها، وهذه القوى شانها شأن الارواح تكون منفصلة عن الموضوعات والاشياء التي تعود هذه الصفات اليها ، فيمكن لذلك ان تستخدم لاغراض السحر ويمكن نقلها الى اشياء اخرى ، مثلا عندما يتقدم السن بالصينيين قديما ، يوكلون الى الفتيات الفتيات صنع ملابس الموت او الاكفان لان جزءا من فتوتهن وشبابهن سينتقل الى هذه الملابس فتؤخر موتهم ، وعلى نفس الاساس تقوم محاولة الساحر لنقل مرض او وباء الى حجر وحرقه او ابعاده في مكان آخر ، فهذا الاساس الثالث للسحر يعتبر الصفة روحا ذات تأثير ، او هي اثر لم يصبح بعد روحا ، وهكذا فهذا المبدأ يشكل حلقة وصل بين مرحلة السحر ومرحلة المذهب الحيوي .

والمهم ان السحر والمذهب الحيوي (بنوعيه) يرجعان بشكل رئيسي الى نفس المستوى العقلي لدى الانسان في اطواره السحيقة ، ففي ذهن البدائي وهو يبدأ خطواته الاولى نحو تكوين النظريات اتجاهان :

الاول : يأخذ البدائي صفات الشيء ، والظواهر المكونة للشيء (مثل المطر) ، والافكار حول الشيء بل وحتى الكلمات والاسماء التي يعبر بها عنه ، ويحولها الى موضوعات ذات وجود حقيقي مثل الاشياء التي تعود لها ، فمقولات : الجوهر ، الصفات ، او الاعراض لم تكن متميزة بعضها عن بعض آنذاك وبسبب هذا الاختلاط فان التشخيص او الشخصانية ليس هو غير حالة متطرفة ، فالشخص الحي هو ليس اكثر من موجود متعدد الجوانب والموضوعات .

الثاني : كذلك فشل الفكر البدائي في ان يبقي الاشياء متفرقة بعضها عن بعض ، فهذا الشيء ينقلب الى ذاك ، فالاناء يصير فارة او مجرا ، فهو يتعامل مع الاشياء كانها ذات هوية طبيعية واحدة دون ان يلاحظ الفروق الطبيعية بينها ، فكون هذا الشيء لي يعني عند البدائي ان شيئا مني فيه وهكذا بحرقه يحرقني . وبايجاز : لم يكن الفكر البدائي قد وصل الى التمييز بين جوهر وصفة ، صفة وعلاقة ، سبب ونتيجة ، تشابه واختلاف ، هذه التمييزات أو الثنائيات التي نجدها في الفكر المتمدن ، والتي يدركها كل طفل عمليا في الوقت الحاضر .

وعدم التمييز هذا هو اساس السحر والمذهب الحيوي (ص ٣٨٤)، واكرر ان المقولات في هذه المرحلة الواطئة تختلط في ذهن البدائي فمثلا ما هو الآن جوهر يصبح علاقة في وقت آخر ، وكذلك الصفة تصبح جوهرا ، فمع ان الافكار العامة قد كونت بالفعل في هذا الدور فانها واسعة المعنى ، وغير ثابتة عند الاستعمال (ص ٣٨٦) .

ان الحيوانات العليا وصلت الى حد من النمو العقلي لدرجة انها

تميز الموضوعات المحيطة بها وعلاقاتها الزمانية والمكانية ، وتستخدم هذا التمييز لقيادتها في سلوكها ، فهي تفهم بدرجة قوية صفات الاشياء والعلاقات بينها ، فعندما يكون الكلب عطشانا يعرف ان هناك ماء في « هذا الوعاء » وهو يعرف انني استطيع ان اسكب له منه ، وانه يستطيع ان يدفعني الى ذلك بان يجلب انتباهي ويرمز لرغبته ، كذلك فهو يستطيع ان يميز بين الاناء الصلب والماء السائل لاننا نراه يعاملهما معاملة مختلفة، ولكن ما يختص به الانسان هو انه يهتم بالصفات النوعية التي بموجبها تتمايز الاشياء ، ويوجد لها اسماء مثل « صلب » و « سائل » . وبهذا الاكتشاف والتعريف لهذه الصفات النوعية حلل العقل البشري تجاربه او خبراته الى عناصرها الاولية وبنفس العملية وفي نفس الوقت ربط الاشياء المجزءة معا ، فالصلب هو شيء يوصف به الاناء والبيت والطريق ، وهو يختلف عن الهواء والماء وعن الشكل وصفات الاناء الاخرى . فبهذه العملية المقارنة يجزيء العالم المرئي المدرك الى عناصره ويكون من هذه العناصر نظاما من الافكار . وكل فكرة تسمى باسم او بكلمة ، وكما انه توجد كلمة تعبر عن الاشياء توجد كذلك طرق للتعبير عن وظائفها وصفاتها وعلاقاتها ، وهكذا فان تجاربنا وخبراتنا اليومية تترجم الى افكار تقع ضمن مقولات معينة مألوفة ، اشياء وصفاتها ، اشخاص واعمالهم ، وظائف ، علاقات ، جواهر ، اسباب ، نتائج ، ولكن هذه المقولات لم تظهر مرة واحدة بشكل واضح تام . فقد رأينا انه مر بمرحلة واطئة لم يكن فيها قد وصل لا نظريا ولا عمليا الى التمييز بين الاشياء ، ثم تلتها مرحلة أعلى من تلك استخدم الانسان فيها هذه المقولات عمليا مدة طويلة قبل ان يصبح عارفا بها واعيا لها ، وبوضوح اتم اقول انه كان يسير في خبرته العملية وفقا لقواعد تتناسب مع تلك المقولات وان كان لم يعرفها بعد ، فهو يدرك الجواهر الحقيقية مثل الاحجار والتلول ، والناس ، والخيل ويدرك صفاتها واعمالها وخصائصها كالصلابة والطول والحركة السريعة قبل ان يكون قد سمع بكلمة جواهر ، صفات ، علاقات ، كمعان عامة . وهذه المرحلة التي عمل فيها الانسان وفقا للمقولات وان كان لم يسمها ، أو يضعها وضعا نظريا تسمى مرحلة الحس المشترك (ص ٢٨٥) .

***

ما قلناه حتى الآن يفيدنا في تحديد مسألتين : الاولى عرضية وهي متى بدأت الفلسفة ؟ ، والثانية : هي مدى صلة ما يسمى بما بعد الفلسفة (بعد القرن السادس ق. م حسب النظرية الباطلة عندنا) بما يسمى بما قبل الفلسفة (قبل القرن السادس ق. م حسب نفس النظرية) . واذا اردنا أن نجعل السؤال مرضيا عنه من جميع الاطراف قلنا ان المسألة الثانية هي : مدى ما يدين به الفكر الفلسفي المنظم لما قبله ؟ ففيما يخص النقطة الاولى يمكن الآن تقرير ما يلي ، بناء على ما قدمناه . ١ ـ أن الفكر لا يبدأ مع اليونان ، وان اليونان ، او فلاسفة اليونان على وجه الخصوص لم يكونوا بداية حلقات الفكر ، بل كانوا حلقة وسطى بعد سلسلة حلقات ظل الفكر والاخلاق والدين والفن والعلم التجريبي أو العملي تتسع فيها حلقة بعد حلقة ، ومما يدل على مغالاة نظرية الاصالة اليونانية الحقيقة التالية : وهي ان أسس التفكير وضعت في عصور ما يسمى « قبل الفلسفة » ! مثل تسمية الاشياء ، تمييز بعضها عن بعض ، معرفة خصائصها عمليا على أقل تقدير ، ادراك العلاقات فيما بينها ، كذلك فان الانسان قبل القرن السادس ق. م وهو ابتداء الفلسفة عند مخالفينا ، زاول مزاولة عملية المقولات والمبادىء المنطقية ووصلت هذه في اطوار متأخرة الى ما يدل على ادراكه لها ادراكا تاما ، يتضح ذلك في أحكامه الخلقية وقوانينه وهندسته وزراعته وبقية فنونه وحرفه ، ولم يبق لليونان سوى وضع هذه القواعد المنطقية وضعا رسميا بشكل قوانين رياضية أو منطقية ، أي وضع الشكل ، خذ مثلا مبدأ الذاتية ، لقد تعامل الناس على أساسه بشكل مشوه اول الامر (أنظر اسس السحر أعلاه) ثم أستخدموه استخداما عمليا واضحا في حضارات متأخرة قبل القرن السادس ق. م بمدة طويلة ، ثم جاء ارسطو (مع سبق بعض فلاسفة اليونان لارسطو نفسه الى هذا المبدأ ، مثل بارمنيدس (٤٧) فوضعه بشكله ألقانوني كمبدأ مستخدما الرمز ليعيد قاعدة عامة (م هو م) .

٢ ـ ونفس الشيء يقال عن العلوم التجريبية والعملية ، فهي ليست من مخترعات اليونان ، نعم قاموا بوضع الاسماء لما لم يكن له أسم ، ووصفوا الصيغ النظرية لما تم اكتشافه ومزاولته منذ آلاف السنين قبلهم . طبعا قدم فلاسفة اليونان أكتشافات جديدة (٤٨) ، كما قدم كل عصر بالنسبة للذي قبله ، فهذه سنة التطور من تجمع الخبرات، ولكن الخط العلمي (بمعنى التعامل مع الطبيعة ومحاولة اكتشافها ، وفهمها والاستفادة منها والتكيف لها ، وتجميع الخبرات ، حتى على شكل اسطوري ، او حكمي) بدأ منذ بدأ الانسان على وجه الارض ـ ان كان بدأ ـ ، ان الكشوف العلمية ، لا تقاس بمقدار ما تقدم من سيطرة على الطبيعة او ما شابه بشكل مطلق ، بل بشكل مقارن ، بمعنى ان ما يعتبر كشفا علميا او اختراعا أو سيطرة على الطبيعة ليس له مقياس واحد بل مقياس نسبي مقارن ، فان معرفة الانسان ان النار تحرق ـ واكتشاف النار بحد ذاته حدث علمي ـ ، وان النبات الفلاني يؤدي الى الموت ، تعتبر كشوفا علمية ، واهميتها للانسان الاول لا تقل عن اي اكتشاف علمي حديث ، مثل الجاذبية او قانون الاواني المستطرقة او ما شابه ، وكذلك فان اختراع المحراث ، أو استخدام النار أو الربط بين الزراعة والفصول ، او اختراع اللغة ، او العدد ، هذه الاختراعات لا تقل اهمية عن اي اختراع حديث وهي اهم من التفسير العلمي الذي قدمه اليونان للخسوف والكسوف ، او معرفتهم ان الارض كروية .. الخ

وجميع المسائل التي تبدو عندنا تافهة ، وسائل الانتاج المتأخرة ، علاقات الانتاج البدائية ، أنماط السلوك الجامدة ، النواهي ، على شكل « تابو » الملاحظات الاسطورية التي قدمها اجدادنا الاوائل عن الموجودات حولهم ، كل هذه هي التي كونت فكرنا ، من تجمعها شيئا فوق شيء ، وليس هناك اي مبرر (غير هذا الغلط في المقارنة بالانتقاص من خبرات الانسان في عصوره السحيقة) لجعل العلم او الفلسفة او « العقلانية » تبدأ في فترة معينة مقطوعة الصلة بكل ما عداها او قبلها ! يقول برنيت : ان الفلسفة عمل أثيني . فماذا يريد ؟ هناك نوعان من الفعاليات البشرية يمكن ان تطلق عليهما كلمة فلسفة.

آ ـ التصورات البعيدة عن الواقع والخبرة ، اي الموجودات الماورائية ، وهذه لم توجد عند اليونان فقط ، بل هي عندهم امتداد لفكر وتصورات الانسان البدائي ومن جاء بعده في المراحل السابقة لعصر الفلسفة عند اليونان .

ب ـ المسائل التجريبية العملية : كالعلوم الطبيعية والحرف الخ وهذه جمعية تدرجية ، بدأت مع بداية الانسان وقلنا ان كل جزئية صغيرة مثل اختراع ابرة الخياطة ، أو فكرة الخياطة ، لا تقل علمية واثرا في حياة الانسان وتطور عقليته عن فلق الذرة مع اخذ مستوى التطور والقدم الزماني بنظر الاعتبار في هذه المقارنة .

٣ ـ تعيين المشاكل والموضوعات للفكر البشري ، نعم لقد عين الفكر البدائي المسمى « ما قبل الفلسفة » الموضوعات الاجتماعية والدينية والميتافيزيقية وغيرها ، وفرض ذلك الفكر ـ بما وصل اليه من نظم واخلاق وطبقات ، وحرف وفنون ، وثنائية بين المرأة والرجل ، وبين المادي واللامادي ، وبين الطبيعي وما وراء الطبيعي .. الخ ـ أثره على الفلاسفة اليونان ومن جاء بعدهم ، وحدد آفاق تفكيرهم ودرجات وعيهم لما يحيط بهم ، أن العبودية ، والطبقات ، وتخلف المرأة ، والحروب ، والخضوع لقوى خارقة ، والتصورات الخرافية عن الموت والخلود والعوالم الاخرى والتناسخ والولادات الجديدة ... الخ والآلات المستعملة في الزراعة وسواها وغير هذا وذاك ما هو الا تركة عصور ما تسمى قبل الفلسفة تسلمتها عنها الفلسفة اليونانية ومن جاء بعدها ، وتكفي مقارنة فكر افلاطون او ارسطو بهذه المسائل لندرك عظم التركة وخطورتها ، صحيح أننا سنجد التعابير مختلفة ، والمنهج مختلفا ، والموضوعات مرتبة ، وكل الجزئيات موضوعة بشكل منسق منسجم ضمن فلسفة موحدة أو هيكل موحد ، الا ان الخبير ، الذي يفتش عن الجواهر

لا عن المظاهر ، سيجد ان معظم جزئيات وموضوعات ، بل وحتى اهداف فلسفة سقراط وافلاطون ، وارسطو ـ وهم اعمدة الفلسفة المثالية ـ حتى الآن تقريبا وعنوان نضج الفلسفة اليونانية وتكاملها عند معظم المؤرخين ، هي نفس معظم جزئيات وموضوعات واهداف الفكر البدائي ((وما قبل الفلسفة)) .

ويمكن القول على وجه التعميم لا الحصر ان الفلسفة اليونانية لم تفعل سوى ان تمنطق وتنظم نفس القضايا والمشاكل التي اوجدها وتصورها وزاولها من كان قبلها معتمدة على التسليم بهذه القضايا والمقدمات مثل : وجود النفس ، القوى العليا والالهه ، الاله الواحد ، العالم الآخر ، ولم يشذ الا قلة من فلاسفة اليونان عن هذا الخط ، ـ واعتبار هؤلاء القلة متخلصين من هذا التأثير تخلصا تاما ما زال موضوع اخذ ورد من المؤرخين (٤٩) ـ .

***

ان من الخير ـ دفعا للالتباس وزيادة في التفاهم بيني وبين القارىء ـ أن اشير باجمال الى أهم بقايا ما قبل الفلسفة فيما يسمى بما بعد الفلسفة ، ابتداء باليونان ، على سبيل التخطيط والتمثيل لا الحصر ، فان تعداد تفاصيل وكل آثار وبقايا الفكر البدائي وما بعده في فكر اليونان ومن جاء بعدهم امر اخطر من ان تتوفر له امكانياتي الضئيلة . وعلى كل حال فمن الخير أن نقنع بما عندنا من أشياء واضحة وبقايا ناطقة على عظم التأثير والتأثر ، هذه البقايا هي :

١ ـ الثنائية بين النفس والبدن ، فكرة ان النفوس تعبر حدود الزمان والمكان ، وانها بسيطة وخالدة ولا مادية ، فكرة وجودها قبل الجسم ، فكرة خطيئتها ، وفكرة الخطيئة بصورة عامة ، تلبسها بالجسد ، فكرة التطهير وخلاصها بعد الموت ، رجوعها الى عالمها الاول الروحي ، فكرة العالم الآخر بكل اشكاله .

هذه الثنائية خلاصة لتطور طويل حصل متدرجا متناميا منذ بدأ الانسان البدائي السحر والحيوية حتى وصل من خلال محاولات تكميل صورته عن النفس الى اعطائها كل الصفات التي تتجاوز حدود الامكانيات الطبيعية وامكانيات الجسد وحاجات الانسان (وربما عدت الى تفصيل هذا في المستقبل) ، وهذا كله انما يدل على ما يسمى ((بالنفس)) او ((بالروح)) ليس هو موجودا ميتافيزيقيا ، عاليا على الطبيعة ، بل هو موجود أجتماعي ، نشأ من وبسبب الاجتماع البشري نفسه ، هذه الفكرة الحديثة عن النفس لم تصل اليها الفلسفة اليونانية متمثلة في اعظم ممثليها وفلاسفتها الكبار ـ عند البعض بشكل غامض ـ ، وما عدا ذلك فقد استقر هؤلاء في تصور النفس بنفس المنظار البدائي (الثنائية ، واعتبار النفس موجودا ميتافيزيقيا يعلو على الطبيعي) مع زيادة من مجاج وجدل لتقوية القضية وجعلها مقبولة عند عقول بدأت ـ لتبدل الزمن تستشعر شكا بتلك التصورات البدائية التي يدافع عنها الفلاسفة (البدائيون الجدد) .

مع ان هذه الحجج ، معروضة باقوى صورها عند افلاطون (٥٠) ، وابن سينا (٥١) لا تقنع الا مغفلا في هذه الايام ، اللهم الا من يقرأها وهو مؤمن بالقضية مسبقا .

٢ ـ الثنائية بين العالم المادي واللامادي ، المادة والروح ، العالم والالهة او الاله ، وخصوصا فكرة الاله باشكالها ، او بالاحرى بدرجات نموها التالية : (عبادة الاجداد ، عبادة ارواح شبه مادية ، عبادة ارواح غير مادية ، فكرة معبودات اقل من انسان في الصفات ، ثم معبودات مثل الانسان نفسه وبمستواه الجسمي والنفسي ، ثم معبودات اعلى منه ، فتعدد الالهة ، فالتوحيد ضمن اله مشخص وقومي أو اقليمي ، فاله عالمي مع التمييز بينه وبين العالم المادي ، فاله عالمي هو العالم شيء واحد ((وحدة الوجود)) ... الخ) (٥٢)

وقد لاحظ احد مؤرخي كتاب ((ما قبل الفلسفة)) عند كلامه عن اراء المصريين القدامى ان الانسان في اول امره كان يتصور الالهة تظهر من مادة اولى مثل الماء ، ثم لم يلبث بعد ذلك ان تصور الالهة والمادة ازليتين ومتعادلتين ككفتي ميزان لا ترجح احداهما على الاخرى ، والاله صانع وليس مصنوعا من الماء او اية مادة ، ثم لم يلبث الانسان بعد ذلك ان صار يرى الله هو الازلي الوحيد ، وانه خالق المادة بكلمته وقوته الخارقة للطبيعة (٥٣) .

ان الفلسفات ابتداء بسقراط فما بعد ـ على يد الفلسفة المثالية بكل اشكالها ـ لم تفعل سوى أن ثبتت فكرة الاله اللامادي بعيدة عن التناقضات (هذه التناقضات التي نجمت عن نفس المقدمات والصفات التي وصفت واعطيت للاله في عصور ما قبل الفلسفة ، مثل ان الله كامل ، ثابت ، ازلي ، غير مادي ، خارج الزمان والمكان ، وان العالم فعله ، او معلوله ، مع انه اي العالم : مادي ، ناقص ، متغير ، متكثر ، في زمان ومكان ، فحدثت من هذين التمييزين مشاكل : مثل : كيف يجيء المادة من اللامادي ؟ والناقص من الكامل ؟ والشر من الخير ؟ وكيف يكون الله ثابتا مع انه اوجد العالم في وقت لاحق ؟ واذا فرضنا العالم قديما بالزمان فكيف يكون معلولا لله ؟ وكيف يعلم الله المتغير ولا يتغير ؟ وكيف يعلم غير الموجود ؟ وكيف يكون علمه للجزئيات ، وكيف يحرك الله العالم المادي وينظمه والعالم زماني مكاني ، مادي ، والله ليس زمانيا او مكانيا وليس ماديا ؟ هذه بعض المشاكل العويصة التي يمكن أن تثار ، والتي اثيرت بالفعل بين المدارس اللاهوتية والفلسفية الخالصة (٥٤) وهذه المشاكل جزء يسير من مشاكل مثلها يمكن أن تثار على القائلين بهذه الثنائية ، بين الله والعالم مع القول بان العالم محدث بالزمان وبالذات ، أو بالزمان فقط ، ويمكن ان تثار مشاكل مثلها على مذهب أرسطو ، أو افلاطون ، او القائلين بوحدة الوجود والفيضيين ، بحيث تستعصي الميتافيزيقا على القبول عقليا نظرا لتعادل الادلة ، او لتكافئها على حد تعبير القدماء ، ونظرا لتعادل قضايا النقض والاثبات ، وسبب هذا الاستعصاء هو تسلم الفلسفة (ولا حاجة للتنبيه الى ان هذه المشكلة هي وقف على الفلسفات المثالية) لمقدمات وتصورات ما قبل الفلسفة عن الله والعالم ، الامر الذي حدا ب ((كانت)) الى ابطال الميتافيزيقيا المثالية المؤسسة على العقل ، مع انه حاول من جهة أخرى ان يبني ما هدمه ولكن على اساس من الاخلاق وفكرة الواجب (٥٥) بشكل متهاو يدعو الى الرثاء .

٣ ـ فكرة النظام الميتافيزيقي ، اي ان العالم منظم ، وما ينتج عنها من النظر الى التأريخ وفلسفته : نظرية العصور الذهبية في الماضي والمستقبل (عالم الانفس السعيدة قبل هذه الحياة ، وبعدها ، او وجود الانسان في الفردوس قبل هذه الحياة ، وصيرورته اليها بعدها) ، فكرة التشاؤم وهي مقترنة بتلك ، اعني أن التأريخ يحقق تدهورا عن نقطة البداية الكاملة في الماضي ، فكرة تحقق العدالة في

عالم غير هذا العالم (عالم الآخرة) ، فكرة تحقيق التأريخ للتقدم وفقا لتخطيط مسبق في علم او ذهن موجود اعلى ، او وفقا للمطلق .

هذه كلها فلسفات معروفة ، وآراء لها جذورها في تصورات البدائيين ومن جاء بعدهم (٥٦) ، ولها ممثلوها في الفلسفات المثالية وفي معظم الاديان ، وعند شعراء اليونان ، فهي تتمثل عند الاديان في فكرة الخطيئة الاولى ، ومعصية آدم والخروج من الجنة ، ففكرة العالم الآخر ، وتتمثل عند هزيود في فكرته عن العصور الذهبية ، وتتمثل في الفلسفة المثالية عند « هردر » و « هيكل » و « توينبي » عن تحقيق التأريخ وتقدمه لفكرة مسبقة في ذهن الله او المطلق ، وتتمثل عند افلاطون وافلوطين ومعظم فلاسفة العصور الوسطى ـ مسلمين ومسيحيين ويهودا ـ والفلسفات المثالية بعد عصر النهضة في ثنائية النفس ، تلوثها بالجسد ، تطهيرها ، ومصيرها أي خلودها ، وحتى عند الفلسفة النقدية (كانت) في فكرة العالم الآخر المحقق للعدالة (٥٧) .

فكرة النظام (٥٨) هذه ، وما ينتج عنها من هذه التصورات التي المحت اليها قبل سطور هي نتيجة لمقدمات وتصورات جملة التكوين العقلي والاجتماعي والعلمي الذي وصل اليه انسان « ما قبل الفلسفة »، اريد بذلك ـ بغاية الاختصار والاختزال ـ انها تصورات اوجدها ووصل اليها ذلك الانسان وهو يتعامل مع ما حوله ، وهي نتيجة لتصوراته التي المحت اليها في الفقرتين (٢) ، (٣) قبل قليل ، خصوصا تصور قوى ما فوقية ، وتصور وجود ثنائية (جسد روح ، عالم مادي جامد عقل او اله ، او الهة حية) ، وهي نتيجة لفيزياء وطبيعيات الانسان في عصوره المواكبة لتلك الثنائية ، اعني تصوره السكون كاصل للمادة ، وانها اذا تحركت فلا بد لها من محرك غير مادي ، وهي نتيجة لفكرة ان كل مادي ، حسي ، فهو شر ، ونقص (٥٩) ، وبالتالي فالنظام المتصور في المجتمع ، أو الطبيعة هو فعل قوى فوقانية غير مادية ، وكان يحدث في ذهن انسان « ما قبل الفلسفة » مقارنات كثيرة من هذا النوع مثلا: اذا كانت الحياة شاقة ، غير عادلة ، وغير سعيدة فلا بد ان تكون تدهورا لشيء كامل كان في الماضي، او لا بد ان مصدر ذلك هو الجسد، فالخلاص ضروري بالتطهير او الزهد ، والخلاص يكون في عالم آخر ، وهناك مقارنة اخرى : هذا التدهور ما سببه ، ليس الله هو المسؤول عنه ، اذن فلا بد ان خطيئة ما حصلت ، الانسان (معصية آدم) أو النفس اخطأت (اشتياقها الى العالم المادي وتلبسها فيه هابطة من عليائها) ، والخلاصة : هذه أمور اختلطت فيها الحاجة (الحاجة المادية ، الحاجة الى الخلود ، الحاجة الى العدل) بالآمال ، والظروف الواقعية الصعبة بالخيال ، وقصور العقل البدائي عن تفسير الظواهر بالتبدلات الطبيعية والمناخية الفجائية وكوارث الطبيعة المتلاحقة ، ولا بد ان القارىء يدرك ان هذه الفقرة الثالثة تحتاج الى تفصيل أدق ووقفة اطول .

***

بعد هذا كله ربما اكون مبررا اذا انهيت هذا المقال بالاحكام التالية :

آ ـ تتصل الفلسفة وثيق الاتصال وامتنه بالفكر البدائي وفكر ما قبل الفلسفة في الموضوع والهدف والمعالجة .

ب ـ الفلسفة بمعناها الكلاسيكي ، امتدادا من عهد اليونان (القرن السادس ق . م) ، ليست ، ولا يمكن ان تكون مرادفة « للعقلانية » .

ج ـ تعريف الفلسفة بانها « موقف » اكثر التعاريف دلالة عليها، على ضوء ما كشفنا من جذورها وطبيعتها .

د ـ وبالتالي فان محاولة تحديد تأريخ محدد للفلسفة وللعلم محاولة غير مبررة .

***

وتبقى بعد هذا وذاك أمور اهم وغايات اعمق أتركها للقارىء اللبيب .

حسام محيي الدين الآلوسي

الحواشي

28 — Aristotle : Metaphysic , BK. I, 3, 983. Ed. and Tr. by Ross. 1908.

29 — For Example : B.D. Alexander, : Ashort History of Philosiphy, 3 rd Ea. Glasgow, 1934 Part. I. P. 7, ff. and, Bertrand Russel : History of Western Philosiphy, 1961 . P 21 .

30 — Zeller : Outlines of Greek Philosophy. Newyork. 1955 . P. 18 .

31 — K. Freeman : Companion to The Pre — Socratic Philosophy . Oxford . 1966 . P. Xi and P. 49.

32 — John Burne : Early Greek Philosophy. London. 1958 . P. 15 ff ; and : Greek Philosophy . London. 1961. P. 1 — 13 .

٣٣ ـ ابن صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، نشر لويس شيخو ، بيروت ، ١٩١٢ ـ ص ، ٢٣ ، والشهرستاني : الملل والنحل ، تخريج محمد بدران ، الطبعة الثانية ، القسم الثاني ، القاهرة ، ١٩٥٦ ؛ ص ٦٤ ، حيث يقول « فان الاصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم وغيرهم كالعيال لهم » ، والروم في تقسيمه هم اليونان ومن جاء بعدهم من الروم ، ويقول ص ٦٦ في ترجمته لطاليس : « وهو اول من تفلسف في « ملطية » » .

34 — F. M. Cornford : From Religion to Philosiphy. 1912 .

٣٥ ـ تفاصيل هذا النقاش مع المصادر موجودة في « محاضراتي في الفلسفة اليونانية » ، وبالنسبة للقارىء العام الذي يريد ان يقرأ شيئا عن الموضوع بالعربية انصح بقراءة : بدوي : ربيع الفكر اليوناني، ص ١٠ فما بعد وص ١٢ ، فما بعد ، واحمد فؤاد الاهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، ص ١٧ فما بعد ، وعلي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان . ص ٧ فما بعد ، وكريم متى : الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، المقدمة . ومن المناسب الاشارة الى ان بدوي يرى ان محاولة الربط بين الفكر الفلسفي والعقلية البدائية اصبح مقضيا عليها الآن ، ونترك للقارىء الحكم على هذا الرأي بعد قراءته لمقالنا هذا . كذلك يمكن للقارىء ان يراجع بالعربية : ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٦ ، ص ٢٥٠ فما بعد .

36 — For details on Ancient Science, See: Farrington **Scince in intiquity** 1936. P. 9 ff : and, Sarton : Ancient Science Through The Golden age of Greek. 1953.

37 — J. B. Pritchard : Ancient Near Eastern Texts New Jersy. 1955. P. 3 — 4 ; and : Henri Frankfort Before Philosophy. London. 1959 . P. 18 , 16 .

وبالعربية يمكن مراجعة : طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج٢ ، بغداد ١٩٥٦ ـ ص ٩٠ ، ١٠٩ .

٣٨ ـ ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ج٦ ص ٢٠ فما بعد .

٣٩ ـ برنيت ، كتابه السابق : فجر الفلسفة ... ص ٢١ فما بعد ، وكتابه الآخر ـ السابق ـ ص ٤ فما بعد ، وهذا ما يردده برتراند رسل ـ كتابه السابق ـ ص ٢١ حاشية .

٤٠ ـ برنيت : فجر الفلسفة ، ص ١٧ فما بعد ، وكتابه الآخر ، ص ٧ ـ ٩ ، وسبقه الى ذلك . زيلر ـ كتابه السابق ـ ص ١٨ ، حيث يرى وجود فلسفة عند الصينيين والهنود قبل اليونان ـ وهو امر لا يقره برنيت ـ ولكن في رأي زيلر هذه الفلسفة صوفية ولم تنفصل عن الدين .

41 — Gilson : History of Christian Philosophy in The Middle Ages . New york. 1955. P. 29, P. 555, Note. 14, and P. 16 : also : F. Copleston : A history of Philosophy, 1959. Vol. 2 . P. 16 — 19, 26.

٤٢ ـ ديورانت ـ كتابه السابق ، ج٦ ، ص ١٤ ـ ٢٢ .

٤٣ ـ سبقت الاشارة الى موضع هذا القول .

٤٤ ـ الاشارة هنا الى نظرية ساميين وآريين كما تظهر في كتابات رينان ، وعلى الرغم من تلاشيها ، فان ميل المؤرخين الاوروبيين الى نظرية الاصالة اليونانية ، من بقاياها . انظر : جوتيه : المدخل لتأريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة محمد يوسف موسى ، القسم الاول، ومصطفى عبد الرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، القسم الاول ، الفصل الاول ، ومقالي في مجلة الآداب الفراء ، العدد التاسع ، ١٩٦٧

بالاضافة الى : ديورانت ـ كتابه السابق ـ ج٦ ص ٤٩ ، فما بعد ، انظر ايضا :

45 — R. B. Appleton : The elements of Greek Philosophy. London. 1927. P. 12 — 13.

46 — Hobhouse, op. Cit, Part 11. Ch. 1 and 2. and. The Introduction to The book my Ginsberg. P. Xvii ff.

٤٧ ـ هذا ما يعزوه له كورنفورد ، الذي يرى ان بارمنيدس هو واضع اسس المنطق الصوري القائم على مبدأ الذاتية وعدم التناقض لانه اكد على ما هو ثابت في الاشياء . انظر الاهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١٣٨ .

٤٨ ـ يفصل برنيت هذه الكشوف في كتابه : فجر الفلسفة ـ ص ٢١ ، وص ٢٣ ، مثل القول بان الارض كروية ، وتفسير الخسوف والكسوف تفسيرا علميا ، وان الارض ليست مركز الكون وانما هي تدور حول الشمس .

٤٩ ـ لعل مما له دلالة في هذا الصدد ما يقوله لويس وهو يناقش قول رتر Ritter وفكتور كوزان Victor Cousin ان طاليس كان ماديا ، لا يؤمن باله ، لانه قال بان الماء اصل الاشياء ، فيقول لويس معلقا : ان سكوت ارسطو عن ذكر شيء يتصل باعتقاد طاليس بالالهة ، دليل لصالح ان طاليس يؤمن بالهة لان الالحاد في هذه الفترة سيكون مثيرا حقا لارسطو ولا بد انه سيذكره ، كما ان فكرة الالحاد آنذاك شيء يناقض تأريخ الفكر البشري ، وهذه ملاحظة ربما تكون مهمة لاولئك المؤرخين الذين يحاولون ان يجعلوا المدارس الطبيعية الاولى للفلسفة اليونانية قبل سقراط ـ ما عدا الفيثاغورية ـ مدارس مادية وملحدة . انظر :

G. H. Lewes : Biographi Cal History of Philosophy, London, 1891. P. 29.

٥٠ ـ انظر « محاورة فيدون » ترجمة زكي نجيب محمود ضمن « محاورات افلاطون » القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٩٢ ـ ٢٢٠ ، وص ٢٧٧ ـ ٢٨٢ وكذلك : يوسف كرم : تأريخ الفلسفة اليونانية . طبعة ثالثة ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .

٥١ ـ يكتفي بكتاب ابن سينا : رسالة اضحوية في امر المعاد ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ومقدمة المحقق ، كما ان كتاب ابراهيم مدكور « في الفلسفة الاسلامية » القاهرة ١٩٤٧ ، واف بالغرض .

52 — Hobhouse, op. Clt, Part 11. Ch. 1. P. 367 ff, and Ch. 3, and. 4 .

53 — Husam al - Alousi : The Problem of Creation in Islamic , Thought , Baghdal, 1968, Part 1. Ch. 4 P. 116.

٥٤ ـ انظر كتابي : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ، القسم الاول، الفصل الثاني ، والقسم الثاني ، الفصل الاول ، والقسم الثالث ، الفصل الرابع .

٥٥ ـ يكفي بالعربية مراجعة كتاب : اندريه كرسون : المشكلة الاخلاقية والفلاسفة . ترجمة عبد الحليم محمود وابو بكر زكري ، القسم الاول الطبعة الثانية ١٩٥٢ ، ص ١٤٦ ـ ١٥٢ ، والقسم الثاني، بعنوان « الاخلاق في الفلسفة الحديثة » ، ١٩٤٨ ، ص ٥٩ ـ ٧٣ . ويوسف كرم : تأريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ ، ص ٢٤٣ ، فما بعد .

56 — Hobhouse , op. Cit. Note 4 , on P. 432.

٥٧ ـ يراجع عن تفصيل الفكرة مقالي : « فكرة التقدم بين الاطار النسبي والمطلق » الفكر الجديد ، مجلة قسم الفلسفة بكلية الآداب ، بغداد العدد الثاني ، ١٩٦٧ .

58 — See For Full details on This Idea : Robert Flint : Theism, 13 th Ed. 1902 .

٥٩ ـ ديوي : تجديد في الفلسفة ، الفصل الثالث . ص ١٥٠ والفصل الاول ص ٧٤ .

السَّبيّ

ـ ١ ـ

تمضغ الريح قمحي ، وتمتص دمعي
وتبث ارتجاف الاسى في دروبي
أين مني ضياء المدينة ؟
يكشف الريح ، يستعجل الامر ، ينهي فصوله
درب حزني حسبت فيه البطوله
ثم جاءت ريح الشمال ،
فألقته على سواحل مجنونة
أين مني ضياء المدينة ؟
في دروب الضباب تمضي خطايا
مثقلات براعشات الخطايا
أين مني ضياء المدينه ؟ ..

ـ ٢ ـ

حملت على كل درب صليبي
وصحت ، فلم يسمع الصوت جاري
سبي أنا من سبايا الهزيمه
تلاحقني لعنة مستديمه
يلاحقني صوت عاري
سبي أنا ، أين صحبي ؟
يطالعني موتهم كل صبح وكل مساء
فأسأل نفسي :
لماذا تخلفت وحدي ؟
... ...
حملت صليبي
وصحت طويلا
ترى ، يعبر البحر صوتي ؟
فيسمع من يسمع ،
يفهم اني غريب بأرض غريبة
تلاحقني لعنة العار ، تصنع موتي
بطيئا .. بطيئا
أرى عبر دربي وجوها قديمه
تباهي بما اكتسبت من هزيمه
كأن الحقول التي ضيعوها
كأن الرمال التي أرخصوها
ركام من الوهم ، لم يعمروها
طوال القرون
كأن تواريخ أمس
هراء ، وما كان فيها يقين !

ـ ٣ ـ

أنا السبي ، أنفض عني الغبارا
وأحمل صوتي
أشق الدروب بآماق عيني
آلام العزيمة تبقى انتظارا ؟
أيا زمن العار اني أتيت
بكل اشتياقي
سأغسل وجهي
على ساحل البحر ، أرسم مجدي
وأدفن في حقل « يافا » اغترابي
وأمحو عذابي
أيا زمن العار اني أتيت
علامات بعثي سلاحي
أيا زمن العار اني صحوت
أنا السبي كنت .. وها قد صحوت

علي الحسيني
القطر العراقي ـ الحلة

في الطريق الى حركة نقدية ناضجة

ادباء معاصرون .. وناقد معاصر

بقلم سامي خشبة

في السنوات الاخيرة ، ومنذ وفاة الدكتور محمد مندور ، لم يكف الكتاب المبدعون عن الشكوى من غيبة النقد او افتقاد حياتنا الادبية للناقد الذي يتابع ما يصدر من أعمال ادبية بالتحليل والتقييم والتوجيه، وفي اعتقادنا ان السبب الحقيقي لهذه الشكوى ليس هو غيبة الناقد القادر على مثل تلك المتابعة ، بل ولا غيبة الحركة النقدية التي تواكب حركة الابداع الادبي . فان لدينا نقادا كثيرين يتابعون هذا الانتاج قدر طاقاتهم العملية ، وليس هنا مجال احصائهم ، فنحن نرى ان هناك حركة نقدية كاملة هي في طريقها الى التكامل والنضج ، علاماتها هي نفس العلامات التي تدل على بدايات حركة ابداعية جديدة تضع قدميها الآن على نفس الطريق .

في اعتقادنا ان لتلك الشكوى اسبابا أخرى . ولعل اهم هذه الاسباب ، هو ان كثيرا من القيم الفكرية والجمالية التي أرساها جيل محمد مندور قد تخطاها تطورنا الاجتماعي والعقلي ، وان الاجيال المنتجة الآن من الكتاب والنقاد يتنازعها عاملان: عامل الرغبة في مواصلة التطور، وهو العامل المتحكم في من نرجو ان يمد الله في اعمارهم من جيل مندور نفسه . ثم عامل التعجل في خلق القيم الفكرية والجمالية المعبرة عن ذلك التطور ، وهو العامل المتحكم غالبا في الاجيال الشابة من الكتاب المبدعين . فهؤلاء لم يعودوا يقنعون بميراث مندور وجيله ، الميراث التأثري والواقعي او الايديولوجي - بتعبير مندور نفسه - وهم محقون كل الحق في هذا الموقف. ولكنهم من ناحية اخرى يتعجلون خلق ميراث عصرهم الخاص - الذي تجاوز الرؤية التأثرية والرؤية « الايديولوجية » او الواقعية المباشرة ، ظنا منهم ان مثل هذا التراث مما يمكن خلقه في سنوات معدودة ، خاصة وان عددا كبيرا من النقاد ما يزال محصورا في اطار تراث الجيل السابق ، يطبقه في حرفية مدرسية احيانا على انتاج الاجيال الشابة من الكتاب المبدعين . ان جيل محمد مندور نفسه قد استنفد ما يزيد على العشرين عاما في خلق ميراثه الفكري والجمالي الضخم الذي ما زلنا نستفيد منه ونتعلم منه الكثير ، وان كان من الواضح انه لم يعد كافيا لامدادنا بحاجتنا من الزاد العقلي الذي نواجه به قضايا عصرنا الفكرية والروحية والجمالية. ان الكتاب المبدعين لقادرون تلقائيا على ان يعكسوا قضايا عصرهم في اعمالهم الابداعية معتمدين في ذلك على معايشتهم المرهفة لواقعهم ، وعلى احساسهم الناضج بايقاع هذا العصر ، وعلى وعيهم الجزئي بتمزقاته وعذاباته . اما النقاد فهم في حاجة الى ما هو اكبر من المعايشة المرهفة ، وما هو أعمق بكثير من الاحساس الناضج او الوعي الجزئي . انهم بحاجة الى « غربلة » كاملة لكل تراث الماضي على ضوء وعي كلي ونافذ بالمرحلة المعاصرة وتكويناتها الاجتماعية والسياسية والعقلية .

واذا كنا نقول ان الاجيال الشابة من بين النقاد المنتجين الآن ، تضم نقادا يحاولون متابعة الحركة الابداعية بقدر ما تسمح ظروفهم الموضوعية ، واذا كنا نقول أيضا بأن هؤلاء النقاد في طريقهم الى خلق الحركة النقدية المعاصرة المتكاملة والناضجة يسيرون عليه مزودين بقدر عظيم من الوضوح الفكري - ازاء تراث الماضي وظواهر الحاضر - وبقدر عظيم من التمرس والحساسية النقديين ، فاننا نحمل في اذهاننا اسم رجاء النقاش . ولعل كتاب رجاء الاخير « ادباء معاصرون » ان يكون المادة الصحيحة التي تمكننا مناقشتها وعرضها من توضيح هذه الحقيقة .

***

يضم الكتاب عشر دراسات نقدية عن لطفي السيد وطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد مندور واحمد رامي والطيب صالح - الكاتب الروائي السوداني الشاب - ومحمود درويش وسميح القاسم من شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة ، وبدر شاكر السياب ، كما يضم الكتاب دراسة نقدية طويلة في تسعة فصول عن نجيب محفوظ .

المنهج النقدي

ان نظرة واحدة الى محتويات الكتاب تدلنا الى حقيقة الاتجاه الذي يتخذه رجاء النقاش والذي يسعى الى بلوغ غايته ، انه الاتجاه المؤدي الى بناء وجهة نظر نقدية متكاملة في حياتنا الادبية في مجموعها. ليست « الراهنة » فحسب ، وانما جذورها الماضية أيضا ، وليس في مصر وحسب ، وانما في غيرها من اقطار الوطن العربي ، مثل السودان وفلسطين والعراق . فرجاء ، يؤمن بوحدة الثقافة العربية - في جانبيها الابداعي والنقدي - ايمانه بوحدة النضال والمصير العربيين ، ثم هو يؤمن بأنه من المستحيل ان نكتشف عصرنا دون ان نفهم «ماضيه». ولذلك فهو لا يقصر اهتمامه على الكتاب المصريين ، ثم هو لا يقصر اهتمامه على الكتاب « المعاصرين » .

ولكن رجاء النقاش من النقاد الذين لا يقف تقديرهم للماضي عند مجرد دراسته او فهمه فحسب ، وانما يعرف كيف يتعلم منه ، حتى يمكن للفكر النقدي - الذي هو الجزء الاكثر أصالة من التراث العقلي للشعب كله على مدى تاريخه - أن يكون نموا مستمرا وليس قفزات مبتورة . ان رجاء بعد ان يدرس الماضي ، يرفض منه ما يمت الى الماضي وحده ويعجز عن البقاء كرافد يغذي الحياة المتجددة ، ومن الناحية الاخرى فان رجاء حريص على ان يحافظ على القيم القادرة على البقاء من هذا الماضي . ورجاء النقاش - كناقد بهذا المعنى ، انما يصبح التطور الصحي لنفس المنهج الفكري النقدي الذي انتج من قبل طه حسين الناقد ، ثم محمد مندور . انه ليس تكرارا لاي وجه من وجوه هذا المنهج ، وانما هو تطوير وتنمية لما ينبغي ان يبقى من تراث هذه المدرسة الفكري والمنهجي ، ثم ارتياد للآفاق الجديدة التي فتحها عصرنا وتفتحت لها عقليتنا المبدعة والناقدة .

ورغم ان كتاب « ادباء معاصرون » قد صدر اصلا في صورة مقالات متفرقة ، لا يجمعها « موضوع » واحد باستثناء الجزء الخاص عن نجيب محفوظ ، الا اننا نستطيع ان نكتشف في وضوح ملامح هذا المنهج الفكري الاصيل ، وهو المنهج الذي يشكل الوحدة الحقيقية الجامعة للكتاب .

ففي دراسته عن لطفي السيد ، يقارن رجاء بين اتجاه لطفي السيد

الهادىء الجانح للمساومة مع الاستعمار من الناحية السياسية ، وبين اتجاه مصطفى كامل العاطفي الملتهب بالحب لمصر دون ان يملك أي برنامج سياسي واقعي لتحقيق الاستقلال . وفي نفس الوقت يقارن رجاء بين الاتجاه العقلي والفكري والاجتماعي - غير السياسي - المستنير الذي يتخذ لطفي السيد - الرجعي السياسي - وبين اتجاه مصطفى كامل العقلي والفكري والاجتماعي المتخلف ، رغم تشدده السياسي ضد الاستعمار .

وفي دراسته عن طه حسين ، يقدم رجاء رؤية جديدة تماما لحياة « عميد الادب » الفكرية ، من زاوية ارتباط « افكار » طه حسين ومواقفه الفكرية والاجتماعية بمواقفه السياسية ، او تناقض الاولى مع الثانية . انه يدرس نشأة طه حسين كجزء من اتجاه لطفي السيد الفكري في البداية ، وتأثير ارتباطه الفكري بلطفي السيد على موقفه السياسي حينما ارتبط مع استاذه بحزب الاحرار الدستوريين الرجعي ، والممثل لكبار ملاك الارض والرأسماليين ، ثم تحول طه حسين للارتباط بالوفد - حزب الطبقة المتوسطة والاغلبية الشعبية والاتجاهات الديموقراطية - وحرص طه حسين على الا يكون لارتباطه الشخصي بالوفد أي لون سياسي محدد ، رغم انعكاس موقفه الفكري على موقفه السياسي عموما . وهكذا تتجمع خيوط التناقض القديم بين لطفي السيد ومصطفى كامل ، تتجمع خيوط هذا التناقض في شخصية طه حسين بمفرده . فقديما كان لطفي السيد المستنير فكريا رجعي سياسيا ، بينما كان مصطفى كامل الرجعي فكريا ثوري سياسيا . اما الآن فقد أصبح طه حسين يجمع بين النقيضين ، وان استطاع ان يحل التناقض بالانتماء سياسيا الى الوفد في النهاية ، رغم ان الوفد - الحزب البورجوازي التقدمي سياسيا في ذلك الحين - كان يتبنى سياسة فكرية واخلاقية محافظة بل ورجعية .

ان رجاء يضع اصابعه على حقيقة هامة من حقائق تاريخ الفكر المصري الحديث . وهي حقيقة ان حزب الاحرار الدستوريين - وهو الحزب الرجعي - كان هو الحزب القادر على تجميع المثقفين المستنيرين والقادر على احتضان الثقافة المستنيرة ليعوض بها عن رجعيته السياسية من ناحية ، ولانه - من ناحية اخرى - الحزب الارستقراطي الملىء بخريجي البعثات الاوروبية ، والذي لا يحتاج الى تملق الافكار المتخلفة والثقافات العتيقة التي « تعشعش » في عقول الطبقات الشعبية من جماهير الوفد في ذلك الحين . اما حزب الوفد ، فعلى العكس ، كانت صفوفه تتكون اساسا من متوسطي الملاك وكبار الموظفين محدودي الثقافة ، وكان بحاجة الى تملق الثقافة المتخلفة لكسب أصحابها ، وكان عاجزاً عن استيعاب أي نوع من الثقافة التقدمية - غير « المواقف » السياسية المباشرة والعملية . ويضرب رجاء مثلا صارخا لهذا التناقض . فالدستوريون يدافعون عن طه حسين وكتابه المستنير العظيم « الشعر الجاهلي » ، بينما يهاجم الوفد المؤلف والكتاب ويطالب بطرده من الجامعة ومحاكمته وادانته . الرجعيون السياسيون يقفون الى جانب حرية البحث العلمي والفكر المستنير ، بينما يقف « التقدميون » السياسيون - بمقياس ذلك العصر ، ضد هذه الحرية وتلك الاستنارة . ولعل في اكتشاف رجاء لهذه الظاهرة الغريبة ما يساعدنا على اكتشاف السر في « كراهية » الشعب للكثير من الافكار التقدمية ورفضه لها . فكثيرا ما كان « الرجعيون » السياسيون واصحاب السلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية القاهرة والمستغلة ، هم من يحملون هذا الفكر المستنير في المجالات « الذهنية » المجردة : البحث العلمي ، الاخلاق ، السلوك الاجتماعي ، العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . ان الشعب « يرفض » مثل هذه الافكار لانه « يصارع » أو « يكره » من يحملونها ، لانهم هم من يستغلونه او يقهرونه او يسيطرون عليه . ولعل في هذا الاكتشاف الذي يحققه رجاء ايضا ما يساعدنا على ان نضع أيدينا على سبب المواقف الغريبة التي تضطر القوى التقدمية في بلادنا الى اتخاذها ازاء ظواهر التقدم الفكري والاستنارة العقلية ، لاسباب اجتماعية وسياسية مختلفة .

لم يتحول رجاء لدراسة توفيق الحكيم ، ويركز على رواياته « عودة الروح » ، « عصفور من الشرق » ، « يوميات نائب في الارياف » لكي يكشف عن تطور فهم الحكيم لمصر وثورتها القومية وتطور ارتباطه بالواقع المصري من الارتباط الروحي الغيبي بهذا الواقع ، الى نوع من الارتباط الواقعي العملي به في « يوميات نائب » . وفي الفصل الرابع يتابع رجاء دراسته ليربط بين أجزائها بتقييم فكري ونقدي لكشفين ادبيين هامين ، وهما روايتان كتبتا قبل « عودة الروح » ، تتبنى احداهما أفكار لطفي السيد ، وتتبنى الاخرى افكار مصطفى كامل ثم يقيم رجاء مقارنة فكرية عميقة بين الروايتين وبين « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، ليكشف عن مسار التطور نحو الفهم الشامل لشخصية مصر الذي حققه الحكيم تعبيراً عن ثورة ١٩١٩ ، وعن مقدار التطور الفني الذي حققته الرواية من ناحية اخرى .

وفي النهاية ، يتوج رجاء هذه الدراسة المتلاحمة « للماضي » بفصل عن الدكتور محمد مندور ، بعنوان « محمد مندور من الانسانية الى اليسارية » ، لكي نحصل في هذا الفصل على صورة مرحلة هامة وبالغة التأثير في فكرنا المعاصر ، من مراحل تطور الفكري النقدي في مصر . يركز رجاء على ذلك المشعل الذي اضاءه مندور في الفكر المصري ، مشعل توضيح العلاقة الحاسمة بين الفكر والعمل ، وبين الادب والحياة ، وبين المضمون والشكل ، وبين الالتزام السياسي والالتزام الفكري ، وبين الاشتغال بالسياسة من موقف الثوري والاهتمام بالادب من موقع الناقد الملتزم المستنير ، هذه العلاقات التي كان مندور يزداد تحديداً لموقفه كلما أمعن في اضاءتها ، حتى انتمى الى اليسار الوطني كما يسميه رجاء ، وان ظل على الدوام مؤمنا بالانسان والتقدم والعلم .

القديم الجديد

بذلك يكمل رجاء النقاش نسج خيوط الجانب الاول من منهجه في وضوح عملي شديد . وأحب أولا أن أقول انه منهج فكري عام ، يتحول في التطبيق الى منهج نقدي أيضا ، تخرج منه « مقاييسه » الفنية أيضا . فليس رجاء مؤرخا سياسيا ولا يحاول كتابة تاريخ نقدي للفكر المصري . ولكنه كمفكر وناقد يؤمن بارتباط الادب بالحياة اوثق ارتباط ، ويعرف ان الحياة ليست لحظات متقطعة منبتة الصلة بعضها بالبعض ، وانما هي امتداد مستمر في الزمن وفعل ايجابي في الوجود المكاني والزماني أيضا ، فانه يقيم عمليته النقدية على اساس من معرفة كاملة بالتاريخ السياسي والفكري لشعبه ، وهي معرفة نقدية أيضا ، لا تستسلم للماضي ولا تنبهر بمنجزاته ، ولكنها تعرف ان للماضي اصابعه الممتدة الى عصرنا ، وان من بين هذه الاصابع ما هو جدير بالمحافظة عليه ، ومنها ما هو جدير بان يبتر بقسوة . رجاء في هذا الكتاب ، لا يمارس عملية تقييم نقدي « لاعمال » أدبية فقط ، وانما هو يحاول ان يكتشف الاسس الفكرية والاجتماعية التي انتجت التيارات التي كانت هذه الاعمال اجزاء منها ومراحل اساسية في مسارها ، ثم هو يحدد موقفه هو الخاص من هذه الاسس . انه يحدد موقفه من تطور الفكر المصري الحديث وظواهر هذا التطور الاساسية ، لكي يتمكن من اضاءة موقفه الفني والفكري العام - كناقد متابع للاعمال الفنية - ولكي يتمكن من تحديد موقف صحيح من هذه الاعمال ، لا في وجودها الموضعي المحدد فقط ، وانما باعتبارها حلقات متصلة من سلسلة تطور الفكر والعقلية المصريين .. مراحل متصلة من مسار نمو روح مصر وكيانها الوجداني كله ، ولانه يريد ان يقول ان النقد الادبي لا يمكن ان يسير على رجل واحدة هي مجرد التقييم الموضعي للعمل الادبي ، أو هي الفهم النقدي للمرحلة السياسية وللوضع الاجتماعي المواكب لهذا العمل . لا بد للنقد من ساقين سليمتين : النظر الى العمل الادبي نفسه بكل ما يحيط به من ظروف شخصية ونفسية واجتماعية ، ثم الفهم الشامل والتاريخي لتطور الفكر القومي السياسي والفلسفي

والاجتماعي في مجموعه حتى يصبح من الممكن ان يتحدد المكان الذي يحتله العمل موضع النقد في هذا التطور .

وبذلك يتجاوز رجاء مرحلة النقد التأثري الذي يقوم منهجه على اضاءة العملية النقدية للعمل الفني من خلال حياة مؤلف هذا العمل الشخصية والعامة ، ويتجاوز ايضا مرحلة النقد الواقعي او الايديولوجي - بالمصطلح الذي صكه محمد مندور - والتي تقول بضرورة فهم المرحلة السياسية المواكبة للعمل موضوع النقد ، يستفيد رجاء من هذين المنهجين ، ولكنه يتجاوزهما الى ما يمكن ان يكون بذرة منهج نقدي جديد واصيل ، يمكننا ان نسميه بالمنهج الحضاري، او التاريخي، وان كنت اميل الى تسميته ((ما فوق الواقعية)) .

ان عملية نقد تراث الاجيال السابقة واعادة تقييمها هامة بل وجوهرية من أجل ميلاد كل جيل جديد ، ولكن المسالة هنا تتعدى حدود نقد جيل ومولد جيل آخر . انها مسالة ((انسلاخ)) مرحلة برمتها من مراحل تطور الكيان العقلي والروحي لامة باسرها من قلب القديم ، ومسالة ((تخلق)) مرحلة أخرى تكاد تكون مختلفة بصورة كيفية عن كل المراحل السابقة .

تطلعات عربية

ان اهتمام رجاء النقاش - وعدد آخر من النقاد والمفكرين الشبان - بنقد وتقييم تاريخنا الفكري والعقلي الحديث واكتشاف جذوره الفرعونية والقبطية والعربية الاسلامية والغربية ، ثم اهتمام رجاء النقاش بالذات - بدراسة وتقييم الانتاج الادبي والفكري في غير مصر من اقطار الوطن العربي ، انما يشكل علامة هامة في طريق تكون هذا المنهج الجديد .

ويختار رجاء لكتابه ((أدباء معاصرون)) اربعة من الشعراء . أولهم - وهو الاخير في ترتيب فصول الكتاب - وهو احمد رامي - الذي وان كان مصريا الا ان رجاء لا يتناوله من زاوية مصريته - وانما يتناوله من زاوية تمثيله لمرحلة آفلة من مراحل القديم - القديم في الشعر العربي بوجه عام ، وفي العقلية العربية والمصرية بوجه خاص ، مرحلة الزخرفة اللفظية والرنين الخارجي الاجوف في الشعر ، مع الانفعالات السطحية والتفكك الفكري والابتعاد تماما عن اي ارتباط بالواقع او حتى أي جهد عقلي او ((تفلسف)) من اي نوع . رجاء هنا ينقد جانبا شائها من القديم بقسوة البناء الذي يفتت من على السطح كل النتوءات التي لا قيمة لها حتى يسوى الارض من اجل بنائه القديم .

اما الشعراء الذين يمثلون مرحلتين متلاحقتين من مراحل الجديد ، فهم ثلاثة شعراء ينتمون الى قطرين عربيين غير مصر ! العراق وفلسطين . واولهم هو بدر شاكر السياب . انه يقر للشاعر العراقي الراحل الكبير بقيمته الفنية العظيمة ويكتشف جماليات شعره بحساسية الناقد الخبير ، ولكن ما يهمنا هنا هو ان رجاء يضع اصابعه على منابع تجربة السياب الشعرية : الثقافة الانسانية الواسعة ، والاستفادة من القصص الدينية والاساطير القديمة والآداب الفولكلورية، علاوة على تجربة حياته الجياشة المضطربة الفاجعة . ولكن رجاء استكمالا لمنهجه واستكمالا لاكتشافنا لهذا المنهج - يتوقف في النهاية عند تقلب السياب من الناحية السياسية او الايديولوجية ، كما يحب ان يسميها ، ليكشف عن مصدر هذا التقلب ، وهو اضطراب الحياة السياسية في الوطن العربي كله بعد الحرب العالمية الثانية ونكبة فلسطين ، وغرق جيلهما في البحث المحموم عن وسيلة الخلاص السياسي والاجتماعي والفكري لنفسه ولشعبه . ان الرؤية ((التاريخية)) عند الناقد هي النافذة التي يطل منها هنا على ظاهرة فكرية لا تظهر الا في ابداع الشاعر الفني . وعندما يتم للناقد رصد هذه الظاهرة ((الفكرية)) التي اسرت في قالب الشكل واطلقها الابداع الفني من اسارها ، فان الناقد يصبح مهيا لفهم الفنان واكتشافه قيمته الفكرية والفنية جميعا ، ويصبح قادرا على تحديد الوضع الصحيح لهذا الفنان في مسار تطور الحياة الروحية والفكرية لامته . ان السياب يبدو هنا كظاهرة فكرية مرتبطة بوضع انساني عام عاشته امته ، ولكنه يبدو ايضا - كفنان - في ضوء نقدي ساطع يكشف عن ملامحه ((الخاصة)) ، الفنية ، بعد ان أضيئت ملامحه الفكرية وتحدد مكانه في التاريخ .

فاذا وصلنا في كتاب ((ادباء معاصرون)) الى شاعري المقاومة في فلسطين المحتلة ، محمود درويش وسميح القاسم ، وجدنا رجاء وقد وضع يديه على الحل النهائي لمشكلة السياب وجيله : مشكلة البحث عن ذلك الخلاص الشامل . يمدنا الشاعران ، في تحليل رجاء بالحل الذي يتلخص في الثورة . الثورة العربية الكاسحة التي تعصف ببقايا الاستعمار وباسرائيل وبالرجعية العربية ، لكي تبني المجتمع العربي المؤمن بالتقدم والاشتراكية والعدالة والسلم ، والذي يؤمن اولا بعروبته ، وهي الاساس الحضاري لوجوده - الاساس القديم المستتر الذي اعيد اكتشافه ولا بد من الدفاع عنه بالسلاح وتطويره بالعلم والحرية والفن . ان هذا الحل هو الحل الذي وصل اليه جيل الناقد نفسه ، وهو الحل الذي يتحقق فيه الارتباط بين تيارات مختلفة ظلت تتقارب حتى هذه اللحظة التي امتزجت فيها . تيارات النضال من اجل التقدم الحضاري ، والتحرر الوطني الاقليمي ، والتحرر القومي الشامل لتحقيق الوحدة القومية ، وتحرير المواطن الفرد ، وتحرير الفكر العربي من كل قيود الماضي ومثبطات الحاضر لتحقيق التطابق من جديد بين الواقع الذي يصنع بالنضال وبين الفكر النضالي نفسه . ان المنهج النقدي هنا يصل الى حالة من الوعي بالذات ، فيصبح تحليل شعر المقاومة وتفسيره وتقييمه ، تحليلا في نفس الوقت للفكر النضالي - وليس مجرد النقدي - الذي يقوم عليه هذا الشعر ، وتحليل للقالب الجمالي الذي يصاغ فيه هذا الفكر ، ليتم التلاحم بين العملية الابداعية التي هي جزء من نضال الشاعر ونضال شعبه ، وبين العملية النقدية التي هي جزء من نفس النضال الساعي الى تحقيق الامة لذاتها بالحرية والعلم والفن .

وحينما يتناول رجاء رواية الكاتب السوداني الشاب الطيب صالح ((موسم الهجرة الى الشمال)) يركز عمليته النقدية على اكتشاف المغزى الحضاري للرواية ايضا ، المغزى الذي يتلخص في ((لا بد ان

تكون البداية من الواقع .. من النبع الاصلي » . ولكن هذا لا يعني التنكر للحضارة الحديثة والتقدم ومنجزاتهما الانسانية ، وانما لا بد ان تقترن العودة الى المنبع الوجدان الافريقي الجديد ، والوجدان الاوروبي الجديد أيضا . العودة الى المنبع تعني اعادة صياغة افريقيا الانسانية كلها ، من انقى جوانب جوهرها الاصيل ، ومن أروع منجزات العمل والعقل الانسانيين في آن واحد .

ولكن هذه الصياغة الجديدة تعترضها عوائق جدية شائكة وممزقة. وهذه العوائق هي ما يكتشفها رجاء في روايات نجيب محفوظ الاربع التي جاءت بعد ثلاثية « بين القصرين » ، وهي روايات « اللص والكلاب » ، « السمان والخريف » ، « الطريق » ، « الشحاذ » . ورغم ان رجاء قد بالغ فكريا فيتقديره للابعاد الفلسفية لهذه الروايات، ورغم انه تجاهل ما كادت أصابعه ان تلمسه مرارا من حقيقة الازمات الروحية التي يعانيها ابطال هذه الروايات ، الا أنه يستمر في اتساق مع منهجه الاول ، الذي يستخدمه هنا لكي يكشف به عن ملامح مأساة عصرنا ومأساة الانسان وعظمة نضاله ومراحل تكوينه وعناصره في بلادنا . فرجاء يعرف طبيعة أبطال نجيب محفوظ في رواياته الاولى . انهم ابناء الطبقة المتوسطة في مرحلة تطلعها الى تحقيق نفسها بكل ما يتشعب اليه هذا التطلع من ثورية او انتهازية ، صلابة او تمييع ، يقين او شك ، تحدد او ضياع في متاهات الواقع والفكر . ويرى رجاء ان ابطال نجيب في المرحلة التالية انما هم رموز لمأساة الانسان العامة في العصر الحديث ، رغم انهم ذوو اصول محلية نمت جذورها في نفس الطبقة المتوسطة المصرية . وهنا يتجه رجاء الى مناقشة مظاهر « الازمة العامة » كما تبدو من خلال شخصيات نجيب محفوظ الجديدة ، ويقوده هذا الاتجاه الى نسيان تلك الجذور التي أشار اليها والتي قال - وكان محقا في قوله - بانها جذور نمت في نفس الطبقة المتوسطة المصرية . لقد تغلب الناقد التحليلي في رجاء - في هذا الجزء من دراسته عن نجيب محفوظ - على منهجه الجديد ، وبدلا من ان يستمر هذا المنهج في تعميق تياره والتقدم نحو هدفه : هدف اكتشاف نوعية التصور الجديد الذي يقدمه نجيب محفوظ عن عقلية هذه الطبقة في عصر انهيارها ، وتقييم هذا التصور وتحديد موضعه من مسار تطور الفكر المصري العام ، بدلا من هذا يقتصر رجاء على تقديم عملية نقدية تقليدية شديدة التشابه في منهجها مع المنهج النقدي الواقعي التقليدي .

ورغم هذا الاختلاف الجزئي بيننا وبين تحليل رجاء لروايات نجيب محفوظ الجديدة ، الا ان رجاء - ونتفق معه كل الاتفاق - يرى في رؤية نجيب الجديدة محاولة طموحا يقوم بها الفنان العربي المصري من اجل تحقيق التلاحم بين اهتمامات روح مصر وعقلها ، وبين روح العالم الحديث وعقله . وليس هذا التلاحم الذي يحققه نجيب ويكتشفه رجاء الا جزءا من نفس المنهج الذي نعتقد اننا قد سلطنا عليه بعضا من الضوء .

انه المنهج الذي يكمل بحث العقلية المصرية العربية عن نفسها ، هذا البحث الذي بدأ مع مطلع القرن السابق ، ووضع قدميه على الطريق الصحيح. وهو المنهج الذي يسعى الى فهم المستقبل والاستعداد له باكتشاف عناصر التقدم في الحاضر ، والتي استخرجت الحاضر من قلب الماضي . وهو المنهج الذي يسعى الى تكريس عقل الانسان وانتاج هذا العقل في بلادنا من أجل اعادة صياغة روحها وفقا لحقيقة هذه الروح الاصيلة ، وبالعلم والحرية والاستنارة .

ان كتاب « أدباء معاصرون » يؤكد لنا اننا نزداد ثقة من حصولنا على مفكر وناقد معاصر أيضا ، الامر الذي يؤكد لنا ان المنهج النقدي الناضج ، والمواكب لحركة الابداع الفني المتجددة عندنا ، في طريقه المؤكد الى النضج .

القاهرة

سامي خشبة

خطاب من الموتى

نحن الموتـى ..
نبعث للاحياء الثاوين بظهر الأرض
خير تجاربنا في كلمـات
نحن الموتـى نتكلم
نتسـاءل
لم لا يؤخذ راي الموتى فيما يصلح أمر الأحياء

نحن الملفوفين بأثواب الكتان
نحن قدامى الموتى أصحاب العظم العريان
لا ينقصنا في دعوانـا البرهـان
امست أقدام الاحياء على أكتاف الموتى
فلماذا لا تصبح أقدام الموتى فوق رؤوس الأحياء
قـد جاهدنا دهـرا فوصلنـا
للأمر المستعصى أن تصلوا لـه

ها نحن حفظنا للرب وصاياه العشر
وحفظنا للانسان حقوقا جاءت في الاعلان
ها نحن تساوى فينا ترب الأرض مع التبر
وتساوى في شرعتنا الخادم والسلطان

كدنا من فرط الحزن عليكم أن نحيا
لولا ان لطف الله بنـا
فتعلقنا في أهداب الموت
يـا مـوت ..
انـا نعلن واأسفاه

ما أضيع أن قضينا لمحة عمر في ظل حياة
يـا مـوت ..
معذرة .. كنا لا ندرك أنك أنت نجاة
يـا أحيـاء

فكرنا يوما أن نبعث لولاة أموركمو المضطربه
رسلا تسدى لهمو النصح
وتسوق تجارب من تحت الأرض
لكن ساورنا الشك ..
قد يتهم رسول الموتى للأحياء
بصلات قامت وصفوف الاعداء

راودنا الامل العابث يوما
ان ننزع عنا الاكفان ونصّاعد فوق الأرض
لكن أدركنا قبل فوات الوقت
ان عبثاً يسعى الاموات الأحياء
بين قبور الاحياء الموتى

واخيرا أثبتم في كل ملمه
أن خطاكم تدنيكم
تلقيكم في جوف الظلمة
تنحر قربانا منكم
لولاة النعمة والنقمة
وقنعنا عندئذ ورضينا
فغدا تأتون لوادينا
وسنفحمكم بسؤال من غير حياء
لم لا يؤخذ راي الموتى فيما يصلح امر الاحياء
يـا أحيـاء
يـا أحيـاء
يا ثاوين بظهر الأرض
هذي كلمات الموتى
هذي كلمات الموتى

القاهرة — حمدي متولي مصطفى صالح

الحدود والأسوار ..

قصة بقلم جان الكسان

« فارس آخر مهزوم في الميدان .. يجر بقية من حبل اللجام ، وفي ظهره سهم من ذهب .. انه عجلاتي سوق ساروجة .. وقبله دخل آدم التجربة ، كان يسير في الجنة حالما سعيدا غير مطالب باجسار البيت ولا بفاتورة الكهرباء .. وعندما وجد نفسه امام انثاه ، حواء ، عبر عن فرحة اللقاء بحك أرنبة أنفه بجبينها ، وكانت بداية رحلة المتاعب » .

ـ هات رغيفا وتعال .. هات بصلة أيضا .. الفول المدمس بلا بصل ليس فولا مدمسا .

ـ ألن تستمع الي ؟ ظننت انك تريدني ان اتابع القراءة ، انني أكتب قصة حبك ..

ـ سيطردونك من كلية الطب .

ـ ماذا تقول ؟ ..

ـ اذا كانت ـ يا خميس مطر ـ هذه هي الوصفة التي تكتبهـا لمريض مثلي ، فأنت منذ الان ، طبيب فاشل .

ـ الوصفة صحيحة ، ولكن خط الطبيب لا يقرؤه الا الصيدلي .

ـ أنا عجلاتي ولست صيدليا .. اذا أردت ان تكتب عن قصة حبي شيئا (كل .. لماذا لا تأكل ؟.) أكتب كما رويتها لك : دراجة ، ومطبخ ، وساق ، وطشت غسيل .

***

قالت أم محمد وهي تضع صينية القهوة : نحن في اليوم الخامس من الشهر .. دكتور ...

فرد خميس : لم يبق الا العدس .. سيبيع ابي مدين منه ، ويرسل لي الدراهم فأعطيك الاجرة ، وعندما اتخرج سأعالجك من الروماتيزم مجانا .. اتفقنا ؟

ـ لو كان خسروف باشا يعلم أنك ستقطن غرفته في يوم مـن الايام لهدمها من اساسها ..

ـ اذن اسمعي (مد يده الى دفتر قلب صفحاته ثم توقف عند صفحة وراح يقرأ :)

« نهضت الاميرة نازلي عن سريرها المطعم بالعاج والذهب ، وهبطت ثلاث درجات حتى أصبحت قريبة من الشاب الفقير خسروف ..

ـ ماذا تقول ؟ شاب فقير ؟..

ـ اسمعي (متابعا القراءة) فربتت خده بكفها البضة ، وتحسست عضلاته باعجاب ، فما كان منه الا ان فتح حقيبة كانت بيده واخـرج منها قرنفلة سوداء ، ثبتها في شعرها باحترام زائـد ، ثـم نظـر الـى الجهة اليسرى فاذا منجم القصر يجلس على الارض وهو يمزق رداءه بسكين عريضة (هل تعرفين ان جارك العجلاتي سيتزوج ، كان مارا أمام دار ابي سليمان سفل التلة .. ناداه سليمان الصغير ليصلح لـه دراجته .. دخل المطبخ ليجلب قبضة الهاون .. كانت فريزة ، اخت سليمان ، جالسة أمام طشت الغسيل ، رأى ساقيها وقسما من فخذها .. قرر ان يتزوجها .. تحدث عن الموضوع اول الامر على انـه مغامرة مثيرة ، ثم تطور الحديث الى الزواج) .

اسمعي ـ يتابع القراءة ـ فجأة سقطت من سقف قصر الاميرة نازلي كرات كثيرة ملونة ، راحت تتراقص حول خسروف الفقير .

ـ ماذا تقول ؟ .. فقير ؟ ..

ـ وتراكض عدد من الجنود الانكشاريين ، ثم راحوا يرقصون في زاوية القاعة رقصة غريبة ، وبعد دقائق تكوموا في الزاوية عددا مـن حبات البرتقال .. من القنابل ؟ .

تقاطعه أم محمد : رأيت في المنام ان السماء تمطر احجارا مـن الياقوت ، ما ان تلامس الارض حتى تنفجر ..

ـ هذه قنابل اليهود يا أم محمد ..

ـ ايام خسروف باشا لم نكن مهددين هكذا ..

ـ اسمعي (يتابع القراءة) وقالت الاميرة نازلي لخسروف الفقير .

ـ مرة اخرى تقول : فقير ؟ ..

ـ اذا افرغت ما في جعبتك ملأتها لك بالذهب ، وأعطيتك بيتـا في سوق ساروجة بدمشق فاسرع يقلب الحقيبة الى الارض ليتناثـر منها اشياء غريبة متنافرة : كيس صغير مـن النايلون الشفاف فيـه قطع حمراء من خمرة معتقة ، دبابيس شعر .. كتاب في علم الاجتماع ازميل .. اخبار البلد والجوار .. قلم حبر ريشته مكسورة .. ريش ملون من جناح طائر غريب ، سيكارة فصل عنها الفلتر ، قلم أحمـر شفاه .. حرباء من الشكولاه .

ـ هل تهذي ؟ ما بـك ؟ ..

ـ وصاحت الاميرة نازلي : املأوا الحقيبة بالقطع الذهبيـة وأعطوها لخسروف ... باشا .

***

هطل المطر بغزارة .. انها اولى مزن الشتاء .. لا شيء يبدو غريبا في المدينة حتى العقرب الوحيد لساعة ساحة الشهداء ، الواقف منذ شهور على الرقم ثلاثة بعد ان انفصل عنه رفيقه لسبب من الاسباب ، وكأنه عين المدينة ـ التي نامت عينها الثانية ـ ساهرة مع صغـار المقامرين المتناثرين حول موائد المقاهي ، ومع المتحلقين على مقاعد دور السينما ، أو المتسكعين على الارصفة بحثا عن احدى عاثرات الليـل يختطفها الاقرب اليها ليقضي معها وطره في قبو أو على درج بناية نام أهلها .

في مقهى « السلوان » كانت الشلة ملتفة حول طاولة الزاوية اليمنى .

ـ أهلا دكتور .. أهلا دكتور ..

جلس خميس صامتا بعد ان نفض عنه ماء المطر .. وفي الزاويـة الاخرى كان الفلكي ـ وهو معلم مدرسة متقاعد مهتم بشؤون الفلك ـ قد اراح عجيزته على كرسيه العتيد فاندلق امام كرش يذكر « خميس » كلما رآه بقربه « زينة » زوجة محمود مختار قريته وهي تخضها في الصباح لتفصل فيها الزبدة عن اللبن الحليب ..

قال الياس مشيرا الى الفلكي : سيطلب الاستاذ نارجيلة جديدة بعد قليل .. انه موعد ابدال النارجيلة الاولى .

وكان سليمان يتابع حديثه : لماذا اغلقوا المكتبة الامريكية ؟ . كنـا نستعير منها الكتب ولا نردها فلا يطالبوننا بها ..

اما نديم ومحمد ، الشاعران ، فقد استأنفا نقاشهما البيزنطي الذي بدآه منذ سنوات حول زحافات الشعر .. حاول الفلكي أن يتدخل من مكانه .. في النقاش ، فرد عليه نديم : خلك بالفلك واترك الشعر لاصحابه ..

وقال سليمان : النقاش ليس جديا بين محمد ونديم .. ان أخي محمد يريد ان يثير اعصاب اخي نديم .

فعقب نديم : يا جبل ما يهزك ريح .

وينظر عادل الى محمد بعيني ثعلب شديد المكر وقال : سامع ؟ .

فرد محمد : دعه .. لم تصقله الحضارة بعد ..

انتزع نديم فلتر السيكارة التي يدخنها ورماه على الطاولة امام محمد : خذ .. هذه هي الحضارة وطرف سليمان باحدى عينيه وقال كأنه يخاطب نديما باستنكار : لماذا لا تدخن ((ناعورة)) مثلي ؟ ..

فتصدى محمد : انه التبذير .

وعقب عادل : بل قل اموال وزارة الثقافة ..

صاح نديم : فرد .. ماذا اعطتني وزارة الثقافة ؟ . لنا عندها شقفة معاملة ، كلما هم وزير بتوقيعها تبدلت الحكومة ..

قال خميس الوزير الحالي صديقك ..

قال نديم : الذين سبقوه ايضا كانوا اصدقائي ..

دخل نويل .. بدا أول الامر خلف الزجاج ينتفض تحت المطر كطائر تاه عن عشه ، فأشار له سليمان ليدخل وهو يقول : جاء من عمان ، ذهب اليها ليجلب مجموعات من الطوابع التذكارية عن زيارة البابا ليرسلها الى عميل له في ايطاليا .

القى نويل التحية .. فسأله عادل : هل كنت في الاردن ؟ ..

رد نويل : أجل ...

راح سليمان يصفق وينشد : ((ما بيتحول .. ما بيتحول .. نهر الاردن ما بيتحول)) .

صرخ الياس : اقلبوا الورقة يا شباب .. ما رأيكم في أكلة فول عند ((ابو حسن)) ؟

سأله محمد : ابو حسن ؟ أين مكانه ؟ .

فعقب عادل : معلوم .. زبائن ((الستريو)) لا يمكن ان يعرفوا مكان ((أبو حسن)) .

فرد محمد : كفرنا وسهرنا مرة بالستريو ؟ هل ستظل هذه السهرة لعنة تلاحقنا ؟ .

اي سيدي .. انا أول الذاهبين .

قال سليمان : هيا .. نويل ، امش معنا ..

فرد نويل : اما انا فأعتذر ، انني متعب من السفر ، سأذهب لانام .. وسار نويل .

فصاح به نديم : نويل .. ارسل الى ايطاليا مع الطوابع صور النازحين .

***

حبات السبحة تطقطق في يدي العجلاني وهو يجلس ساهما مفكرا في صحن الدار وأمامه خميس يتأمل الحبات المتدافعة المتلاحقة (أطفال القرية في الساحة يقذفون الكرات الزجاجية الصغيرة الملونة، ويثيرون خلف اقدامهم العارية زوابع من الغبار .. كم كان ((فهد)) بارعا في قذف الكرات ، كان يجمع كل اصيل ما يملأ حضن ثوبه من هذه الكرات ، يغسلها امام صنبور المخفر ليبيعها بسعر مخفض في دكان ذنون العقلة)) ..

وتنبه على سؤال مفاجيء للعجلاني : كيف يصير الناس فدائيين ؟

ـ لا أدري .. هل تريد أن تصبح فدائيا ؟ .

ـ لا .. الفدائي يموت ، وانا اخاف الموت . لا اتصور ان تعلق ورقة نعي بأسمي في السوق .. اريد ان اظل في دكاني ، وان اتزوج فريزة بنت ابي سليمان ، وان اجمع ثمن بيت واتخلص من دفع الاجار لام محمد ..

ـ لم يطلب منك احد ان تصبح فدائيا ..

ـ ولكنني معجب بأعمالهم .. انهم ابطال .. أليس في دفترك شيء عنهم ؟ ..

ـ لا ...

ـ ألم يكن من الافضل لو كتبت عنهم بدل ان تكتب قصتي مع فريزة ، وقصة ام محمد مع خسروف باشا ..

ـ سأكتب اليوم عن الفدائيين .

ـ ماذا ستكتب ؟

ـ سأقول ان الفدائيين اصبحوا فدائيين من أجل ان يظل حسين العجلاني في دكانه ، ومن اجل ان يتزوج فريزة بنت ابي سليمان ، ومن اجل أن يجمع ثمن بيت يسكنه .

ـ من اين تركب هذا الكلام ؟ . انني لا ادري أن كنت كاتب عرض حالات ام حكواتيا ام طالبا في كلية الطب .

ـ شرحنا اليوم جثة ميت في المشرحة .

ـ ميت ؟ . هل دهسه باص ؟ .

ـ لا ...

ـ كيف مات اذن ؟ ..

ـ مات بالسكتة القلبية ..

***

قالت ام محمد وهي تضع صينية القهوة : نحن اليوم في اليوم العا ..... قاطعها خميس : خذي .. هذه هي الاجرة ..

ـ سألت عنك فقال لي حسين انك سافرت الى القرية .. هل استمعت الى الاخبار ؟ .

يقول الراديو ان اليهود ضربوا مصر .. نسيت أن اوصيك لتجلب لي بعض الفريكة من القرية .

(امس .. كان في لقاء مع قريته بعد سنوات من الغياب .. كالغريب المجهد عاد اليها تحمله سفينة لم يبق منها سوى اخشاب متعبة وشراع ممزق .. عشر سنوات وهو يطوف في خضم المدينة الهائج الوسيع دون ان يلوح له شاطيء يسند جبهته الى رماله .. عاد اليها والصفار قد شبوا ـ هل كبرتم لتحملوا بدوركم هم المعركة ؟ . لتجهدوا بالعزم والدعاء حتى لا نفرغ اكياس الدقيق ، وحتى لا يهاجمنا الجراد ـ؟ .

ويتأمل البيوت الطينية المتداعية ، ويكاد يحتضنها ويذر حباتها في عينيه حتى تسيح دموعه وتغسل ما علق في العينين من أوشاب العتاب .. في يوم خريفي ، منذ عشر سنوات ، حمل زوادته الفقيرة ورحل عنها يبحث في المدينة عن المستقبل والمعرفة ، ولكن المدينة ظلت حوله ضجة ساخرة وكأنه عدوها الاسطوري الذي تنتظره منذ اجيال) .

***

وضعت ام محمد صينية القهوة وقالت : هل استمعت الى الاخبار ؟ .

ـ الاخبار .. دائما الاخبار .. منذ سنتين والكل في دوامة الاخبار : ((المخبر .. حزيران .. جثة باردة في المشرحة .. مئة مليون .. مئة مليون .. البترول .. فريزة .. ساق فريزة . جزء من فخذ فريزة .. طقطقة حبات السبحة .. مجنزرة .. نصف مجنزرة . مجنزرة .. حزيران .. حزيران .. ما بيتحول نهر الاردن .. ما بيتحول .. وادي عربة .. ام محمد .. خسروف باشا .. حكواتي .. الحدود .. الاسوار .. الحدود بين مراكش والجزائر .. بين اليمن واليمن .. بين درعا وعمان .. السكر يهرب من عمان .. الراحة تصنع في درعا .. حزيران .. الاسوار خارج المدن .. الاسوار داخل المدن .. عدوان جديد على القناة .. القدس للعرب .. قامت احدى وحداتنا بضرب ميناء ايلات بالصواريخ .. طائرات .. ميراج .. سوخوي .. ميغ .. ميراج .. تل الفخار .. فانتوم .. جليبينه .. سنتوريون .. الكرامة .. حرب التحرير الشعبية .. قفز بالمظلة .. التصميم .. نحن الشعب .. نحن الشعب .. الغضب يتطاير من عيني صقر .. امامه هدف واحد : ان يسقط الطائرة العدوة .. يزغرد المدفع بين يديه شجاعا ، وفيا ، دقيقا ، يتبادل المريض والطائرة قذيفتين .. تسقط الطائرة محترقة .. يسقط صقر شهيدا وعيناه ترصدان زحف رفاقه المتقدم عبر الافق ..

***

ـ ام محمد .. ما رأيك بالفدائيين ؟ ..

جان الكسان

إشارات في طريق «بلوك» الشعري

بقلم حسب الشيخ جعفر

يمكن تحديد مرحلة الابداع الفني للشاعر الروسي الكساندر بلوك بين عامي ۱۸۹۸ – ۱۹۱۸ . وعبر هذه الفترة كان قد عاش وعانى عملية تطور وعيه الاجتماعي والفني المعقدة . لقد بدأ بلوك شاعرا غنائيا « ذاتيا » دائرا حول نفسه وحدها ، ولم تتفتح ، بعد ، امامه الآفاق الاخرى ، آفاق القصيدة البلوكية . كان عالمه آنذاك مغطى بالضباب والاحلام والسكون الصوفي الغامض . مجموعته الشعرية الاولى « قصائد عن السيدة الرائعة » كانت تحفل باحاسيس وتطلعات انسان حائر ، مترنح ، في عالم يفر من يديه دون ان يمسك منه شيئا . لم يكن يعبأ بعالم الاشياء والناس الذي يحيطه . لانه وجده عالما فارغا كالجوزة الفارغة التي لا يعني انفجارها شيئا . كانت الاشياء تفقد في اصابعه اي لون او طعم . وكانت عيناه التائهتان تتعلقان باذيال أطياف « سماوية » هاربة . كان يراها حلما « رائعا » سوف يتجسد على الارض .

لم يكن بلوك يملك ، يومئذ ، علاقة ثابتة مع العالم ، مع الآخر . لم يكن يريد ان يلتفت الى الآخر .. لانه لا يعني شيئا بالنسبة له بقبحه وانهياره كانهيار الجدار المنخوب ، لقد تفتحت عيناه على واقع مهزوز ، متهرىء ، ملطخ الوجه بالاصباغ الرخيصة .. كانت الروح تهفو الى شيء آخر ، شيء « رائع » على نقيض تام مع الوجه العجوز المتغضن ، المتلفع باسمال راجفة في ريح الخليج الفنلندي . كانت روسيا الهرمة تحتضر .

كان بلوك ينطلق في قصائده ، يومئذ ، من موقف الشعراء الرمزيين . وقد كان همهم الوحيد « الفرار من شواطىء العالم المتهرىء » . كان بلوك كغيره من الشعراء الروس الرمزيين الشباب هائما في عالم الشاعر والفيلسوف الروسي الرمزي « سولفيوف » . وفي افكار سولفيوف وجدت الفلسفة الافلاطونية والافلاطونية المحدثة استمرارا جديدا لها في موضوع ثنائية طبيعة العالم والتناقضات القائمة بين الواقع وماهية الوجود المثالية . ليس العالم الواقعي الا ظواهر عابرة يقابلها عالم الغيب ، عالم المثل الازلية ، عالم « الواقع » السامي الاصيل ، ليس العالم الواقعي الا انعكاسا مشوها « متوهجا » ببريق الاشياء المرئية والمفهومة بالتجربة . وحين يؤكد سولفيوف الترابط بين عالم « المثل الازلية » وعالم الظواهر العابرة ، يذهب الى ان الواجب الانساني هو اعادة توحيد الارضي والسماوي عبر « الوصول » الصوفي الى العالم العلوي .

وفي هذا الوصول يكمن كنه النشاط الفني عند الانسان .. الذي يستطيع بقوة تطلعه الروحي ، بقوة بصيرته الصوفية ان يثب الى « مشروع العالم الاول » ويدرك جوهر الظاهرة الداخلي ، الكامن خلف حدود التجربة الحسية ، ويلمس « النار الالهية » التي تلتهب تحت قناع المادة الهامدة .

كانت الشخصية المركزية في اعمال هذا الفيلسوف الروسي الصوفي هي روح العالم – الانوثة الازلية ، والتي يمكن تصورها كالبداية الالهية المطلقة والشاملة ، والتي ينبغي ان تهبط على الارض ، وتبعث في الانسانية « الهالكة » حياة جديدة .

من هنا تبدأ معاناة الكساندر بلوك الذاتية ، وتحسسه « للسقوط » التراجيدي للعالم القديم ، عالم روسيا المحتضرة . كان بلوك يقول : « انني ارى في قلق هذا العالم الهائل بداية النهاية الشاملة الكبرى » . الشيء الذي ينبغي ان نؤكده هو ان بلوك حاول ان يبني على صوفية سولفيوف « الارضية » آماله في تجديد العالم . كان بلوك يحلم بانسان المستقبل الشمولي الرائع .. انسان الانسجام المطلق . كانت « روح العالم – الانوثة الازلية » تعني بالنسبة لسولفيوف طبيعة العالم الموحدة الداخلية ، التي تعيش في جميع الظواهر ، والتي تجسد الوحدة المثالية العالية ، وتمثل الهدف والمعنى في عملية التطور التاريخي العام . وداخل مثل هذا الاطار « الكوني » ، في قصائده الاولى ، وجد الشاعر منطلقا للفكرة التي التهمت روحه طويلا ، فكرة التوافق بين حياة الانسان الذاتية والوجود الكوني المطلق ، احساس بامتزاج نفسه « المتفردة » مع « روح العالم » الموحدة الشاملة . « أنا والعالم » كان هذا منطلق بلوك الشعري ، الذي يؤكد توافق واتحاد الانسان الفرد بالكون .

ان الفكرة الاساسية النفسية في مضامين « قصائد عن السيدة الرائعة » تتلخص بالاحساس ، عبر معاناة ذاتية ، والشعور بالوجود الكوني الابدي ، الذي يفتح الطريق من ظلام « الليلة المدلهمة » الى النور العظيم « للنهار الآتي » . غير اننا نتلمس رغم هذه التطلعات الصوفية الباردة تقاطيع « انسانية في وجه السيدة الرائعة .

ومنذ عام ۱۹۰٤ كان بلوك قد اخذ يبتعد عن صوفية سولفيوف ، ولكنه ظل يتلفت اليه حتى في اخريات

أيامه . لقد انفتح امامه عالم آخر .. دستويفسكي . كان دستويفسكي يأخذ بيدي بلوك المرتجفتين ، وبخطى شبحية ، عبر ضباب « المدينة » المرعبة . وقد اخذت تظهر قصائد « المدينة » ولكنها لم تزل مسربلة بالغموض والدهشة « الاولى » . لقد انكشفت امامه المدينة بكل تناقضاتها ، بكل عريها المفضوح . كان بلوك ، يومئذ ، يقول : « لقد كنت اعرف قبل الثورة الاولى (١٩٠٥) بان التعاسة والتوتر في كل مكان ، وبان الفاجعة آتية لا ريب فيها » . كانت ثورة ١٩٠٥ قد ازاحت الستار عن « وجه الحياة وقد استفاقت توا من النوم » . ولم يكن تفسير بلوك ، بالطبع ، لمشكلة الثورة الروسية، تأريخيا وسياسيا، بالتفسير « الثوري » . لقد اختلطت الاحداث بالنسبة له ، ودخلت الثورة ، عنده ، في تناقض « قدري » مع مشكلة مصيره الشخصي نفسه . كان بلوك يفهم الثورة كعقاب عظيم وعادل لا مفر منه ينزله الشعب باعدائه انتقاما لاوجاعه وتعاساته عبر القرون المظلمة الطويلة . كان بلوك يتمزق باعتقاده ان هذا العقاب العادل نازل به هو ايضا . لقد كان الشاعر ينتمي الى عائلة ارستقراطية. ولا شيء يستطيع انقاذه ، لانه هو ايضا ينتمي الى « العظم الابيض » ، ولانه لم يزل ينوء تحت اثقال من « خطايا الآباء » .

كان بلوك يرى مهمة الكاتب والفنان في ان « يعري روحه امام اولئك الجائعين روحيا » . كان يرى ، في ذروة تطوره الفني ، ان الثقافة هي اكتمال الوعي ، روح التماسك الموسيقي ، نظرة شاملة على العالم ككل . مثل هذه الثقافة كانت تشير الى العصر الموسيقي العظيم ، عصر « الانسانية » . كانت مسألة « الانسان الجديد اكثر المسائل الاجتماعية اهمية بالنسبة الى بلوك . وكانت بدايات هذه المسألة تلوح في مفاهيمه الفنية الاولى : انسان المستقبل ، انسان الانسجام التام . والاضافات الجديدة الى هذه الشخصية المثلى هي عنصر « الفنية » والفعل والحماس ، وهي ايضا تحس نفسها متحدة بالوجود الكوني ، منطلقة في تطوير قواها الروحية والبدنية . لقد وجدت هذه الشخصية تجسيدا رائعا لها، وان لم يكن مكتملا تماما ، في ملحمة « العقاب » والتي بدأ كتابتها عام ١٩١٦ . وقد امتدت هذه الخطوط الجديدة الى اعماله المسرحية الشعرية ايضا . وكان قد تعرف على اعمال ستردنبرغ الدرامية والتي تركت عنده اثرا هاما .

لقد بدأ العنصر التاريخي يدخل اشعار بلوك المتأخرة كشخصية مركزية ، متمثلة بالروسيا . وقد بدأ هذا واضحا في مجموعة « العالم المخيف » وملحمة « العقاب » وفي مسرحيته الشعرية « الوردة والصليب » ولقد كانت اكثر اعماله المسرحية الشعرية اقترابا من « الواقعية النقدية » رغم اطارها « التراجيدي الابدي » .

في عام ١٩١٧ كان قد انهار عالم باكمله . ولم يعد سولفيوف الا شبحا مرعوبا متلفعا في ضباب الشطآن . وكانت مكتبة بلوك ، في منزله الريفي ، قد امتدت اليها ايدي الموجيك الخشنة واحرقتها .. كان بلوك بالنسبة لهم « سيدا برجوازيا » ينبغي ان ينتهي تماما .. لان القصر الشتوي نفسه قد تلوثت سلالمه المرمرية الرائعة بوحول احذية الجنود الحمر . وكان مايكوفسكي اذا ما تذكر بلوك تذكره طيفا تائها بعينين مذعورتين منتظرا على الساحل الفنلندي ظهور السيد المسيح آتيا اليه مشيا على الامواج . لكن بلوك لم يكن كذلك تماما .. كما انه لم يكن « سيدا برجوازيا » . كان ايضا يتمزق من اجل الروسيا الكبيرة . كان « ثوريا » على طريقته « الكونية » الخاصة . كان في غرفته يدق بمطرقته « الشعرية » على الرأس البرجوازي الهرم .

كانت ثورة ١٩١٧ بالنسبة لبلوك « بداية الحياة » . كان يرى اهمية الثورة في انها توقظ الانسان كليا الى الحياة ، وتفتح اعماق الوعي التي ظلت مقفلة بقوة . ولقد كانت الثورة تلتهب في شعره ايضا . لقد طلع بملحمته الجديدة « الاثنى عشر » . كان بلوك يؤكد ، خلال كتابته هذه الملحمة وبعدها بايام ، انه قد أحس بضجيج هائل ، يدور حوله . ولعله ضجيج انهيار العالم القديم . ولكنه جعل المسيح ، رغم كل هذا ، يتقدم جنوده « الاثني عشر » الحمر . أهو تأكيد على اتحاد الارضي بالسماوي ؟ ربما .

قصائد مختارة

... ... (1)

كثيرا ما التجيء الى الهياكل المعتمة
واقوم بطقوس مسكينه ،
متوسلا ان تلوح السيدة الرائعة
في تألق القناديل الحمر الخافت .

وفي الظل عند العمود الاشم
ارتجف لدى كل صرير ينبعث من الباب .
وفي الوجه مني تحدق
الصورة المضاءة وحدها ، طيف منها ليس غير .

آه لقد تعود البصر على هذه المسوح
التي تسربل الزوجة الازلية .
وعاليا تتراكض على الافاريز
البسمات والخرافات والخيالات .

آه ايتها الطاهرة ، لكم هي حنونة تلكم الشموع
ولكم هي سارة تقاطيعك .
لا الزفرات اسمع ، ولا الهمسات
انما أنا على يقين : حلوة انت .

١٩٠٢ من مجموعة « قصائد عن السيدة الرائعة »

الغريبة

فوق المطاعم ، في ساعات الفسق المسائي
يمر الهواء الحار سريا وخافتا ،

١ — لم تكن القصيدة تحمل عنوانا في الاصل .

ويسوق ولولة السكارى
روح ربيعي قاتم .

وبعيدا ، على غبار المنعطفات
وكآبة اكواخ الضواحي ،
يلتمع ذهب كعكة غاربة
ويرتفع انين طفل .

في كل أمسية ، عبر حواجز الطرق
بقبعاتهم المائلة بصلافة ،
يقود الرجال ذوو الذهن الحاد
سيداتهم عبر الخنادق الجافة .

وعلى البحيرة تصر مقابض المجاديف
وتعلو صيحات نساء ثاقبة ،
وفي السماء ، مثلما تعود ، في وجه كل شيء
يمط قرص شفتيه باحتقار .

وفي كل امسية ، صديق واحد
أراه مرتسما في قدحي .
وبتأثير خمرة سرية ولاذعة
مذهول مثلي ومهجور .

وبين الموائد المجاورة
يتسكع خدم يغالبهم النعاس ،
ويهتف سكارى لهم عيون الارانب :
الحقيقة في الخمر .

وفي كل امسية ، في ساعة معينة ،
(أم ان هذا يخيل لي وحدي ؟)
قامة شابة ، ملتفة بالحرير ،
تلوح في ضباب الشباك .

وبخطى بطيئة ، تتقدم بين السكارى ،
وحيدة دونما رفقة ،
وبانفاس ضباب وارواح ،
تجلس لدى الشباك .

حريرها الفضفاض
يفوح بعقائد غابرة ،
قبعتها بريش نعام جنائزي ،
ويدها النحيلة بخواتم .

أجدني مكبلا بقرابة عجيبة
متطلعا عبر عتمة النقاب ،
فأرى شواطيء فاتنة
وابعادا خلابة .

أسرار مهجورة مودعة لدي ،
وشمس ما قد وضعت في كفي ،
وكل منعطفات نفسي
قد دمرتها خمرة لاذعة .

ريش النعام المقوس
يرتجف في دماغي ،
وعينان زرقاوان لا قرار لهما
تزهران في الضفة النائية .

في صدري يختبيء كنز
مفتاحه أعطي لي وحدي .
محق انت ايها الغول السكير
أنا ادري : ان الحقيقة في الخمر .

١٩٠٦ من مجموعة « المدينة »

كليو بتـرة

متحف الشمع الكئيب ، وقد مر عليه
عام وثان وثالث ، ولما يزل مفتوحا .
ونحن نحث الخطى اليه
حشدا من السكارى والوقحين ، حيث تنتظر الملكة ..

مستلقية في تابوتها الزجاجي
ليست بالحية ولا الميتة .
وهمسات الآخرين القذرة
تدور حولها دونما انقطاع .

متمددة ، على طولها ، بكسل
لتنسى الى الابد ، ولتغفو الى الابد ..
وبلطف وتأن
تلدغ الافعى ثديها الشمعي .

وانـا الخاطيء الدنس
بدائرتين زرقاوين حول عيني
اتيت لاتمتع بمنظر جانبي
من الشمع ، يعرض تحت كل عين .

كل صعلوك بمقدوره ان يحلق بك الآن
ولو لم يكن تابوتك فارغا
لسمعت شفاهك الرماد
وهي تزفر بهمستها المتغطرسة .

قربوا مني المجمرة واكاليل الزهر
انا التي كنت في غابر الزمن
ملكة مصر المتوجة
لست الآن الا شمعا . أنا العدم ، أنا الهباء .

ايتها الملكة ، أنا أسير يديك .
عبدا رقيقا كنت بالامس في مصر
وقد حكم القدر بان أصبح اليوم
شاعرا وملكا .

اتراك تبصرين عبر زجاج التابوت
ان روسيا ، مثل روما ، مخمورة بك ؟
وانـا وقيصر
نملك المصير نفسه عبر القرون ؟

صمت . لم تكن مصغية
غير ان صدرها يخفق بلطف

عبر الغلالة الشفافة .
وكنت أسمع همسا خافتا يقول :

يومذاك كنت سيدة العواصف
واليوم انتزع اكثر الاشياء حرقة :
دموع الشاعر المخمور
وقهقهة البغي المخمورة .

في المطعم

أبدا لا أنسى (كان ، أم لم يكن ،
هذا المساء) : بلهيب الغسق
توهجت السماء الشاحبة ،
وتفتحت القناديل في الصفرة .

في القاعة المزدحمة جلست حيث الشباك
وثمة اجهشت اوتار عاشقة .
بعثت اليك بوردة سوداء في قدح
مترع بخمرة آي الذهبية كالسماء .

التفت . قابلت بتحير وتحد
نظرتك المتكبرة وانحنيت .
ومتعمدة قلت لرفيقك في حدة :
وهذا ايضا عاشق .

وفي الحال بشيء ما أجابت الاوتار مدوية
وبجنون ترنحت الاقواس .
وكنت معي باحتقارك الفتي
وبرعشة تكاد ترى في يديك .

واندفعت كطائر مذعور
ومررت رقيقة كحلم
فشهق العبير ، ونعس الهدب
وبقلق تهامس الحرير .

ومن اعماق المرايا القيت لي بنظرة
صارخة : خـذ ..
ووسوس العقد ، وتمايلت الغجرية
واعولت باكية الهوى .

١٩١٠ من مجموعة ((العالم المخيف))

هــوان

في فتائل الشجر العاري السوداء
خلف النافذة ، يتعلق الغروب الشتائي الاصفر .
(الى منصة الموت ، يساق المحكومون بالاعدام
في مثل هذا الغروب .)

قطيفة الارائك الحمراء الباهتة
وشراشيب الستائر المغبرة ..
في هذه الغرفة الضاجة برنين الاقداح
تجد التاجر والتلميذ والضابط ومحتال القمار .

تصاوير هذه المجلة الخليعة
ما لامستها الا يد غير بشرية ..
وخسيسة هي اليد التي داست
على زر هذا الجرس القذر .

اسمعي ! على السجاد الناعم
ترن المهاميز والضحك المختنق بالابواب المقفلة ..
ترى أهذا بيت ؟ أهو في الحقيقة بيت ؟
ترى هكذا هي علاقات الناس ؟

أأنا سعيد بلقاء هذا اليوم ؟
وبوجهك الابيض كالمنديل ؟
وبهذا الغروب البارد الهائل
الذي يخفق في اكتافك العارية ؟

الشفاه وحدها بقطرات دم خاثر
على ايقونتك الذهبية
(ترى قلنا ان هذا غرام ؟)
ارتسمت خطا مجنونا ..

في الغروب الشتائي الهائل الاصفر
غرق (يا للجلال !) السرير ..
لكم يضيق النفس من العناق ،
وانت تصفرين وتصفرين ..

لم يكن مرحا هذا الصفير المقابري ..
اسمعي ! مرة أخرى ، حفيف الستائر .
وكالافعى ينزلق من الاريكة على السجاد
ذيل ثوبك الثقيل ، المغبر ..

جريئة انت ! ولتكوني اكثر جرأة !
ما أنا زوج لك أو خطيب أو صديق .
لتغرزي ، يا ملاكا كان لي بالامس ،
عميقا في قلبي كعب حذائك الفرنسي المسنون .

١٩١١ من مجموعة ((العالم المخيف))

بغداد — حسب الشيخ جعفر

مأساة أبي ذرّ

اللازمـة :

تنشف في صيف الصحارى غنوتي للحب
يصدأ فيه القلب .
فلتعبري الأسوار ، ولتعانقي مآذن الآلام
يا لحظة انتفاضة طارتْ ، وما استطعت أن أطير .
مدينة الأنصار نامي في ظلال السور
ولأبق خلف ليلك .. المهاجر المهجورْ

((صوت))

في القرن الأول للهجرةْ
في حمأة مجد الانسانالأكرم.. يا أكرم خلقالله :
جعنا ، عرِّينا ، شرِّدنا
يا سيدنا ، يا منقذنا

ـ المشهد الأول ـ

من البدوي ، يلهث تحته الدرب ،
وتخجل مـن لظاها الشمس ، حين يموت فـي الصحراءْ
على زنديه .. فوق جبينه النادي ؟
من القـدر المزمجـر فـي السلاسـل : (آن يا ((خضراء)) ..
.. أن تفترَّ أسواركْ
عن الجرح الذي ، في أخريات الليل ، زين مجدك العاهر ؟)
من الـ ..
وارتجت الصحراء تحت صهيل «حيزومه» .
ـ اذن أنتا ؟
اذن ، بئس العجائب ، يا ندى الوديانْ
ويا حباً نسانا بعده الحبُ .

ـ المشهد الثاني ـ

حملت عنكم كل صلبانكم
وكل جرح تحت تاج شوكْ ،
وصحت في حضرته : (يا أيها السلطان
((وللمساكين ، ومن ضل سبيل دهره في مالكم حقوق)) ،

وها هم في البابْ
تنجهم عيناك والكلاب .
قال ، عليه الله صلى ، عنك ، لي الرسولْ
وما كذب :
((اذا تولى أمة ، فلتقل السلامْ))) .
فصاح بي : كذاب ،
وحينما أستشاركم ، صرختم ، وقلتم : كذاب .
يا زمر الذئاب
ليبتن فوقكم ما شاء من قباب .

((صوت))

يا فارسا مر مع الفجر
زنداه غيمتا ندى ، وفي جبينه
يعيش حياً ، خالدا .. ما عاش ، اسم اللهْ :
كسرة خبز من وراء السور
قطرة ماء من وراء السورْ
كسرة .. جعنا ، قد عرينا ، آه يا اطلالة العمر
يا فارسا مر مع الفجر
زنداه غيمتا ندى ، وفي جبينه
يظل حياً ، خالدا .. ما عاش ، اسم الله .

ـ المشهد الثالث ـ

عيناي في الرمل ، وخلف الليل والنهارْ
حبي يغني : يا ظلال الغار
تاجي من الصبار
وفي فؤادي نار
وأنت لا طيفا ، ولا فجـراً ، ولا عنـد الضحى تأتين . والاشعارْ
في داخلي تنأى ، وأخشى بغتة أنهار .

اللازمـة :

تاجي من الصبارْ
وفي فؤادي نار
فلتعبري الأسوار ، ولتعانقي مآذن الآلام
يا لحظة انتفاضة طارت ، وما أستطعت أن أطير

البصرة ـ العراق

شاكر العاشور

ابعــاد البطولــة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٣ ـ

الى اشقائها شعراء الارض المحتلة :

على ابواب يافا يا أحبائي
وفي فوضى حطام الدور بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين :
قفــا نبــك
على اطلال من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الدار
وتنعي من بناها الدار

هكذا تابعت نفسها لحظة بلحظة ، من الوقوف على الاطلال الــى ان مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية ، فقد التقت بعد الهزيمة الاخيرة بوجه آخر للمأساة ، وجه « الشعب » في مجموعه لا وجــوه الفرسان الفرادى التائهين في بيداء العواطف الجامحة بغير ان يركبوا الجواد الاكثر جموحا . لقد عثر الفارس الاكبر ـ الشعب ـ على حصان جاوز كبوة الامس ، هكذا تقول مهللة كالاطفال بالاكتشاف الجديــد ، وتبدأ في رسم خط سيرها من جديد :

أحبائي مصابيح الدجى ، يا اخوتي في الجرح
ويا سر الخميرة ، يا بذار القمح
يموت هنا ليعطينا
ويعطينــا
ويعطينــا
على طرقاتكم أمضي
وها أنا بين أعينكم
ألملمها وامسحها دموع الامس
وازرع مثلكم قدمي في وطني وفي ارضي
وازرع مثلكم عيني في درب السنى والشمس

ان اهمية هذه القصيدة ، وعنوانها « لن أبكي » انها تؤرخ لتطور رؤيا البطولة والمقاومة عند الشاعرة ، فلم تعد البطولة لفرد تثقل علــى وجدانه وطأة الذكريات ، وانمــا أضحت البطولة لشعب يرسف فــي الاغلال ، ولم تعد المقاومة سيراً على الاقدام الى المــوت انتحارا عارضا فوق الثرى المقدس ، وانما امست معاناة هائلة فــي درس لغــة العدو ومقاومته بسلاحه ، والموت ـ ان حدث ـ فهو جسر « الاضطرار » الى الحرية وليس بذرة سلبية كامنة فــي البطل التراجيدي ، ذلــك ان الصراع في جوهره صراع ملحمي. وتقدمت فدوى في صياغتها الجمالية تقدما واضحا ، فالاقصوصة الشعرية يتماسك بناؤها على نحو لا يسمح بهذه المطبات والفجوات التي نسقط فيهــا ونهبط فــي قصائدها السابقة . ان « متابعتها » لنفسها لحظة بلحظة لا تدع لهـــا فرصة السرحان والتيه ، وانما هي تؤرخ لنفسها مــن خـــلال شعبها وتؤرخ لشعبها من خلال نفسها في محاذاة التطور الهائل للمقاومة الفلسطينية على ارض الفداء . لقد اختفت نبرة النبوة ، وظهرت نبرة المؤرخ ، وهي النبرة التي تصوغ بطولة « الفدائي » الفلسطيني عبر الحوار معــه مــن زاوية الفن ، وجدلية الموت والحياة من زاوية الفكر . وفي هذه المرحلة الجديدة يظل التركيز واضحا على البعد القومي ، بينما يتوارى البعــد الاجتماعي ليفسح الحلبة امام بعد جديد هــو البعد الانساني . فــي قصيدتها « مخاض » تقول :

الريح تجدل الدخان في الجبال
وفي دروب الليل والاعصار
تنهمر الصخور والاحجار
سوداء بالرمــاد
سوداء بالدخان
فلتنهمر كما تشاء هذه الصخور
ولتنهمر كما تشاء هذه الاحجار
فالنهر ماض ، راكض الى مصبه
وخلف منحنى الدروب ، في رحابة المدى
ينتظر النهار
من أجلنا ينتظر النهار

كما واكبت الشاعرة نفسها وشعبها ، تواكب هنا البطولة الجديدة البازغة بين الريح والدخان ، وبين الصخور والميــاه ، وبين منحنــى الدروب والنهار . وهي البطولة البعيدة عن « مفاجآت » نزار قبانــي لانها تنبع كما قلت من جدلية الموت والحياة ، فليس الموت وحده ـ كما كانت فدوى نفسها تقول قبل الهزيمة ـ بكاف لاثبات الوجود ، وانمــا تولد الحياة من باطنه اذا كان الهدف مــن الموت للبطل هو الحيــاة لشعبه . أما الموت في ذاته ، ومن أجل ان نوسد الثرى المقدس فانــه قيمة رومانتيكية حالمة تواكب الشاعرة المقاومة الفدائية ـ بانتصاراتها وانكساراتها ـ مواكبة حية دافقة بالصدق والواقعية ، وليس « النهار » المنتظر في رحابة المدى الا ايمانها ويقينها بصحة « الطريق » الجديد ، المفضي في نظرها ، الى الحياة ، ولــو كان الموت ـ لافراد اختاروه اضطرارا ـ ثمنا لها . ثمة نهر يركض الى مصبه ، مهما عاقته الصخور والجنادل ، هذا النهر العظيم هو الشعب الفلسطيني . والريح التي تجدل الدخان في الجبال هي ريح المقاومة الفدائية . والنهار المنتظر هو مستقبل هذا الشعب وتلك المقاومة . هكذا تنهض الصياغة الجمالية للقصيدة على ساقين راسختين من الرمز الشفاف والصورة الكثيفة، من النغم المعبر عن التوتر وان تمزقت اوصال القصيدة الى مقاطع ، الــى أشطر ، الى كلمات ، الى أحرف ، وهكذا ترتفع قامة الشعر في انتــاج فدوى الاخير ، لان الشعر في حياتها الجديدة هــو امتداد لحياتهــا القديمة ، جزء من هذه الحياة لا يتجزأ من نسيجها العام ولا ينفصل عن تفاصيلها الدقيقة ولان فلسطين قضية حقيقية في كيان فدوى جــاء شعرها لا « عــن » فلسطين ولا « عــن » المقاومة ، وانما كان شعــرا فلسطينيا مقاوما . على النقيض من الذين اتخذوا من فلسطين ـ كالمرأة سابقا ـ مجرد مناسبة يتغزلون في عربها أو ينوحون على آلامها فالمعنيان سواء .. وعندما تصبح فلسطين وجدانا داميا في كيان الشاعرة يصبح شعرها ايضا وجدانا داميا بغير تعسف او افتعــال ، يصرخ صاحبه لان احدا لا يصدقه ، ويقرر ، لانه لا يثق فــي نفسه ، ويهتف لان الارض لا تسمعه . ويتقدم شعر فدوى ويتخلف شعر الآخرين ، يتقــدم شعرها بتماسكه الذي يعكس صدقه وأصالته ، ويتخلف شعرهم بتفككه الــذي يعكس كذبه وسطحيته .

ولنقارن مثلا بين الحوار الذي يقيمه نزار مع الفدائي الفلسطيني في « فتح » والفدائي عند فدوى في « الفدائي والارض » و « حمزة ». في قصيدة « فتح » يكتفي الشاعر بالتعبد في محراب المعجزة واستمطار اللعنات على جيلنا واستجداء الرحمة من أجيالنا القادمة . اليأس فــي القصيدة بلا مبرر ، والامل أيضا بلا مبرر . ومرد ذلــك انعدام الصدق في الحالتين . أما فدوى في « الفدائي والارض » فتبدأ يأسها مــن ارض الواقع ، من مفكرة الشهيد مازن جودت أبو غزالة :

أجلس كي أكتب ، ماذا أكتب ، ما جدوى القول
يا بلدي .. يا اهلي .. يا شعبي
ما أحقر أن يجلس انسان كي يكتب في هذا اليوم
هل أحمي أهلي بالكلمة
هل انقذ بلدي بالكلمة
كل الكلمات اليوم
ملح لا يورق او يزهر
في هذا الليل

ولكن الواقع نفسه ـ نقطة انطلاق فدوى وليست الذات السادية المتعالية عند نزار ـ يجيب اليأس بالتحدي ، فهـذه الكلمات التـي ورثناها مع الشاعرة من مفكرة الشهيد هي نفسها التي دفعته ـ فـي الواقع والقصيدة معا ـ الى أن يحمل هم شعبه وارضه وكـل اشتات المعنى المبعثرة يختلف أشد الاختلاف عن « نـداء الارض » القصيـدة القديمة لنفس الشاعرة وبطلها الوحيد المغترب بلا سلاح سوى الذكريات. هنا تتحول الذكريات الى حوار عميق مع الام فتسلحه بالايمان . ويسلح نفسه بالسلاح الذي يفهمه عدوه ولا يذهب وحيدا كدون كيخوته العصور الوسطى وانما برفقة الرفاق يقاتل فلا ترسم دماؤه علـى الارض شاهـد قبرة ، وانما ترسم علامة الشوط الذي قطعته رحلـة الفارس الاكبـر ـ الشعب ـ نحو هدفه العظيم . عندئذ لا تحتـاج الشاعرة لان تصرخ « يا أطفالنا » وانما تهمس لنا « يا جيلنا » بغير ان يتحول الهمس الـى لغط ، فأبو غزالة ابن جيلنا الذي تظل دماؤه مـن بعده دليلا هاديـا للاجيال القادمة . فهذه الاجيال لا تولد في فراغ الهزيمة الذي تعلـق فيه نزار ، وانما تولد من خلال المقاومة التي لم ينزل اليها ولم يتعرف عليها ولم يفهم أبعادها . هذه الابعاد التي تدرجت بالشاعرة من اليأس الى الامل بغير انزلاق على جليد المعجزات :

طوباس وراء الربوات
آذان تتوتر في الظلمات
وعيون هاجر منها النوم
... ...
الريح وراء حدود الصمت
تندلع ، تدمدم في الربوات
تلهث خلف النفس الضائع
تركض في دائرة الموت
... ...
يـا ألف هـلا بالموت !
واحترق النجم الهاوي ومرق
عبـر الربوات
برقا مشتعل الصوت
زارعا الاشعاع الحي على الربوات
في أرض لن يقهرها الموت
أبداً لـن يقهرها الموت

واذا كان أبو غزالة قد استشهد فان هذا لا يعنـي بالضرورة ان يكون « الفدائي » عند فدوى مرادفا للشهيد ، فالفدائي لديها « مقاوم » يصادفه الموت أحيانا وتكتب له الحياة أحيانا أخرى كمـا فـي قصيدة « حمزة » . ذلك أن هذا الشعب في شعر فدوى كتب عليه القتال ولـم يكتب عليه الموت كما في شعر نزار . الموت في حياتنا معبر نمر عليـه الى الحياة ، وليس العكس ، لانه اذا كان الموت موتـا فحسب لكـان السكون الابدي هو منطق الحياة ، والاستسلام للامر الواقع هو النتيجة العملية لهذا المنطق . أما اذا كانت :

هذه الارض امرأة
في الاخاديد وفي الارحام سر الخصب واحد
قوة السر التي تنبت نخلا وسنابل
تنبت الشعب المقاتل .

كما تقول فدوى في قصيدتها « حمزة » فـان منطق الحياة هنـا يصبح جدلها وديناميتها ، ويصبح تحـدي الواقـع وتجاوزه باختراقه لا بالتعالي عليه هو النتيجة العملية لهذا المنطق . بل وتلجأ الشاعرة فـي بناء قصيدتها الى هذا الرمز البسيط ، فينسف الاعـداء بيت حمـزة وتهوي غرف الدار الشهيدة ، ويصرخ حمزة صرخة الحيـاة لفلسطين فتجوب بدويها الآفاق مجددة صنع الحياة ، ولا يـزال حمزة مرفـوع الجبين .

ولا تلجأ فدوى الى « تعميم » خبرتها النضالية فـي شعارات وكليشيهات ، وانما هي تبسط أدق التفاصيل الصغيرة في صور تشعرك بألفتها وحرارتها ، تواكب المقاومة البطولية لهذا الشعب مـن اكثر مواقعها تواضعا كهذا الانتظار المرير امام شبـاك التصاريح عنـد جسر اللنبـي :

ويدوي صوت جندي هجين
لطمة تهوي على وجه الزحام :
(عرب .. فوضى .. كلاب .
ارجعوا لا تقربوا الحاجز ، عودوا
يا كلاب)

هذا التوقف المتأني والالتفات المتمعن في اصغر وقائـع الصراع اليومي وادقها هي الخامة الشعرية فـي « آهـات » فدوى ، فليست المقاومة المسلحة الا اكثر التعبيرات صراخا ، ولكن هناك ايضا مقاومـة أخرى يسقط فيها عرق البسطاء ملحا في جفونهم تستحق مـن شاعر المقاومة متابعتها ـ كمـا تفعل شاعرتنا ـ لان هـذا العـرق المالـح فـي


فدوى طوقان

الجفون هو القاعدة الفسيحة التي تتصاعد فوقها المقاومة البطولية حتى تصل ذروتها الهرمية في الكفاح المسلح . هذا الكفاح الملحمي الـذي نتبادل فيه الحياة مع الموت مراكز الوجود ، وتظل « الحرية » هي سدنة الصراح ولحمته ، وهي ليست حرية الفرد الحالـم برائحة الحنظـة والبرتقال ، وانما « حرية الشعب » كما دعت فدوى قصيدتها القائلة :

سأظل أحفر أسمها وأنا أناضل
في الارض في الجدران في الابواب في شرف المنازل
في هيكل العذراء في المحراب في طرق المزارع
في كل مرتفع ومنحدر ومنعطف وشارع
في السجن في زنزانة التعذيب في عود المشانق
رغم السلاسل رغم نسف الدور رغم لظى الحرائق
سأظل أحفر أسمها حتى أراه
يمتد في وطني ويكبر
ويظل يكبر
ويظل يكبر
حتى يغطي كل شبر في ثراه
حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل باب
والليل يهرب والضياء يدك أعمدة الضباب

هكذا لا تصبح الحرية مجـرد نـداء فوضوي اجوف ، ليست ليبرالية عاجزة عن استيعاب قضية الشعب بكافـة ابعادها ، ليست

قرارا او فرمانا يمنحه السلطان لرعاياه ، وانما نضالا داميا ومقاومة بطولية تحقق للانسان وجودا انسانيا ، وتحقق للانسان الفلسطيني وجودا فلسطينيا . تلك هي القضية – المحور في شعر فدوى طوقان الجديد ، وهو شعر يختلف عن شعرها السابق على الهزيمة ، ولكنه امتداد له كامتداد الرجل الناضج من جنين في الرحم غض الاهاب والملامح . وهي ترث الكثير من صياغتها الشعرية القديمة ، ولكنها تضيف الكثير من وحي تجربتها الجديدة . ويظل الفرق بين المرحلتين واضحا غاية الوضوح ، هو الفرق بين الشاعرة المنفية والشاعرة في ظل الاحتلال ، وهو أيضا الفرق بين الموقف الفلسطيني – ولا اقول العربي – عشية العدوان وصبيحته . ولقد كانت شاعرة مقاومة في كلتا المرحلتين ، ولكن مقاومتها الاولى ظلت محصورة في نطاق ضيق صيغ من مادة الحلم ، أما مقاومتها الاخيرة فقد اتسعت دائرة الرؤية فيها حتى لتشمل الواقع الدامي بكل قسوته وكثافته وتعقيده . ولئن كانت فدوى في مرحلتها الاولى اقرب الى روح الانبياء منها الى المؤرخين ، فهي تعكس الحال في مرحلتها الجديدة وتقترب من روح التاريخ وان لم تتخل عن واجب النبوءة . وبالرغم من أن نبوءتها هذه المرة من صلب الواقع ومرارته وليست من وحي الحلم والخيال ، الا أنها تظل مع ذلك محتفظة بالسمات العامة لكل التنبؤات ، واعني بها الرؤيا ذات الالوان والضياء والظلال ، الخالية من تفاصيل خرائط العلماء .

***

اذا كانت المقاومة في شعر فدوى طوقان تشكل تيارا رئيسيا ، فانها في شعر معين بسيسو تشكل الجوهر الشامل لهذا الشعر – فمنذ ان عرف هذا الشاعر منفاه عام الكارثة ١٩٤٨ لم يتقاعد في خيمة من الخيام بل ربط مصيره ربطا عميقا بمصير الوطن الاكبر من ناحية ، ومصير الثورة الكبرى من ناحية اخرى . أي أن معين بسيسو في وقت مبكر قد وحد جرحه القومي في فلسطين بالجراح القومية في الوطن العربي بأسره ، ثم وحد نضاله من أجل التحرر بنضاله من أجل الاشتراكية . ولم يعد معين بذلك شاعر « المنفى » كما هو الحال بالنسبة للكثيرين من الشعراء الفلسطينيين الذين جعلوا من القضية ما يشبه المؤسسة الاعلامية . بل قرر هذا الشاعر منذ البداية ان يكون شاعر المقاومة على المستويين القومي والاجتماعي ، فجاءت ثورته – من ثم – اشمل من ثورة زملائه في الوطن المحتل ، واعمق واغنى من ثورة زملائه في المنفى . توحدت اذن ثورته الفلسطينية بثورة الشعوب العربية كلها على النير الاستعماري من ناحية ، والقهر الاجتماعي من الناحية الاخرى . فلم تكن مصر التي قضى بها زهرة شبابه وطنا ثانيا بل جزءا لا ينفصل عن الوطن الواحد الكبير . ولذلك غنى لها اغنياته الفلسطينية ، كما غنى لفلسطين اغنياته لها ، ففي دواوينه الاولى الثلاث « المعركة » ، « الاردن على الصليب » ، « مارد من السنابل » لن نستطيع ان نعزل نبضة قلبه مع الفدائيين في القتال عن النبضة التالية للمناضلين في الخيام ، لن نستطيع ان نفصل بين خفقة روحه مع بور سعيد والخفقة التالية مع غزة . وهكذا لم « يتخصص » معين بسيسو في مأساة فلسطين بل جعل منها نقطة الارتكاز والانطلاق الى جميع المآسي التي تقبض على عنقه النخيل في الارض العربية كلها .

ولم يتخصص معين مرة ثانية في الجرح القومي الدامي ، بل زاوج بينه وبين مأساة الكادحين في كافة أرجاء الوطن العربي بحيث كانت قضيته ولا تزال على نحو غاية في التركيب لا انفصام فيها بين قهر وقهر ، لان الجوهر العميق المسؤول عن كل قهر واحد لا يتغير . ولكن يظل التحرر القومي في شعر معين بسيسو هو المقدمة الاولى والضرورية لكل تحرر آخر ، سواء كان تحررا سياسيا او اقتصاديا او اجتماعيا او نفسيا . فالقهر الاجنبي يوصد بابا ضخما في وجه اية حريات اخرى يمكن النضال من اجلها اذا غاب عن الحلبة وجهه القبيح .

واذا كانت المقاومة في شعر معين تشكل الجوهر الشامل لهذا الشعر ، لا مجرد تيار ضمن بقية التيارات كما هو الحال في شعر فدوى ، فذلك لان الشعر والحياة قد توحدا في شخص معين وفنه توحدا لا سبيل الى فصم عراه . هو نفسه « مقاوم » يحكي قصته بضمير المتكلم :

أنا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح
واحمل سلاحي لا يخيفك دمي يسيل من السلاح

حين كانت الجماهير المصرية تردد هذه الابيات وغيرها لمعين بسيسو عام ١٩٥١ ، والحركة الفدائية على شاطيء القنال يتعاظم نموها ، لم يكن الشاعر « يكتب » لها بقدر ما كان يعيش معها نضالها لحظة بلحظة : بندقيته في يد ، وشعره في اليد الاخرى . ولذلك جاء هذا الشعر خطابا ثوريا لا قصة تروي ، ولذلك أيضا كان النظم الكلاسيكي هو سبيله الى الاسماع والشفاه . وان كان الشاعر قد رفع السلاح للذود عن مصر ، فانما كان يرفعه في نفس الوقت دفاعا عن وطنه السليب :

البحر يحكي للنجوم حكاية الوطن السجين
والليل كالشحاذ يطرق بالدموع وبالانين
أبواب غزة وهي مغلقة على الشعب الحزين
فيحرك الاحياء ناموا فوق انقاض السنين
وكأنهم قبر تدق عليه أيدي النابشين

هكذا يفتتح قصيدته « المدينة المحاصرة » في ديوان « المعركة » فور انتهائه من قصيدة « المعركة » عن القتال . هذه عن مصر وتلك عن غزة ولا فرق في النسيج والمشاعر المتلاطمة والشحنات المتوهجة بالدم والامل . انه لا يقدم صورة وردية عن غزة السجينة ، ولا يحتمل التهويم المضلل حول أسوارها ، بل هو يلتقط نقطة السواد في قلبها ليحل مكانها لؤلؤة حمراء اسمها الثورة :

هذي هي الحسناء غزة في مآتمها تدور
ما بين جوعى في الخيام وبين عطشى في القبور
ومعذب يقتات من دمه ويعتصر الجذور
صور من الاذلال فاغضب أيها الشعب الاسير
فسياطهم كتبت مصائرنا على تلك الظهور

فهو لا يدعو شعبه الى الثورة كمتفرج خارجي ولكنه يرى المصير وقد كتبه الجلاد نفسه بالسياط على الظهور ، فالثورة قدر هذا الشعب ، حتى ولو هددته الكوارث التي صور جانبا منها في قصيدة « السيول » .. فالموت قد يحفر أخدودا في عين ميته ، ولكنه يرسم صرخة ثأر في شفة لم تمت بعد :

هنا حطام هنا موت هنا غرق
هنا بقايا رغيف عالق بيد
هنا العيون التي تصطك ميتة
هنا الشفاه التي تدعو لثأر غد

وقد عانى معين بسيسو ابان السنوات الاولى من الخمسينات معاناة هائلة ، تجربة الشكل والمضمون في القصيدة الحديثة . كان خطابه المباشر الى الجماهير ، نتيجة انخراطه الواقعي في سلك المقاومة الوطنية والشعبية ، يستلزم منه – اخلاصا للتجربة وصدقا مع النفس – الا يتجاوز ضمير المتكلم الى حدود اخرى . وهذا الضمير يجد مبتغاه في الصياغة الكلاسيكية كأروع ما تكون الصياغة في عمودها الخليلي الصارم بقوافيه وحروف رويه . ولا ريب أن كافة العيوب المأخوذة على البناء التقليدي قد رافقت شعر معين ، ولكن تجربته الذاتية الزاخرة بالصدق والعناء قد امدت هذا الشعر بعناصر الحياة بعد موت اللحظة العابرة فكان يجهد غاية الجهد في البحث عن دروب جديدة ، كما نلاحظ في قصيدته « الى عيني غزة في منتصف ليل الاحتلال الاسرائيلي » بديوان « الاردن على الصليب » .. يقول في خاتمتها :

غزتي أنا لم يصدأ دمي في الظلمات
فدمي نار وفي قش الغزاة
وشرارات دمي في الريح طارت كلمات

وكالوانك يـا قوس قزح
انت يا اكليل شعبي وهو يدمي في القيود
انـنا سوف نعود
وعلى درب كالوانك يا قوس قزح
وستذرو الريح اشلاء الشبح

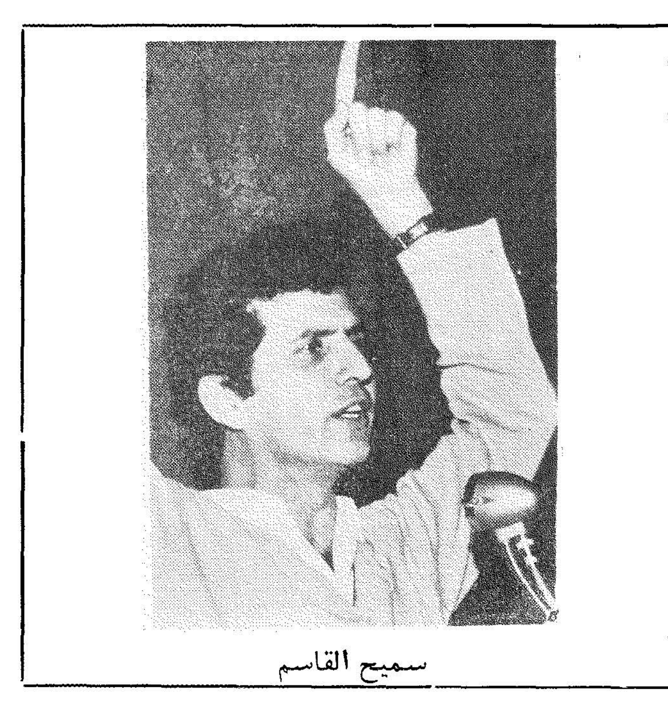
حاول هنا ان يتحرج في القليل عن الضجيج الموسيقي الصاخب ، وان يترك مكان الصدارة للصورة الشعرية ، ولكنه لم يخرج بعد عـن « ذاتية » الشكل ، حتى انه حين يقول « انـنا سوف نعود » تبدو الكلمات كعبارة انشائية باهتة ، لا كحلقة في سلسلة مترابطة الحلقات. وفي « فلسطين في القلب » يجرب المحاولة مـن جديد فيمنح التفعيلة الواحدة حريتها في التلاعب بالوزن ، ويهسي النغم اقرب ما يكون الى الهمس بين اربعة جدران ـ رغم توجيه الخطاب الى بلاده ـ منه الـى توجيه الخطاب في جماهير محتشدة باحد الميادين العامة :

يـا ايـادي
ارفعي عن ارضي الخضراء ظل السلسلة
واحصدي من حقل شعبي سنبلة
فانا لم احضن الخبز ومن قمح بلادي
منذ ان هبت رياح مثقلات بالجراد
نهشت ارض بلادي .

لا تتعدد الاصوات في شعر معين بسيسو السابق علـى الهزيمة الاخيرة ، الا بقصيدته « اله اورشليم » وبتعدد الاصوات تزداد مرامية القصيدة ثقلا وكثافة ، وتخف وطأة الذاتية التي تعانق الشكل الشعري فيما يشبه الحتمية الموسيقية الرتيبة ، وتتسلل نسمة مـن الموضوعية والاتساع والشمول . في « اله اورشليم » يتمثل الشاعر ـ ربما لاول مرة في شعره ـ نغمة عبرية في مزامير داوود يقسم فيها اليهودي بانه ينسى يمينه لو انه نسي صهيون . هـذه الاستعارة الخارجية هـي النسيج الشكلي للحوار بين الشاعر واله أورشليم . وهي تحقق لـه ككل اسطورة او موروث شعبي في الشعر ، سعة موضوعية تضم قضيته برحابة انسانية . يقسم الشاعر اذن انه سينسى يمينه وعيني حبيبته واخيه وصديقه الوحيد :

اذا نسيت
ان بين ثديي ارضنا يبيت
الـه أورشليم
وان من قطوف
دمنـا يعتصر
الشهد واللبن
وخمرة السنين
لكـي يعيش
ويفرخ الوحوش
وكـي اشيـد
مـن الدموع
جدار مبكى وكي احيل
خيمة منديل
وللعويـل
عل الذهاب
بـلا ايـاب
... ...
لتنسني يميني
لتنسني عيون شعبي المفردة
اذا نسيت
ان اغرس الطريق
لصدر بياراتنا وللكروم
سيفا من الجحيم
في عيني اله اورشليم

لاول مرة في هذه القصيدة التي نشرت في ديوان « الاردن علـى الصليب » عام ١٩٥٧ يتحقق لشعر المقاومة عند معين بسيسو هـذه الوحدة العضوية بين اجزاء القصيدة ، فلا ضمور لعضو وتورم لآخـر ، ولا صدأ في هذه المفصلة او تلك التي تربط بين الاعضاء جميعـا ، ولا شحوب أو هزال ولا طراوة او ارتخاء فيما يحيط هذه الاعضاء من لحم ودم وعظم . انها الوحدة الديناميكية العميقة التي حققها الابتعاد عن غلو الذاتية الشكلية والاقتراب من الموضوعية والدرامية . وهـي السمة البارزة في انتاج معين التالي للهزيمة ، فلقد تحققت له منذ ذلك اليوم القاصم للظهور ، نقطة تحول حاسمة في بنائه الشعري تؤكـد ماضيه وتدعمه ولكنها تتجاوزه وتتطور به تطورا كيفيا عميقا . فاذا كان الماضي الشعري لفدوى طوقان قد برر لها تطوير رافد المقاومة من بين الروافد العديدة في انتاجها ، فان هذا الماضي في حياة معين بسيسو وفنـه يتخذ لنفسه أهمية قصوى .. فما كان مجرد رافد عند غيره كان عنده ، هو النهر منبعا ومصبا . ولذلك فاذا كان غيره قد تطور فكرا وفنا فـي اتجاه مضاد لنزار قباني مثلا ، فانه هو يقف على الطرف النقيض مـن


سميح القاسم

الشعر النزاري شكلا ومضمونا ، بغير مواربة وفي منتهى الحسم .

يعتمد الشاعر في مرحلته الجديدة اعتمادا كاملا على الاسطورة بناء شعريا ، سواء كانت الاسطورة الموروثة فولكلوريا أو الاسطورة التي بينها بنفسه من وحي العصر والتاريخ . اختفت اذن ملامح الضمير المنفـرد بالنسيج الشعري ، وتعددت خيوط هذا النسيج وألوانه . علـى ان السمة البارزة في انتاج معين الاخير هي ان المقاومة لديه لـم تعـد المواكبة الواقعية المباشرة للحركة الفدائية في فلسطين ، وانما اتخذت وجها عاما شاملا لمعنى المقاومة الوطنية . فلسطين كامنة فـي الخلفية ، وبين السطور ، بينما تحتل اللوحة الرئيسية صور اخـرى لسمرقند ويوليوس قيصر ورامبو . هكذا تقل شفافية الرمز وتكثف دلالاته ويثقل وزنه ، ويحتاج التلقي الى معاناة الكشف الاول لطريق مجهول ، يستلهم معين في « اغنيته الى سمرقند » تلك الحكاية التي تقول انه بينمـا تيمور لنك في احدى غزواته بعيدا عـن سمرقند دعـت « الهانم » ـ امراته ـ كل مهندسي سمرقند ، لكي يقيموا معها معبـدا ضخمـا تفاجىء به تيمور ، ويكون هديتها له .. وان يقام المعبد في بضعة ايـام .. ولم يقبل هذا الفرض غير مهندس شاب تعهد بالقيام بمهمة بنـاء المعهد لقاء شيء واحد .. لقاء قبلة يطبعها على شفتي « الهانم » .. وترددت الهانم طويلا وحاولت اغراء المهندس الشاب بكل الوسائل ولكنه

صمد ورفض الذهب وتمسك بالقبلة .. واخيرا وضعت الهانم كفها فوق خدها وقبلها فوق الكف الراعشة على الخد وتم بناء المعبد .. وشاعت الحكاية ، وحينما عاد تيمورلنك وأراد الفتك بالمهندس كان قد اختفى .. ويتقمص الشاعر شخصية العاشق فيخاطب مولاته :

حرسك تحت الاسوار ، وشرفتك بعيدة
لكني أملك شرياني حبلا والعاشق يده تمتد الى الشمس
هذي هي يا مولاتي معجزة الحب
لا يلقي بعصاه فتصبح أفعى
لا يخرج من فمه حبل مناديل
لا يخرج هابيل ،
من جثة قابيل ...
فالساحر لن يصبح يا مولاتي عاشق

رويدا رويدا تتضح لنا « فلسطين » تحت رداء المحبوبة ، وليس القيصر زوجها الا « الدولة » العنصرية الغاصبة ، وليس المهندس العاشق ألا المواطن الفلسطيني الذي لا يملك في عالم بغير معجزات الا معجزة الحب ، ومعجزة الدم . بل ان الحب والدم يتحولان الى رمز واحد هو ذلك الشريان واليد التي تمتد الى الشمس : الشريان هو رابطة الدم التي تربطه بالارض ، والحب هو الذي يدفع احلامه لتطاول أعالي السماء :

هذا هو يا مولاتي قدر الشاعر
يرفض نيشان القيصر
يرفض خبز القيصر
يرفض خمر القيصر

يتبادل العاشق في القصة الاصلية ثياب الحب والموت مع الشاعر، كما تتبادل فلسطين والحبيبة الفاتنة ثياب زوجة القيصر . هكذا يتخفف معين من أعباء الذاتية الشكلية وان لم يتخل تماما عن ضمير المتكلم ليسهم مع المتلقي في اكتشاف هوية الضمائر الاخرى ، المخاطبة والغائبة . وهكذا أيضا يتسع البناء الدرامي للقصيدة حتى ليشمل كافة التوترات النغمية التي تختلج بها شفتاه :

مولاتي ان كانت قبلتك ستبني كونا وحضارة ..
أي الاكوان ستولد تحت وسادتك ،
وفوق سريرك ؟
فسيأتي زمن ستطارد فيه
حتى الموت القبلة
... ...
وسيقطع رأس العصفور
ويعلق فوق السور
لكن هوذا تيمور
حجر مغروس في الارض
مهما نبتت يا مولاتي للحجر شرايين
فلن يصبح شجرة
... ...
ماذا يا مولاتي بقي من التنين .. ؟
ماذا بقي سوى أنقاض مخالبه المكسورة
وبقايا أسطورة .

هذه القصيدة في تصوري هي أعمق كلمات معين بسيسو غداة الهزيمة ، وهي في المقدمة من شعر المقاومة العربية المعاصرة . ذلك ان بعدها الانساني الخصب والمتعدد الزوايا ينقل « القضية » من محورها الذاتي الضيق ، الى مستواها البشري العام . هي بذلك تخاطب الوجدان القومي الجريح على أرض الفداء الفلسطينية ، كما تخاطب كل وجدان جريح على ظهر الارض في مختلف ارجاء المعمورة . وهي لا تنطلق من محاجاة عقلية باردة ، ولا من شعارات سطحية عابرة ، وانما تنطلق « أغنية الى سمرقند » من معاناة حارة لاهبة تتشكل من جزئيات مغرقة في البساطة هي جزئيات الحكاية الشعرية التي أسس عليها الشاعر بناءه . لا ترد كلمة فلسطين حقا ، ولا صورة الفدائي ، ولكن الكيان الجديد الذي استحدثه الشاعر من أعماق الواقع والاسطورة معا ، هو الذي يصوغ هذه الضفيرة المتماسكة من فلسطين وزوجة القيصر ، من الفدائي والعاشق ، من الحكم الصهيوني وتيمورلنك . ولا تبهت معالم الوجه الاجتماعي لثورة الشاعر في هذه القصيدة « المركبة » فالعاشق لم يكن اميرا من امراء القصر ، وانما تكمن أهميته البالغة في كونه احد افراد الشعب ، وتكمن أهميته في انه « البطل » و « الفارس » الشجاع الذي تغلب على المغريات ذات الرنين الذهبي ، وفضل « الحب » على كل ما عداه ، حتى ولو كان السيف القيصري في انتظاره . والقصيدة تلوح في كامل بهائها ضمن ديكور قاتم يحوطه الجزع من كل جانب وتعشعش داخله الكارثة فما اشقى العالم ـ يقول الشاعر ـ حين يطالعنا بوجه العصفور وقلب التنين والقصيدة اخيرا لا تسجل « الحدث » الوطني ولا تواكبه ولا تتنبأ به ، وانما هي تحتوي ذلك كله تحت جناحين من النذير والبشارة . فالشاعر هنا ينذر القيصر بأن خيانة زوجته له ليست على وجه آخر الا حبا عارما لعاشقها . فالحب والخيانة وجهان لعملية واحدة ، ولكن الحب يبقى والخيانة تزول . والشاعر هنا يبشر القيصرة ـ كبشارة الملاك الى العذراء ـ بأنها ستحبل بالروح القدس وتلد ابنا ويسمونه يسوع ، يخلص الناس من خطاياهم . وحركة الفداء من قبل ومن بعد هي لب اللقاح الفلسطيني لشجرة الحرية التي تظل في خصوبتها تثمر وتزدهر ، على النقيض من شجرة العبودية التي تأخذ في العقم والجدب والبوار . والمسيح الجديد اذن ـ عند معين بسيسو ـ هو الانسان الفلسطيني الذي يمحو بقيامته من بين الاموات عار الصلب . وهو في هذه المرة ، لن يصعد الى السماء ، وانما سيبقى معنا على الارض . وهو في هذه المرة لن يصنع المعجزات لنؤمن به ، وانما هو قد آمن بنا لاننا نحن الذين نصنع المعجزات . يقول معين في « أغنية الرجل والجواد » :

يا أيها المطاردون ...
لو تقدرون فاقلعوا ،
اسنان كل نجمة لو تقدرون
لا بد أن نواصل السير
وان نواصل النزيف
فالمستحيل ،
يصبح مرة جرحا
ومرة سكين

ولان الشاعر قد اختار صليب المقاومة ومضى خلف يسوع ، فانه قد اختار في نفس اللحظة صليب المنفى ، فتعبيره الشعري يوجز البندقية ولا يلخص البرلمان .. لقد ابتعد عن المعارضة خطوة ، وعن المقاطعة خطوتين ، ولما وصل أعتاب المقاومة كان المنفى نهاية الطريق وهو ليس بالطريق المسدود رغم مرارة النفي وعذابات الغربة ، ورغم الرفض القاطع ـ والمنطقي من موقع المقاومة ـ للسير تحت الساريات كما يقول في « القمر المحنط » :

أخاف ان اسير تحت الساريات
فالرياح عاصفة
أخشى سقوط سارية
تقتلني ، أخاف أن أموت
تحت علم غريب
أنا الغريب
أخاف أن أموت تحت علم أرفضه
كل خيط فيه

على هذا النحو يختلف معين بسيسو ـ حسب موقعه الذي اختاره لنفسه ـ عن شعراء الارض المحتلة ومواقعهم التي اختاروها لانفسهم . انهم وقد اختاروا « البقاء » في الارض لم يكن في حوزتهم الا أقصى درجات المعارضة للنظام القائم في اسرائيل . والمعارضة في اشد حالاتها عنفا لا تعني المقاطعة فضلا عن المقاومة المسلحة ، بل تعني الحوار المتعدد

الاطراف : بينهم وبين الشعب ـ من مختلف الاجناس والاديان والايديولوجيات ـ وبينهم وبين الرأي العام العالمي ، وبينهم وبين الدولة . وهم يعانون من أجل قيام هذا الحوار وتدعيمه وتطويره والحصول على ثمراته ، معاناة هائلة تبدأ من المصادرة الفكرية وتنتهي الى المصادرة الجسدية . ولكن موقعهم يفرض عليهم هذا الاسلوب دون غيره من أساليب الصراع العربي الاسرائيلي. وهو أسلوب نضالي لا شك فيه يحرز من المكاسب السياسية ما يحمي جبهة القتال من انهيار ظهرها المعنوي في الداخل والخارج ، على ذلك ، فمهما استخدم الشاعر المقيم في الارض المحتلة من تعبيرات كالقذائف ، فانها عند التحليل الدقيق لا تصوغ « البندقية » سلاحا في المعركة ، وانما تصوغ « الحوار » .. وهو سلاح يستكمل مقوماتها ولا بديل له ولا فضل لآخر عليه .

اما شاعر المقاومة فقد كان « المنفى » موقعه الذي اختاره او اختير له . وهو لم يكن يمتلك في حقيقة الامر الا ان « يقاوم » فالمعارضة لا مكان لها في موقعه . وهو في جملته يعبر عن « البندقية » حتى من قبل ان تصبح واقعا حقيقيا ، ولا يعرف عن « الحوار » السياسي شيئا . وبندقيته ذات اتجاه واحد هو قلب العدو ، وجنوده هم الشعب العربي الفلسطيني داخل « اسرائيل » وخارجها . ولكن « الخارج » هو الذي يحظى ، باهتمامه ، لانه واقعه الوحيد الممكن . وقد كان الخامس من يونيو نقطة تحول حاسمة في تاريخ شعر المقاومة الفلسطينية ، فقبله كان « الحلم » هو الديكور الرئيسي للبطولة ، ومن بعده أصبح « الواقع » هو الديكور والابطال جميعا . وبين الحلم والواقع مسافة هائلة قطعتها فدوى طوقان ـ مثلا ـ بتحول موطنها الى جزء من الارض المحتلة . ولم يستطع آخرون قطع هذه المسافة بفاعلية شوفينيتهم العمياء . وهم يلتقون في تطرفهم القومي الحالم مع اقصى درجات الاستسلام للامر الواقع في شعر نزار قباني مثلا . فالبندقية في شعرهم أقرب ما تكون الى شعار الحرب للحرب ، وليست الحرب السلام ، من هنا يتخذ اللون القاني في قصائدهم معنى عنصريا داميا لا علاقة له بالحرية او الوطنية او الحضارة . واذا كانوا هم يبالغون في حجم البندقية التي في ايديهم ويتخيلون العدو اعزل من السلاح بينما هم يمسكون سيوفا من خشب ، فأن نزار قباني يتخيل العكس اذ يرى الاشياء كلها بمنطق الهزيمة ولون الليل .

معين بسيسو وقلة نادرة معه هي التي لم تقطع المسافة بين الحلم والواقع لان الحلم لم يكن له مكان في واقعهم منذ توحدت في عيونهم قضية فلسطين بقضية الوطن العربي ، ومنذ اندمجت مأساة الشعب الفلسطيني عندهم في مأساة الشعب العربي . من ذلك الوقت انخرطوا في سلك المقاومة العربية أينما كانت ، هنا او هناك في مختلف انحاء الارض العربية . ولما جاءت الهزيمة لم تنحرف بهم « المفاجأة » الى رد فعل من أي نوع ، بل تأكدت لهم صحة الطريق الذي ساروا فيه ، وازدادت خطواتهم على الدرب ثباتا .

ولقد يدهش المرء حين يتسمع ضجيج الانفجارات المسلحة في قصائد الاستسلام للامر الواقع ، بينما يتخذ شعر المقاومة الحقيقي والاصيل مادته من :

برميل حبر فوق ظهره
وورق ،
ومطبعة

كما يقول معين بسيسو في قصيدة « اغنية الرجل والجواد » او كما يقول في « القمر المحنط » :

سلاحي القصيدة
تبحث عن جريدة

ثم تختفي الدهشة من هذا « التناقض » الذي نعرف سره في مزايدة المزايدين ، ومقاومة المناضلين . فشاعر المقاومة الحقيقي يعلم يقينا ان « الكلمة » في بساطتها وتواضعها هي سلاحه ، ولكن هذه « الكلمة » بعينها في نقائها وثوريتها وصدقها سلاح فعال .. بينما لا تخرج مفرقعات النزاريين عن كونها اسلحة فاسدة عثرت في مناخ الهزيمة على سوق رائجة : تحك فيها الجرح الملتهب فتهتاج الاشجان وتثور الاحن ، وتمس الوتر المشدود في القلب الكسير فيعزف دما .

غالي شكري



رد على اتهام

بقلم ممدوح السكاف

السيد رئيس تحرير « الاداب » المحترم

تحية عربية وبعد :

اطلعت على كلمة الصديق السيد كمال ابو ديب في عدد الاداب الماضي (حزيران ١٩٦٩) التي يتهمني فيها بتحوير قصيدة له ونشرها باسمي ، فضحكت وقلت : سامح الله الاخ « ابو ديب » فقد ظلمني كثيرا عندما رأى الا شاعرية غير شاعريته تستطيع ان « تبدع » مثل القصيدة المختلف عليها .

وللحقيقة اوضح ما يلي : ١ - ان الزميل ابوديب كان قد قرأ قصيدته المذكورة امامي في اواخر عام (١٩٦٣) واعجبت بها حقا ولكن اعجابي بها لم يصل الى الحد الذي يجعلني احفظها عن ظهر قلب من مجرد سماعها مرة واحدة من قائلها فاغلب ظني اني نسيت اولها ريثما نطق آخر كلمة فيها على الرغم من انها (ميكرو قصيدة) . ٢ - لم تنشر قصيدة الاخ ابو ديب المنوه عنها في المعارف او غيرها باعترافه هو حتى ننسج على منوالها ونتأثرها ، لذا فليس له الحق باتهام الاخرين بانهم يتعقبون خطاه ، طالما ان نتاجه حبيس ادراجه ، مع اعترافي بشاعريته الدفاقة ، وبان هذه الشاعرية جديرة بان تقلد ولكن ليس من قبلنا . ٣ - موضوع قصيدتي يختلف اختلافا جوهريا عن موضوع قصيدة « ابو ديب » ، وكذلك البناء الفني والهيكل العام لقصيدتي ومحور رمزها (المهدي المنتظر) واشاراتها ودلالاتها المختلفة وحتى طولها ، كل هذا يبعدها عن جو قصيدة كمال ، فعمله الشعري في قصيدته يتسم بالفردية والذاتية والرفرفات الرومانتيكية فلم تكن حرب حزيران قد حلت لتكوي فؤاده وتصهر وجدانه ، اما عملي انا في هذه القصيدة واختها المنشورة معها فهو من وهج هزيمة ١٩٦٧ ومن معطياتها في الاحساس بالقهر ، والدوار في الفراغ، والرغبة في التمرد ، وبعث الانسان العربي ، مما لم يخطر في بال ولا في قصيدة الاخ كمال .

هذا من ناحية مضمونية ، اما من ناحية الشكل فاقول : لقد وردت في قصيدة السيد كمال الفاظ مثل « الريح » و«البحر» ووردت في قصيدتي الالفاظ ذاتها فهل معنى ذلك انني اخذت قصيدته « العصماء » (قصيدة كمال - فقط - ثلاثون كلمة) ونسبتها ، لنفسي. كان على السيد كمال ان ينزل الى « الطابو » ويسجل كل مفردات اللغة العربية على ملكيته الخاصة . علما ان السيد ابوديب اول من درس ان الالفاظ ليست ملكا لاحد فهي رائحة غادية على السن الشعراء ، ومباحة للجميع وبعيدة عن الخصوصية مثلها مثل الاوزان العروضية ، كما قرر النقاد القدامى كالعسكري والامدي والجرجاني ، والنقاد المحدثون ايضا .

ان تهمة الاخ كمال ، كما جاءت في رسالته ، فيها الكثير من تضخم « الانا » وفقاقيع الصابون ما عرفتها فيه يوم كان في وطنه (سبحان من يغير ولا يتغير) . وساورد الان قصيدة كمال على الصورة التي طبعت عليها في الاداب (العدد الماضي) كما اوردها هو ثم اثبت بعدها قصيدتي المتهمة وليحكم بعدئذ القراء والنقاد وتحيتي للعزيز كمال في غربته بلندن .

١ - « قصيدة » كمال ابوديب

احكي لكم حكاية
أمس غللت الريح
وحدي أنا ، وحدي غللت الريح
شربت بحرا ، طرت فوق ظهر نمله
قنصت بازيا بفرخ نحله
عمرت فوق ظهر ديك بيت
اقسم ما كذبت ، لكنني بكيت

٢ - قصيدة « خرافة »

أروي لكم خرافة
أمس ركبت الريح
أمس شربت البحر
عكازتي لفافه
وشرنقات الصبح والتلويح
وهفهفات الفجر

* * *

أروي لكم خرافه
بشرت ، يا احباب ، يا أصحاب
أني انا مهدي هذا العصر
فانتظروا ، فانتظروا الخلاص
يا أشقياء ، يا غرثى ، ويا طلاب النصر
اني سئمت ضجعة التراب
فررت من عذاب القبر
وبعد ان قابلت في ضيائه الشحيح :
موسى ومصطفى بن عبدالله
وابن مريم المسيح
وبشروني انني انا المهدي
وانني أنا مخلص البشر
وانني أنا النبي المنتظر
فرحت بل ضحكت ، بل قهقهت
وارتميت للوراء
من كثرة الضحك ، وكثرة البكاء
فقد وجدت لي عمل
من بعد هذي الرحلة العجيبة
من بعد هذه البطالة الكئيبة
من بعد ان طمرت شتلة الامل
فاورقت كسل
بشراك يا « نسيبه »
لقد وجدت لي عمل !!

* * *

أروي لكم خرافه
أمس طعنت الصخر
أمس بلعت الحوت
سلاحي الرهافه
وهسهسات النور
وباقة من زهره ،
وسلة من توت
اقسم ما كذبت ...
اقسم ما كذبت
لكنني امامكم بكيت !!

وللاداب الغراء عميق شكري وتحيتي

ممدوح السكاف

الى الاستاذ غالي شكري

***

تلقينا الكلمة التالية من كاتب لم يكشف اسمه بغير كلمتي « راصد عراقي » وبالرغم من أن «الآداب» لا تنشر المقالات المغفلة او التي يكتبها اصحابها باسماء مستعارة ، فان الموضوع هنا موضوع تهم واضحة مبنية على ارقام واضحة وليس من اهمية لاسم الكاتب التي يوردها . انما الاهمية تكمن في صحة هذه التهم او عدم صحتها .

وفي هذا العدد من « الاداب » مقال للاستاذ غالي شكري لسنا ندري اذا كانت هذه التهم تنسحب عليه هو ايضا ، فنترك للنقاد والباحثين والكاتب نفسه طبعا — ان يجلوا لنا الحقيقة . « الآداب »

انه لمن دواعي الحزن العميق ان يتخذ واحد من الادباء العرب الاسلوب اللاأخلاقي طريقا لكسب المادة .

وان كنا نعتبر الضحالة والتفاهة وعدم التركيز والاصالة من عوامل مأساتنا الادبية فما أحرانا ان نلتفت الى امور اكثر انحطاطا وتوغلا في السفاهة وعدم العقل تتواجد في ملامح وصور بعض المتفيهقين الذين يملاون الصحف والمجلات بنتاجاتهم المزيفة التي تحمل طابع العمق والجهد والمثابرة في سبيل اخراج النماذج المثلى لجماهير القراء مساهمة منهم في خلق احسن الاجواء ملاءمة لولادة فكر جديد بوجه جديد نتمناه لانه ولسبب بسيط قد يملأ فينا الخواء الذي نشعره ازاء قراءتنا للاداب الاكثر عمقا واصالة .

ولكننا حين نكتشف ان هذا النتاج وكل ما فيه من الملامح الحقيقية والتألق الفكري والادبي عمل مسروق من جهود اناس اخرين فما اجدرنا ان نقيم حسينية جديدة نلطم فيها لسوء اخلاق هؤلاء وفساد ذوقهم .

ومهما يكن من امر فليس القطر يملؤه النائمون . ان النعيق من جهة والصعود الى اعلى درجات الضجيج بالبيان الغريب المعدن من جهة اخرى وبينهما الزيف . والزيف يلعب بالخيط امامهم ليثير فيهم الكرم على حساب غيرهم يتمثل جليا وواضحا في تلك المقالة الطويلة .. والطويلة جدا ! والمسماة بـ « صورة البطولة في شعر المقاومة » للاستاذ غالي شكري !!

هذه المقالة التي لم يكتب فيها سارقها غير بضع كلمات لا تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة .

فقصائد فيتنامية (ترجمة ودراسة) في ص ٣٧ من مجلة الشعر ٦٩ العدد الثاني نقلها غالي شكري من اغاني النهر الاحمر وهي مختارات شعرية من الشعر الفيتنامي ترجمة ودراسة الدكتور ميشال سليمان — منشورات مكتبة المعارف ببيروت وكذلك من العدد الاول والثاني من مجلة ادب اسيا وافريقيا .

اما عن المقالة « صور البطولة في شعر المقاومة » فقد نشرها غالي شكري من قبل بعنوان مغاير في مجلة المعاصر عدد اكتوبر سنة ١٩٦٧ م

اما في الصفحة (٥٠) من مجلة الشعر ٦٩ فالاستشهاد الاول من كتاب « اراجون شاعر المقاومة » ترجمة عبدالوهاب البياتي واحمد مرسي . وكذلك الاستشهاد الثاني والثالث والسادس .

اما النثر والتعليقات فهي منقولة ايضا من نفس المصدر السابق. والصفحة ٥٢ ، ٥٣ فمنقول من كتاب « بول ايلوار مغني الحب والحرية» مع اضافات قليلة جداً من الكاتب نفسه وربما تكون منقولة من مصادر اخرى دون الاشارة اليها . وفي الصفحة ٥٤ نجد ان الاستشهاد الاول لايلوار والثاني منقول ايضا من كتاب « ايلوار مغني الحب والحرية » وبقية الصفحة ٥٤ ، ٥٥ فيتحدث الكاتب فيه عن شعر المقاومة السوفياتي اثناء الحرب الثانية فهي منقولة باجمعها من مجلة الشرق ومن مقالات نشرها الشاعر جيلي عبدالرحمن في جريدة المساء القاهرية ومن مختارات اخرى نشرت ايضا في المساء مترجمة باقلام بعض الادباء الشباب .

اما عن الاستشهاد الاول في الصفحة ٥٧ فمنقول بالنص وهو لبابلو نيرودا من كتاب « رسالة الى ناظم حكمت وقصائد اخرى » اما حديثه عن نيرودا في نفس الصفحة فهو منقول من كتاب « بابلو نيرودا » بقلم جاك مارسياك ترجمة احمد سويد — منشورات دار المعجم العربي بيروت .

اما الاستشهاد في صفحة ٥٨ فمنقول حرفيا لحما وعظما لـ « لوركا » من كتاب « رسالة الى ناظم حكمت وقصائد اخرى » .

اما الحديث عن الشاعر البلغاري فابتساروف صفحة ٥٩ فمنقول من كتاب « فابتساروف شاعر بلغاريا الشهيد للدكتور احمد سليمان الاحمد — مكتبة المعارف بيروت وكذلك الصفحات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ وبالنص .

اما الصفحات ٦٣،٦٤،٦٥،٦٦ وهي مختارات من الشعر الفيتنامي فهي منقولة ايضا من المصادر التي اشرنا اليها اعلاه

والصفحة ٦٨ ، ٦٩ منقولة من العدد الاول من مجلة الادب الافريقي الاسيوي والغريب ان السيد غالي شكري اعترف هنا واشار الى المصدر وهكذا ينتهي المقال دون ان يصدق الكاتب او يكتب اي شيء بقلمه ، هذا مع العلم ان المقالة تقع في ٢١ صفحة

وقد سبق للكاتب المذكور ان نشر مقالات ودراسات في « حوار » ومجلة « شعر » اللبنانية باسمه وباسماء مستعارة متعددة والغريب في هذا ان اغلب هذه المقالات ان لم نقل جميعها منقولة ايضا من كتب ومصادر عربية ولكن الكاتب التحرير لم يشر اية اشارة اليها ولو من بعيد .

ان الايام كفيلة بان تفسل ادران هذا « الانسان » وادران اولئك الذين ينعتون الناس بالامية الذين تنطلي عليهم مثل هذه المسائل!!

« راصد عراقي »

تتمة الابحاث

تعالج مشكلات الاديب العربي وغيرها من القضايا ، اذا ما وضعت في اطارها الصحيح ، واذا ما نظر اليها الادباء النظرة الصحيحة ، وتحملوا مسؤوليتهم في دعم الثورة وحمايتها .

وتحت عنوان « من دروس الايام الستة ـ حركة الشعر الجديد في ضوء الهزيمة » كتب الدكتور محمد النويهي مقاله . ونحن معه فيما قاله بالنسبة للذين هاجموا الشعر الجديد ، ولكنا نختلف معه في تصوره لدور الشعر عامة ، والشعر الجديد بوجه خاص .

فهو يقول « فلقد شهدت الامة العربية تركات متعاقبة استهدفت تحريرها من الاحتلال الاجنبي والنفوذ الاستعماري والتخلف الاجتماعي ، وكانت كل حركة من هذه الحركات يمهد لها ويصحبها حركة تجديدية في الادب والفكر ، فاقترنت حركة عرابي بنهضة الشعر الجديدة من مدرسة البارودي ، واقترنت حركة مصطفى كامل ببداية النهضة الشعرية على ايدي شوقي وحافظ ومطران ، وبداية حركة تحرير المرأة على يد قاسم امين ، واتصلت هاتان الحركتان معا بالجهاد الفكري والتجديد الديني للافغاني ومحمد عبده ومدرستهما ، وقادت الحركتان الى الانتفاضة القوية التي تزعمها سعد زغلول سنة ١٩١٩ وما مهد لها وما اعقبها من يقظة فكرية قوية ونهضة ادبية نشيطة تجلت نثرا في طه حسين والعقاد والمازني وهيكل ، وشعرا في المدارس المتعاقبة من مدرسة الديوان الى مدرسة ابولو ... »

حتى يصل في مقطع آخر من المقال الى القول : « والام كانت تهدف حركة الشعر الجديد منذ نشأتها في أواخر الاربعينات ؟ ألم تكن محاولة للكشف الامين عن تلك العلل التي ادت الى نكبتنا في سنة ١٩٤٨ ، ثم تكررت في هزيمتنا في سنة ١٩٦٧ ؟ بلى ولو اننا جميعا وعينا دروس تلك الحركة الشعرية ، واستمعنا الى تحذيرها ، واستجبنا لدعوتها الى التغيير القدري الجذري الشامل ، وانصتنا في جد وامانة الى ما قاله شعراؤها ، حتى « الرافضون » منهم ، لربما تجنبنا الهزيمة الدامية ، وهذا ما نبه اليه كاتب هذه السطور ... »

وازاء هذه الافكار والاحكام المطلقة نختلف مع الدكتور النويهي ، فالحركات المتعاقبة التي استهدفت تحريرها من الاحتلال الاجنبي والنفوذ الاستعماري والتخلف الاجتماعي ، لم تمهد لها حركات التجديد في الادب والفكر ، بل جاء التجديد انعكاسا لها ، وما تحركت الا لاسباب موضوعية عديدة ، عرفتها الشعوب في جميع المراحل التاريخية تجاه المستعمر أو الغاصب لارضها ـ وفي حدود علمي ـ لم يكن لا الادب او الشعر له دخل في هذا ، بل نرى ان الذين تحملوا عبء الكفاح ضد المستعمرين في بلادنا ـ معظمهم لم يقرأ الشعر أو الادب .

وعلى سبيل المثال ما حدث في ثورة ١٩١٩ ، (وهي ليست انتفاضة ـ كما يرى الدكتور) هل كان بسبب حركات التجديد ، ام ان التجديد كان نتيجة وانعكاسا لاحداث الثورة ؟

نحن نرى ان الشعب المصري كان يغلي بالتذمر من سوء احواله الاقتصادية التي نتجت عن وجود الاحتلال البريطاني ، الذي استغل كل شيء ، واستنزف كل شيء ، وانه في هذه الفترة بداية ظهور الطبقة الرأسمالية المصرية ، والتي كان من مصلحتها ـ في هذه الفترة ـ الوقوف ضد المستعمر ، الذي يقف تجاه مصالحها ، وان الفلاحين والعمال ، كانت احوالهم الاقتصادية سيئة جدا ، وان المثقفين والمهنيين في المدن ، كانت مصالحهم وتطلعاتهم يقف الاحتلال حائلا امامها ، ويجمع بين افراد الشعب الموقف الوطني ، وهو المطالبة بالاستقلال ، وقد بدأت، ولم تصبغ عليها ثوريتها الا بمشاركة الفلاحين والعمال ، والذين انسحبوا منها ايضا ، حين احسوا انها ليست ثورتهم ولم ترفع اي ستار اجتماعي يحل مشاكلهم ، هذا هو فهمنا لاية حركات استهدفت تحريرها من الاحتلال الاجنبي ، وعلى ضوء ذلك يكون الادب ، ويكون موقف الادباء جزءا من الثورة وجزءا ضدها ، فليس هناك موقف واحد. وعلى سبيل المثال ايضا ، قبل ثورة ١٩١٩ ، لم يكن موقف الفاياتي مثل موقف شوقي وحافظ ، وامثلة عديدة تؤكد اختلاف موقع كل اديب وشاعر من اي حدث .

وبذلك كانت النهضة الادبية النشيطة التي تجلت نثرا في طه حسين والعقاد والمازني وهيكل وشعرا في المدارس المتعاقبة من مدرسة الديوان الى ابولو ، لم تكن تعبيرا عن الثورة ـ كما فهمها الشعب المصري ، بل كانت تعبيرا عن الطبقات والفئات التي استفادت من الثورة وحولتها لصالحها .

وهذا الموقف ينسحب على ما قاله الدكتور النويهي حول الشعر الجديد من اننا لو انصتنا الى ما قاله شعراؤها لربما تجنبنا الهزيمة الدامية ، وهذا فهم غريب لحركة المجتمع وواقعها ، وسلخ الشعراء عنها ، وكأن الشعر الجديد هو وصفة السحر لحل جميع المشاكل ، ونسي الدكتور ان الشعراء هم ابناء هذا المجتمع وان نظرتهم مختلفة ، ومواقفهم مختلفة ولو كانوا جميعا يندرجون تحت حركة الشعر الجديد، الا ان لكل شاعر موقفا ، هذا رجعي ، وهذا تقدمي ، هذا يتحسس مشاكل مجتمعه ومشاكل عصره ، وآخر متقوقع على ذاته ولا يرى ابعد منها ، وهكذا ... فكيف يكون الحكم المطلق حول الشعر الجديد ، ومن الذي قال وفي اي عصر حدث هذا ان الشعر يقود حركة المجتمع ولو فهمناه لتجنبنا الهزيمة .. مثلا ؟

اننا نفهم الشعر ووظيفته في اطار فهمنا لدور الادب والفن في اي مجتمع ، في تناول قضايا ومشاكل هذا المجتمع ، وليس دوره حلها، ولا احد يطلب او يحمل الشعر الجديد او الفن والادب عموما اكثر من دوره ، كما اننا نفرق بين موقف الشعراء من القضايا ، ولا نستطيع ان نطلق عليهم حكما واحدا تحت اسم الشعر الجديد .

بالحماس نفسه كتب الاستاذ محيي الدين صبحي عن الشعر في مقاله « بلاغة ما بعد حزيران » واطلق الاحكام : « ان الشعر حارس لقيم الامة ، ومحدد لشخصيتها ، وهو اداة عميقة الاتصال بوعي الجماعة التاريخي ، وارهاصها الاخلاقي ... »

والمشكلة كما يراها الاستاذ محيي الدين صبحي « ان امة جريحة ثكلى ، كالامة العربية تنطوي على نفسها من هول الفجيعة ، لهي امة تحتاج الى صوت شاعر يوقظها من حالة الذهول » واظن انه مهما كان حماسنا للشعر والشعراء ، فليس من المعقول ان نلغي عقولنا ، ونقبل بمثل هذا الكلام ، ومع احترامنا وتقديرنا للشاعر العربي الكبير عبد الوهاب البياتي ، فاننا لا نستطيع ان نوافق على كلام الاستاذ محيي الدين عن الشعر وعن قصيدة الشاعر الكبير البياتي ، ليس من المعقول أن نوافق على القول « بان هذه القصيدة من بين القصائد القليلة التي تدعو وتسجل بدء مرحلة الثورة العربية الثالثة » . والقول بأن « الطريق الجديد للثورة العربية هو الطريق الجديد للشعر العربي » . وهذا يحمل الشعر موقفا اكبر من دوره ووظيفته ، فنحن نفهم انه يساهم كما يساهم الفن والادب عموما نحو التقدم في المجتمع ، وهنا ايضا ، لا بد من الاشارة أن هناك اختلافا بين مواقف الشعراء ولا ينطبق عليهم حكم واحد .

وعن الشعر ايضا ، كتب الاستاذ مدني صالح ، ملاحظاته عن السياب والاحساس بالموت ، وتتبع في قصائد السياب موقفه من الموت ، ممهدا لذلك بالبيئة التي عاش فيها واهتمامه الثقافي ، وان كنا نرى ان السياب قد تخطى هذه البيئة ، الا ان هذا المقال نظرة جزئية في شعر السياب ، تتبعها في جهد الاستاذ مدني ، وكنا نود ان تكون هذه النظرة ، نظرة الاحساس بالموت عند السياب في الاطار الكامل لشعره ، والذي هو مليء بالنظرات الجزئية ولكن ليس الاحساس بالموت هو طابع ذلك الشاعر الكبير الذي خسرناه .

وقد استمتعت بمقال الدكتور الزلباني عن الحكاية الشعبية السودانية ، وتحليله لها وان كانت تعوزنا النصوص في الادب الشعبي السوداني ، كما تعوزنا في معظم ارجاء الوطن العربي ، حتى تكون دراستنا ـ على ضوء التحليل الاجتماعي ـ الذي قدمه الدكتور الزلباني، وتدرس ما هو مشترك على المستوى العربي ، حتى لا تكون الدراسات الشعبية ، كما هي الآن ، على النطاق الاقليمي فقط ، بل يجب ايضا ان تدرس على المستوى العربي العام ، بجانب تجميعها ودراستها اقليميا ، قبل ان يطمس الكثير منها ، نتيجة لعمليات التغير الاجتماعي .

جلال السيد

تتمة القصائد

الشاعرية قدرة خاصة تدفع بالمتلقي الى التفكير الطويل .

عايدة ...

شجر ينبت في كل تراب

لشد ما هو بسيط ومدهش هذا الرمز الـذي يختاره الشاعـر معادلا للطالبة الفلسطينية عايدة عيسى التي ألقت قنبلتين يدويتين على سيارة اسرائيلية في غزة وحكمت عليهـا سلطات العـدو الصهيوني بالسجن لمدة عشرين عاما . ولكن ما اعظم هذا الرمز وما أقدره فـي حملنا على التفكير . فهذا الشجر الذي ينبت في كل تراب يوحي بروح المقاومة والخير والظل والحياة التي تنبت في كل تراب . وهذا الشجر الذي ينبت في كل تراب بسيط وتلقائي وحتمي بقدر مـا هو عظيم وضروري ، وبعد قليل من التأمل قد يتسع الرمز ولا يتوقف عند هـذه الحدود وانما يتحول كما نـرى في نهاية القصيدة الى طريق التحقق والحرية .

عايـدة

شجر ينبت في كل زمان

يمنح الارض هوية

فاذا كانت الارض هي التي تمنح الشجرة غذاءها ووجودها فـان الشجرة تعود علامة على الارض تمنحها اسمها الحقيقي وحريتها . هكذا يوفق الشاعر في تعبيره الرمزي . ولكنا ناخذ عليه فـي بنائه العام للقصيدة تقسيمها من الخارج الى ثمانية اجزاء ، مما سطح التجربـة بعض الشيء وعممها فلم يتح للشاعر فرصة انضاج رمـزه الاساسي . فكان في مقدوره ان يستغني عن هذا التقسيم وعن كثير من التفصيلات العامة لتتلاحم اجزاء التجربة على نحو اكثر قوة وتدفقا .

اصوات مثقفة ـ خلدون صبيحي

لسنا ضد شعر الحكمـة الحديث او ضـد القصائد الفكرية او الفلسفية ، ففي مثل عصرنا قد لا يجد الشاعر أمامه سوى طريق التحدي الفكري الصارخ المستفز المخيف ليوقظ قومه او يزعجهم ويقلقهم حتـى يفيقوا . ولا غرابة في ان يمتد تيار شعر الحكمة ويزدهر في عصرنا على ايدي شعراء كبار مثل انجارتي واودن وبريخت حيث تحتـل القيمـة الفكرية للقصيدة في كثير من الاحيان مكانا أساسيا على خلاف ما تدعو اليه مفاهيم الجمال التقليدي . ونحن لا نبحث في مثل قصيدة الشاعر خلدون صبيحي عن تفرد الصورة الشعرية وجمالياتها التقليدية ما دام قد جدد لنفسه ـ كما يبدو ـ في قصيدته هذا المنحى الخاص . ولكنا نصدم حقيقة حين نكتشف أن الاصوات السبعة التـي تتكون منهـا قصيدته خالية من أي فكرة خاصة تستحق التأمـل فوق خلوها مـن الشعر . ولقد يكون احساس الشاعر مبالغا فيه بقيمة الافكار التـي يقدمها في القصيدة مثل فكرة ان الكلام خير مـن الصمت « المقطـع الاول » . أو نحن لا نعيش الحياة وانما نمارسها بالكلمات « المقطـع الثاني » . وقد يكون السر في عادية التجربة عـدم عناية الشاعـر باكتشاف صورة افكاره على النحو الذي يجلو لنا عمقهـا الخاص . فالشعر سواء كان شعر حكمة او شعرا وحسب لا يكتسب فاعلينه فـي التأثير الا من خلال صورته باعتباره فنا وان اختلفت طبيعة الصورة من هذا وذاك .

من قلب عينيها ـ مي صايغ جبجي

يا رفاقي

من هنا مروا

فقلبي جذر حربه

فجوة حمراء رطبه

من هنا مروا

شراع يا جراحي أنت

حيى القادمين

نعم . انه هتاف ، وايقاع خطابي ، وفن اصيل رغم كـل دعاوى السادة النقاد الذين قد يخيل لهم انهم قد وضعوا ايديهم على حقيقـة الفن ومقاييسه الخالدة ـ فالتقرير خطأ ، والهتـاف خطأ ، والايقـاع الخطابي خطأ وهكذا الى آخر المفاهيم الجامدة . ولكن المسألة ليست على هذا النحو ما دامت الحياة لا تتوقف عن الحركة والاضافة والخلق، وما دام الفن مرتبطا ارتباطا لا ينفصم بهذه الحياة في حركتها الدائمة . فاذا كنا نتفق مع الآخرين على أن للفن دورا يعلو على مجرد الزخرفـة السطحية وتمجيد ما هو ممجد سلفا وتقبيح ما اتفق على تقبيحه ، واذا كنا نتفق مع الآخرين على أن وظيفة الفن يجب الا تخلو من ذلك الطموح الى التأثير في الحياة ودفعها الى الامام وتغييرها ، فاننا لا نرضى النظر الى مثل هذه القصيدة الا من زاوية هذه المبادىء وحدها . وسنرى على الفور ان صورة الحياة لم تعد نفسها بعـد ان قالت الشاعرة كلمتها وانما اتخذت وجها جديدا بقوة الفن . حيث يتحول القلب الى مخبـا رحب يسع الآخرين ويصير الكلام عن الهتاف والخطابة مجرد تلـق مدرسي للتجربة ... ولو تأملناها قليلا لابصرنا الصبح بعيون الشهيد فايز جراد وهو يطل علينا من فوهة مدفع ولسمعنا نفس الايقاع الحماسي الدافق تعزفه خفقات قلوبنا من اثر المشهد .

وصية جيفارا التي لم يقلها موسى ـ وصفي صادق مينا

العالم يحاصرنا بجدرانه الصخرية ، ونظمه العمياء ، ويفرض شروطه كقرصـان . فاذا لم ندفع كـان جزاؤنـا النفي او التشريد او الجـوع او السجن . ونحن عادة لا نستطيع ان نبصر الا مـا نـراه ولا نستطيـع ان نحلـم الا بمـا نراه . الثائر والشاعر وحدهما يملكان القدرة على الرؤيـة والاصطدام والتغيير ، يملكان القدرة علـى ابصار الحقيقـة دون التقيـد بمناهج المنطق او وزارات التعليم او حكمـة الجبناء.وها هـو جيفارا يقتحم عالم الحياة والموت فتتغير صور الحياة والموت ويتاح للشعراء مثل شاعرنـا وصفي صادق ان يبصر مأساة عالمنا الـذي ما زال يقتل ويصلب افضل ابنائه وان يخترق حـدود الحاضر بكـل صلابته وحمقه وفظاعته . ان كـل شهيـد جديد مـن شهداء الانسانية يضيف رصيـدا الـى قلب الانسان في مواجهـة العنف والقسـوة والجريمة وها هـو شهيد اخر يهبط الـى حيث يحتفظ الاحيـاء باعز مـا يملكـون ، هاهـو جيفارا يهبط الـى مملكة الموت ملفوفـا في علم يحمل شارة وطنه ، لا يحمل الا وطن الانسان . لقد مضى بعد ان كتب اسم السيـد بدمـه علـى الاذرع والسيقان المجبورة فياليوم الثامن من اكتوبر وما أسم السيد الا كلمة الدفاع عـن كرامةالانسان وحقه في الحياة والحب والحرية : هـذه هي الصورة التي يجسدهـا لنـا الشاعـر في المقطع الاول من القصيدة . وامـا في المقطع التالـي فانه يكشف لنـا عـن الوجـه الاخر للصورة ، الوجه الناصع المتالـق الزائف المصنوع .

البيت الابيض .. لؤلؤة دمويـة

تترقرق في صـدر مطلي بالقطـران

ويحاول هذا الوجه قتل الشهيـد مرة ثانيـة ولكـن بنوك العالـم وبورصاته وتجاره ورصاصه وكل قـواه الشريرة تعجز عـن قتل انسان واحد مـا دام المقتول لا يموت وانمـا يستمر نداء ابديـا موجها الـى الاخريـن . فاذا كانـوا قد نسـوا وصيته « ما جئت لالقـى في الارض سلاما بل سيفا » وصاروا صلبانا تحملها صلبان فأن الصوت لا يختفـي وتتجدد الوصيـة صارخـة في الوداع تمتلئه بالحب وبالرغبة فـي الحياة وفي تحطيم القيـود

أجدر بـك قبـل دخول النعش

ان تحطمـه

او تحمله

« من قبل مدفعه الليلـة ... قبلني »

فمـا انبل مهمـة الشاعـر حين يستطيع ان يجدد النداء الثائـر ويوقظنا علـى صوته الاصيل بعـد أن يوحـد صور المناضلين والشهداء

عابرا العصور والامكنة في رحلته النبيلة مدافعا عن حرية الانسان
وجدوا بصماتك فوق المدفع والرشاش
تطابق بصمات ملايين الثوار
في ارض فلسطين
في ادغال فيتنام ...

الدوحة القديمة ـ حسن فتح الباب

نوعان من الرموز نصادفها غالبا في الاعمال الفنية بشكل عام. رمز يكشف للحياة يضيف اليها ويثريها ويربط بينها وبين التجارب السالفة او التنبؤات المقبلة وهو الرمز الفني الحقيقي . ورمز شارح يقوم بدور التبسيط لحقائق الحياة المعقدة . والشرح، ذودلالة تعليمية في الغالب ، وهو اقرب الى التشبيه او المثل منه الى الرمز بمعناه الفني . ونستطيع عادة ان نرجع جزئياته الى اصولها الواقعية كما نرى في قصيدة الشاعر حسن فتح الباب ، اذ نستطيع القول بان الذئاب قد عنى بهم الشاعر الرجعية العربية وان الاطفال في القصيدة يرمزون الى البسطاء من الناس وان الغابة التي تشتاق الى فارس النهار هي الوطن المشتاق الى حريته وان الاشباح التي تفزعنا وتعوق تقدمنا هي عوامل الخلاف بين هذين العنصرين اللذين يكونان معا واقعنا الاجتماعي ، هذا الخلاف الذي تسبب في تعرضنا للهزيمة عندما هبت علينا العاصفة الهوجاء « الغزو الصهيوني » واغرب ما في الامر ان الشاعر يطالب الجميع بالابتعاد عن الخلاف

فليسكن الطراد
ويلتق المصلوب والغريق

فكيف يمكن لنا ان نتصور هذا اللقاء المنشود بين الذئاب والاطفال ؟!

علينا حقا ان ننسى خلافاتنا الثانوية لمواجهة الخطر الاساسي الذي يهددنا جميعا ، وكان على الشاعر ان يختار رموزا اكثر معقولية لتاكيد فكرته هذه بدلا من الذئاب والاطفال . وعلى كل حال فحتى لو اختار الشاعر رمزا غير الذئاب يضفي على ندائه بعض الاقناع فان القصيدة تبقى رغم ذلك عادية تماما تعوزهاالحرارة والعمق بينما لا نشك في ان شاعرا متمرسا مثل شاعرنا حسن فتح الباب في امكانه ان يقدم لنا ما هو أعظم مما قدمه بكثير .

شوقي خميس

تتمة القصص

عنها اثر معركة سابقة .

ولكن المؤلف لا يترك قصته لهذه النهاية الخطابية ، فرغم ان رفاقه قد ظهروا وأعلنوا عزمهم على القتال ورغم ان امه تصر على القتال ، ورغم ان سلاحه قد اصبح نظيفا ومشحونا بالذخيرة ومهيا للاستعمال ، فانه يعرف انه يوشك ان يلج تجربة القتال ، حيث سيكون عليه ان يطلق النار ليقتل ، وحيث ربما سيستقبل النار بصدره ليموت ، ولذلك فانه بحاجة حقا الى ان يستلقى قليلا ـ كما لو كان يستجمع نفسه مستنشقا بقايا نسمات السلام الزائف المحطم ـ يتطلع الى الغرب فى الظلام الكثيف ، من حيث كانت قوافل النازحين تنهمر ، لكى يستمتع بحقه في ان يحلم بيوم العودة الى هناك .

ان الشعب كله ـ الذي نتعرف عليه في رفاقه القدامى ، ورفاقه الباقين ، وفي امه وفي النازحين ، والذي يجسده هو في النهاية تجسيدا كليا هو الذي يصنع مأثرة القتال هنا ، وهو الذي ينزح ويفقد الارض ويهزم ويجتر المرارة ويتردد ويبحث عن مهرب وينبش الارض بحثا عن سلاح وينظف السلاح المخبوء ويقاتل من جديدويحلم بالعودة . وليس بطل القصة الا مظهرا لكل التقلصات التي اعتصرت حياة الشعب لكي يولد من جديد من خلال فجيعة الهزيمة حاملا عبء القتال دفاعا عن حياته كلها . ولذلك فان الحرب في قصة رشاد ابوشاور تبدو كما قلت في البداية كعمل جماعي يمارسه شعب باسره لينتزع حقه في الحياة وليستعيد ارضه ومقدرات مصيره بين يديه .

بطاقة معايدة

ـ « بطاقتي الطويلة امامي على المكتب» مأساة جيل عميقة ،مخيفة ثقيلة ، اي بريد سينقلها ، اي ساع سيقوى على حملها ؟ »

وكانت بطاقة بطل قصتنا قد ظلت على مكتبه عامين لا يقدر ان يخط فيها حرفا ليرد بها على بطاقات المعايدة الكثيرة التى تصله فى كل عيد . ولكنه وان كان قادرا على التهرب من الرد على البطاقات ، الا انه لا يستطيع أن يتهرب من مطالبة ابيه له بان يزور بيوت العائلة والاصدقاء لتهنئتهم بالعيد .. « فزيارة العيد مقدسة يابنى ولا يستطيع ان يتهرب من شراء الملابس الجديدة لاطفاله ، ولا ان يتهرب من عيني زوجته اللتين لا يعرف فيهما الغضب من الحزن ، وان كان يعرف فيهما الاصرار على ان يقوم بكل واجباته العائلية .

بطل قصتنا اذن ينتمي الى تلك الفئة الاجتماعية التي تملك أن تعيش حياة عائلية ذات تقاليد « مقدسة » .. بل وحياة مترفة ايضا . فهو يتحدث عن قصر اخيه في ابى رمانة ، ويتحدث عن « اننا نقود سياراتنا الفارهة ونرتدي الثياب قشيبة فى كل عيد» ولكنها أيضا حياة تصل احيانا الى نقطة من المستحيل عندها ان تستمر بصورة معقولة بغير تعاطي الاقراص .. المهدئة والمنبهة. وهي ايضا حياة تلك الفئة التي تملك ان تقسم تاريخها الى « اجيال » وان تكتشف لكل جيل طابعه الخاص ، وان تمكن لصاحبها من ان يكتشف لجيله مأساته الخاصة (فان حياة من لا يعرفون الثياب القشيبة في الاعياد وغير المطالبين بكتابة بطاقات المعايدة لا يمكن ان تنقسم الى اجيال . انها جيل واحد متصل من التخلف العقلي والفقر المادي والتشوه الروحي الكامل) . بطل قصتنا اذن يعيش حياة الفضائل البورجوازية الثمينة : بطاقات المعايدة ومنازل الاسر المستقرة ، والشرفات التي تطل على الحدائق ، والحمام في الصباح والتعليم المضمون ، والزوجة والابناء كالزهرات اليانعة يحيطون بالجد الطيب ، والثقافة ايضا لاستكمال الديكور المعنوي والمادي الفخم الذي تحب هذه الطبقة ان تحيط نفسها به . ولكنه يعيش ايضا حياة المتاعب البورجوازية : ثقل التكاليف ، وثقل العادات والتقاليد يفرضها الاباء والزوجات ، والتبرم والضجر والاحساس بالفراغ والتفاهة ، والضغوط النفسية الكثيرة التي تؤدي الى عيادة الطبيب النفسي و « اصوات الهستيرية » والحبوب المنومة والمنبهة .

ولكن بطل قصتنا يعيش لحظة اوسع واعمق من فضائل طبقته ومن متاعبها .. « الطائرات تقذف مصر ، العدو يطأ القدس ، الدبابات تتسلق المرتفعات » ... «وانا وانت لسنا في حلب ودمشق، نحن من سكان غزة ونابلس أو القنيطرة .. آه ياقدسنا » . لم تعد المسألة مجرد تقابل بين تكاليف الحياة واعباء الفضائل وبين القدرة على التحمل والدفع .. .وانما اصبحت مسألة تقابل بين ان يكون الانسان انسانا ورجلا أو لا يكون ، بين أن يفقد هويته الانسانية التي اصبحت هي القتال ساعة ان فرض القتال على شعبه ـ وبين أن يدافع عن هذه الهوية حتى وان كان سيدفع حياته المليئة بالفضائل والمتاعب ثمنا لها . ولكن بطلنا ايضا يتبين هذه الحقيقة منطلقا من طريقة طبقته المتميزة التي تقوم على الحس الاخلاقي اكثر مما تقوم على الوعي الكامل والعلمي بالحقيقة . ولكنها الطريقة التي تستطيع أن تكتفي بالحس الاخلاقي نفسه لكي تدفع الانسان الى القيام بنفس العمل الذي يملك ان يقوم به صاحب الوعي العلمي بالحقيقة . انه يحس بمأساة شعبه

ذلك الحس الاخلاقي الذي يثقل على ضميره .. « كم من شريد يقضي الايام وحيدا بلا فرحة ، بلا عيد . كم جندي قضى في سيناء من الظمأ .. »

ولكن المؤلف الحريص – ربما – على ان يظل منطقيا مع نفسه، وعلى أن يحافظ على منطقية بناء بطله النفسي ايضا – يمضي لكي يحبس بطله في أطار حياته المثقلة باعباء الفضائل والمتاعب ، ليستخرج من نفس هذه الحياة حلا لازمة بطله بين الخضوع لها او التمرد عليها ، فلا يكون الحل الا انطلاقا من نفس الحس الاخلاقي بضرورة مشاركة شعبه في مأساته ونضاله . يدفع المؤلف بطله في خطابية واضحة الى حلم نهائي بالانتصار على نفسه وعلى تردده ومتاعبه جميعا بأن يتحول الى مقاتل . انه لا يتحول فعلا وانما يحلم فحسب ، ويحلم ايضا في خطابية واضحة بأن بطاقته الى اخيه ستصله على صاروخ او على قذيفة مدفع . وهذا احساس جميل في معناه ، ولكن زاعق في اسلوبه وصخاب في تعبيره عن نفسه ، الامر الذي يؤدي بنا الى الارتياب في صدقه وفي تصميمه على اللجوء الى قاذفات الصاروخ أو الى المدفع !.

ان الحرب هنا وخوض القتال الذي نفهم ان البطل قد قرر اللجوء اليه انما يبدو كحل لازمة البطل الشخصية ، مطهر لادران هذه الحياة السخيفة المترعة بالفضائل السمجة والمتاعب التافهة . وهي حرب سبق الشعب كله بطلنا الى خوضها ، فهو في هذه الحالة مندفع الى مطهر كان الشعب نفسه قد صنع له الجحيم والفردوس من قبل لكي يعد للبطل الاتي لكي يتطهر فيهما عالما اخر كاملا ، عليه ان يدخل فيه بكليته لينسلخ من عالمه القديم .

الغد المستحيل

في القصة السابقة كانت قد بقيت للبطل الفرد ملامح جماعية تربطه بطبقة اجتماعية على قدر كبير من التحدد والوضوح ، اما هنا فنحن نواجه شخصا كامل التفرد.. ولكنه ايضا تفرد اجوف ولا يمتلىء بغير الرغبة الصبيانية في الموت . والقصة باختصار قصة موظف شاب ، خاب في حبه ، فقرر ان يقتل حبيبته التي خانته وينتحر ، ولكنه يعجز عن تنفيذ ذلك لانه متردد ولانه ما زال يحبها ويحب ان يستمر على قيد الحياة . ثم يذهب الى امراة خليعة وتفاجأ به مستغرقا عندها في النوم – ولا ندري ان كان قد « فعل » عندها شيئا – ثم يستيقظ على ضرباتها وخمشاتها .وتصدم سيارة حبيبته امام عينيه ، ثم يبدو (والعهدة على كاتب القصة) انه أصيب بانهيار عصبي او بمرض ما لاننا نراه في السرير وصديق له ، يطمئنه على صحته ، بينما يشكو هو من الوظيفة والعمل الروتيني « فقد دمر روحي » .. ثم فجأة تقوم الحرب ، ويذهب صاحبنا لينضم الى فرقته في المقاومة الشعبية .. وتحدث غارة ويموت !. هكذا تصبح حربنا النضالية العظيمة وسيلة ايضا لتخليصنا نحن من هذا العاشق الخائب القاتل بالنية .. الثقيل الظل !.

ويبدو ان المؤلف كان في نيته أن يقول شيئا من نوع ان الحرب تقضي على أمثال بطله من الكائنات الادمية التي تعيش في حالة متفسخة من التوهان العقلي والعاطفي والتردد والعجز والوهن الروحي المطلق (بطلنا ايضا مثقف يتعرض لسخرية اصدقائه من توهانه في الوجود والعدم والمطلق والكينونة) . ولكن المؤلف لسوء الحظ لم يعرف كيف يصب فكرته من خلال تجربة اكثر شمولا وخصوبة من تجربة هذا الهاملت القزم التي لا شيء يربطنا بها ، ولا شيء يربط بها اي انسان اخر غير بطله القمىء .

ان الحرب هنا، تلك التي تتخلق في حرارة اتونها شعب جديد ويكتسب منها ارادته على صنع حياته نفسها ، هذه الحرب تبدو كشيء طارىء لا علاقة لها بالاحداث التي تكون القصة . بل ان الحرب تبدو كشيء فرضه المؤلف واجتلبه من مكان لا يعلمه غيره لكي يتخلص من بطله ، رغم انه كان ينوي طول الوقت – مخبئا نيته في طيات خفية – ان يتحدث عن الحرب المطهرة التي تقضي على امل امثال السيد « خالد » – واختيار اسم البطل يبعث حقا على تأمل عدم توفيق المؤلف حتى في اختيار الاسم – في ان يكون له غد من اي نوع.

***

في نقدنا لقصص عدد مايو (ايار) من الآداب ، قلنا ان « التزام الكاتب في عمله بقضية مثل قضيتنا لا يمكن ان يكون التزاما بالموضوع وحده او بالمعنى او بزاوية النظر ، وانما هو التزام بالمسار ايضا ، التزام بالاسلوب » . ونضيف الآن انه لا بد للكاتب أيضا أن يلتزم بأن يشارك شعبه – من خلال عمله – في اكتشاف ابعاد قضية هذا الشعب التي كرس الكاتب عمله لها . اننا لا نرفض ان يقدم لنا الكاتب تأملاته الخاصة او افرازات حالاته النفسية ، ولا نطلب منه ان يحول ابداعه الادبي الى دراسة سياسية او اجتماعية « ينظر » فيها للقضية التي يكتب عنها من احدى زواياها . ولكننا نطالبه بأن يجعل للقضية الاولوية في بناء عمله الذي يكرسه للقضية نفسها .

وفي قصة رشاد ابو شاور نرى حرص الكاتب على ان يضيف الى وعينا بحربنا وبقضيتنا بعداً انسانيا عميقا ورائعا : بعد اللحظة التي يقرر فيها المقاتل الثوري ان يصبح مقاتلا . انه لا يندفع الى القتال اندفاع الثور الى حلبة الصراع ، وانما هو يمضي الى الحرب وقلبه مثقل بالاسى وعقله يومض باليقين: الاسى لانه لا يمضي لكي يشارك في ملهاة مرحة ، وانما يمضى لكي يقاتل ويقتل ويموت ولكي يشهد مصارع شعبه ومأساته بعينيه ولكي يشارك فيها بنفسه ، واليقين لانه اذ يشهر سلاحه فانما يصبح واثقا من انه اصبح الان يصوب الى الهدف الصحيح وبالاسلوب الصحيح ايضا .

كذلك نرى نفس الحرص – بقدر اخر ومن زاوية اخرى – في قصة محمد رؤوف بشير . انه يكشف لنا – رغم سذاجة نهايته وخطابيتها – عن نوع اخر من احتياطي جيشنا ، نوع وصلت به أزمة مجتمعه واحساسه الاخلاقي بالاثم لتنعمه بالحياة المريحة ولضياع حياته في المسؤوليات التافهة . وصلت به هذه الازمة الى الاحساس بانه لكي يكون جديراً بالحياة فان عليه ان يشارك شعبه المأساة ومحاولة صنع الانتصار .

اما قصة فايز محمود ، فلا نلمح فيها غير محاولة ساذجة لتسجيل حالة ميلودرامية لا علاقة لها باي واقع انساني عام ، ثم هو لم يبذل الجهد الكافي لكي يحيل نموذجية الفردي الى نموذج يستحقه التفرد. ان فايز محمود لم يكتشف – أو ربما لم يعد بان يكتشف – بانه ساعة اراد أن يكتب عن قضيتنا وعن مصيرنا فقد اصبح مطالبا ان يكتب بجدية وبجهد يكرسهما لعمله قبل ان يكرسهما للقضية التي اراد ان يكتب عنها . ولم يكتشف – او ربما لم يعد بان يكتشف – بان لنا الحق في ان نطالبه بهذه الجدية وبذلك الجهد .

القاهرة

سامي خشبة

الفضيلة بين البدو والحضر

– تتمة المنشور على الصفحة ٧ –

التي قام بها بعض الاطباء الروسيين على حفريات القرم وسيبريا واوكرانيا وازبكستان قد اثبتت قدم الامراض التي تصيب الانسان الحديث ورجوعها الى العصر الحجري والبرونزي مع اختلاف بسيط سببته اسباب التحضر ، ومنها استنبط اولئك الاطباء ان مستوى الصحة العامة قديما لم يكن احسن بكثير من مستوى الصحة في الوقت الحاضر كما كان الاعتقاد السائد ...

ولكن هل نحتاج الى تعداد الامثلة اكثر من هذا ؟ هذه هي الحقيقة النزيهة عن المتوحش الذي يزعمون سلامته والمتحضر الذي يزعمون مرضه ، ناخذها من الدراسات والاحصاءات الجادة لا من افلام طرزان وغيرها من افلام هوليوود التي كانت من اكبر العوامل في ترويج تلك الفكرة الخاطئة . وهذه الحقيقة هي بالطبع ما كنا ننتظره من التفكير الهادىء في المسالة . فتقدم الدراسات العلمية والاستكشافات الطبية والادوية الحديثة المضادة للحيويات ، وانتشار المرافق الصحية في البيوت والمدن ، وكثرة العناية بالنظافة الاجتماعية وامور الصحة العامة ، وسهولة العلاج وتكاثر انتشاره بارتفاع المستوى الاقتصادي للفرد او بالتاميم الصحي ، كل هذا نتيجته المنطقية الاقلال من الامراض والزيادة من الصحة والاطالة في الاعمار .

اذا كان الانسان المتبدي ليس كما يزعمون احسن صحة ولا اقل مرضا ولا اطول عمرا من الانسان المتحضر ، واذا كان باجماع الكل اقل رخاء اقتصاديا ، وكان في الوقت نفسه اقل علما ومعارف ، فلنات الآن الى الزعم الاستعماري الاخير بانه اكبر سعادة . وهذا ايضا زعم بالغ الخطا والخبث . كيف يكون الجاهل القذر المريض المحتاج اسعد من المتعلم النظيف الموفور الصحة الآمن من غائلة الجوع والعوز ؟ كيف يكون سعيداً من يهدده شبح المجاعة في كل يوم او كل موسم وتضنيه الامراض المنهكة او تفتك امامه بزوجه واطفاله ، وتنغص حياته وترعب فكره المخاوف الخرافية وعقائد السحر والشعوذة ؟

قد يكون هذا المخلوق التعس راضخا لحاله مستسلما لنكده في ذل ابكم يقارب حالة الحيوان الاعجم . لكن هل هذه هي السعادة ؟ لست انكر ان التعلم والاخذ باسباب التحضر قد يجلبان عذابا نفسيا ناتجا عن الشعور بالنقص والاحساس بوجود الظلم والحرمان وما يتبعه من صراع اجتماعي ونضال فكري . ولكن اليس هذا خيرا من الرضوخ والاذعان ، اوليس هو بداية الاصلاح والتحسين ، وهو الذي ينمي المواهب البشرية ويفتق الذهن المخترع ويدفع بالانسانية في طريق التقدم ؟ واين كانت الانسانية تكون لو ظل ابناؤها راضين بحالهم مستسلمين لحظهم الطبيعي ، هل كانت تتقدم كثيراً على نصيب الحيوان الاعجم ؟ ولقد قيل من قبل ان الذي حرك الفلاح الفرنسي الى الثورة الكبرى لم يكن مجرد سوء حاله ، فقد كان غيره من فلاحي اوروبا اسوأ منه حالاً ، انما الذي حركه هو احساسه بهذا السوء وانتباهه اليه وادراكه للظلم الواقع به من اثر الوعي الثقافي الذي نشره كتاب القرن الثامن عشر المتحررون في فرنسا .

هذه حقيقة تلك الدعاية المغرضة عن فضل البداوة وجلالها وصحتها وسعادتها . ومن هنا تتجلى للقارىء اخيراً اهمية هذا الموضوع الذي اخترته في المناسبة الراهنة ، فهو ليس مجرد مناقشة اكاديمية او جدل نظري او تصحيح منطقي علمي لخطا فكري شائع ، بل لهذا الموضوع اهمية عملية ، اهمية قومية ، فان من اهم الاسباب لتاخرنا الحاضر ورضانا بحالتنا الراهنة تعلقنا بهذه الفكرة الخاطئة عن فضائل البداوة ورذائل الحضارة ، ورغبتنا في المحافظة على ما نظنه عاداتنا الحميدة وتقاليدنا الفاضلة ، ومعظم عاداتنا وتقاليدنا علم الله شريرة ضارة عظيمة العفن والفساد .

وقد راينا الفريق الاول الذي يستفيد من استبقائنا في وهمنا الكبير ، فريق الاستعماريين ، ولكن لا يغفلنا هذا الفريق عن اشياعه واتباعه وذيوله بين ظهرانينا . فسطوة الاستعمار السافرة قد انسحبت الآن على اي حال ، وحل محلها على خشبة المسرح حكام وطنيون ترتبط مصالحهم بها وهم ايضا من مصلحتهم ان تبقى شعوبهم راضية بحالها عازفة عن السعي الى التغيير والنهوض للتقدم . وهم يخدرونها بنفس الشعارات والاوهام عن تقاليدها الفاضلة واخلاقها الكريمة . ومن هنا نعرف في الصراع الراهن في العالم العربي بين قوى الجمود والرجعية وقوى التحرير والتقدم لماذا يكثر الفريق الاول من استعمال ذلك السلاح فيرمي القوى المحررة بالخروج على الدين ونبذ التقاليد وافساد الاخلاق وامثالها من التهم .

***

لست انكر – اخيرا – ان بالحضارة المعاصرة كثيرا من النقائص والآثام ، ولست ادعو الى تقليدها في كل نواحيها تقليدا اعمى ، فاني لادرك انها اتخذت كثيراً من الوجهات الخاطئة التي يحمل عليها مفكرو الغرب انفسهم ، وارجو الا يعتقد القارىء انني من اولئك المفتونين بكل شيء في الحضارة الغربية المعاصرة ، الذين يريدون لمواطنيهم ان ينقلوا كل شيء عنها ، فلا ينجحون في اغلب الامر الا في نقل غثائها التافه وبهرجها السطحي ونقائصها الضارة . لكن بالحضارة الحديثة خيرا كثيرا نريده لانفسنا ولشعوب امتنا العربية . نريد علمها وثقافتها ، نريد غناها ورخاءها الاقتصادي ، نريد صحتها ونظافتها ، نريد تهذيبها الفكري ونضجها الفني وارهافها الروحي ، فان من اكبر الاوهام ان نعتقد اننا نحن الشرقيين اكثر « روحانية » من الغربي المثقف ، واغلب روحانيتنا المزعومة اغراق ذليل في السحر والخرافة وعبادة الاوثان وضباب الكهنوت ينحط بنا الى ادنى دركات المادية الغليظة الجافية . ونريد ايضا مستواها الخلقي الارفع ، فالذي لا شك فيه لكل عارف بالاحوال متحر للعدل في حكمه ان الفرد العادي في امة غربية متقدمة هو ارفع سلوكا في تجارب حياته واكثر تهذيبا مع رفاقه والمحتكين به واكبر اخذا لنفسه بدواعي الامانة والانصاف ومراعاة الغير واعظم احتراما للمراة وتقديرا لكرامتها وحفاظا على عزتها الانسانية ، من الفرد العادي عندنا .

هذه هي الحقيقة الاليمة ، برغم كل ما يقوله قائلونا ويكتبه كتابنا ، من ذلك الطالب الذي قدم لي مقالة بداها بقوله « يفخر الغربيون علينا بعلومهم وصناعاتهم ، وحضاراتهم ومدنيتهم ، ولكننا معشر الشرقيين نمتاز باخلاقنا الرفيعة ، وتقاليدنا الكريمة ، وحرصنا على الشرف الخ ... فالشرق كان وما زال معقل الفضيلة ، والغرب بؤرة الرذيلة الخ ... »

فهرست

العدد السابع ـ تموز (يوليو) ١٩٦٩ ـ السنة ١٧

* * *

الى المرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي اذكر له مقالة مدوية بعنوان « اخلاقنا قبل مدنيتهم » ، عقد فيها نفس المقارنة الزائفة بين تفوق الغرب العلمي والصناعي وما يزعمه للشرق من ارتفاع روحي واخلاقي .

ذلك ما نريده من الحضارة الحديثة . فان كنا جادين في طلبه فلا يصدننا عنه ابواق ناعبة تصيح بشر تلك الحضارة وفسادها او بتعاستها وشقائها . فلننظر الى الامام ، ولا نتعلق بذكريات ورديـة واهمة عن الماضي الفاضل السعيد ، فما كان ماضينا في معظمه سعيدا ولا فاضلا .

تعقيب

كتبت هذا البحث في مارس سنة ١٩٦٧ ، وبينا أعده للنشر حدثت حرب الايام الستة فصرفتني عن نشره . واليوم اذ اعيد النظر فيه اجد الظروف صالحة مرة اخرى لنشره ، بل ربما كانت حاجتنا الآن اشد الى العبرة التي يحتويها .

فمنذ هزيمتنا القاسية في تلك الحرب ، اخذ عدد متزايد من متعلمينا يدرك ان تلك الهزيمة لم يكن سببها مجرد ضعف عسكري ، بل ان ضعفنا العسكري نفسه انما كان الحاصل النهائي لضعفنا العام في مختلف الجوانب الحضارية . او قل بعبارة صريحة ان اسرائيل ليست متفوقة علينا في الاعداد العسكري وحده ، بل هو تفوق حضاري شامل، نتج من انها اكثر اخذا باسباب الحياة المتمدنة ، بينما نحن في معظم جوانب حياتنا لا نزال على قدر كبير من التخلف .

ومغزى هذا ان سبيلنا للحاق باسرائيل ـ دعك من التفوق عليها ـ لن يكون بالبناء العسكري وحده ، على اهمية هذا ولزومه ، بل بالبناء الحضاري الشامل . وذلك بأن نزيد من جهودنا في التخلص من مخلفات قرون التدهور ، والقضاء على « الرواسب المتعفنة للنظام القديم » ، ونقبل بخطى اكثر جراة واكبر سعة على متعدد اسباب الحضارة الحديثة، من ثقافية وتكنولوجية ، واقتصادية واجتماعية .

هذا ما يكاد يجمع عليه افراد طبقة المثقفين بيننا ، وهم يكتسبون الى صفهم مزيدا من الانصار من بين افراد الشعب الذين انتبه وعيهم عقب الهزيمة واخذوا يدركون حقيقة الحال في اضمحلالنا الحضاري الشامل ، بسبب ما اعقب الهزيمة من حركة نقد ذاتي متزايدة القوة . الا ان هناك عائقا كبيرا لا يزال يعوق الكثيرين عن الاقتناع بهذا المغزى ، وهو اعتقادهم ان الحضارة تحمل في طياتها شرا لا محيد عنه ، هـو الانحلال الاخلاقي .

فهؤلاء يقرنون الحضارة بالفساد الخلقي ، ويعتقدون أن كل امة تتحضر لا بد ان تدفع ضريبة هذا التحضر من اخلاقها . وهـم يتوهمون اننا نحن الشرقيين ، برغم تخلفنا العلمي والمادي الذي يسلمون بـه ، احمد من الغرب اخلاقا واشرف تقاليد واقوى تشبثا بعرى الفضيلة ، فالشرق عندهم كما قال ذلك الطالب معقل الفضيلة ، والغـرب بؤرة الرذيلة ، وهم كما قال الرافعي يؤثرون اخلاقنا على مدنية الغربيين .

فانا ارجو ان يكون لهذا البحث بعض الاثر في القضاء على تلك الفكرة الخاطئة الضارة ، بعدما سقت في التدليل على خطأها وضررها، وتحليل للاسباب التي تدفع الكثيرين منا الى التمسك بها ، من حنين رومانسي الى الماضي وايمان بخرافة العصر الذهبي الذي ولى ولـن يعود ، او اعتقاد بان الانسان خير بطبعه والمجتمع هو الذي يفسده ، او انخداع بتمويه الدعاة الاستعماريين وعملائهم الذين مـن صالحهم ان يبقونا على تخلفنا . وبهذا نزيل عاملا من اقوى العوامل التي لا تـزال تقعد بامتنا العربية عن اللحاق بركب الحضارة السائر الى الامام . ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد .

القاهـرة

محمد النويهي